رواية

أبو عبدو البغل
scanned by jamal hatmal

بان الصبح

عبد الحميد بن هدوقة

دار الآداب

بان الصبح

عبد الحميد بن هدوقة

بان الصبح

رواية

دار الآداب - بيروت

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى ١٩٨٠ الجزائر
الطبعة الثانية ١٩٨٤ الجزائر
الطبعة الثالثة
دار الآداب ـ بيروت ١٩٩١

- 1 -

أتمت دليلة الحركات الرياضية التي تقوم بها كل صباح، وتقدمت من مرآة الخزانة وقالت لها وهي تنظر إلى وجهها وجسمها فيها:

«أنا جميلة، أليس كذلك؟ إياك أن تعكسي أمامي صورة زائفة لحقيقتي! هذا شعري أعرفه بلونه الخروبي وطوله. هاتان عيناي العسليتان الحالمتان بتفجير شيء ما... هذان حاجباي المقوّسان الرقيقان. هذا أنفي المستقيم الذي يأنف من انحرافي... هاتان شفتاي الرقيقتان تحسنان التدخين والشرب أكثر من القبلات!».

فكرت لحظات وهي واقفة أمام المرآة ثم قالت:

«صدري لم يستسلم، ما زال دائماً في حالة تأهب! وهذا خصري...»

تنهدت وهي تنظر إلى خصرها وسخرت منه تقول: ستصير برميلاً ذات يوم بفضل كريمو...

اتجهت على أثر ذلك إلى منضدة السرير فأخذت سيقارة وأشعلتها وجذبت أنفاساً وإذا بالباب يدق، يصحبه صوت أبيها:

ـ ألا تقومين؟

اطفأت السيقارة بسرعة، واشارت إلى المرآة هامسة: الجنرال! وخرجت وأغلقت الباب وراءها بسرعة لئلّا يدخل أبوها الغرفة. وأجابته:

ـ لي درس في الحادية عشرة، والساعة الآن الثامنة والربع.

فسألها:

ـ وهالة؟.

ـ خرجت في السابعة والنصف. دروسها تبدأ في الثامنة.

ـ مع من تذهبين إلى الكلية؟

ـ كالعادة، الحافلة أو بعض الأصدقاء.

ـ إياك أن تركبي مع أي كان!

ابتسمت ساخرة من أبيها ومن نفسها وأسرّت: على ماذا تخاف أيها الجنرال؟ انتهى الأمر... أنه هنا في بطني منذ شهرين!، ثم أفصحت:

أنا أركب مع أي كان! لا، أبداً!

وفي نفسها كانت تقول: اللهم إلا إذا لم أجد...

فقال لها الشيخ علاوة معتدّاً بنفسه:

ـ نحن اليوم لنا اجتماع حول «الميثاق» في الساعة التاسعة.

وأضاف وهو يغادرها:

ـ اليوم يوم أعداء الله!

نظرت إليه بإشفاق وسخرية وهي تتمتم بين شفتيها: أعداء

الله! كأن الله عاجز عن الدفاع عن نفسه!...

عادت إلى غرفتها فاستلقت في الفراش، وأخذت علبة السقائر فأشعلت واحدة وجذبت منها نفساً وأرسلته ببطء لتتابع تعرجات الدخان كما تفعل عندما تكون منشغلة البال. أقلعت سيارة أخيها الأكبر الذي يصاحب أباه إلى ساحة الشهداء عندما ينزل مبكراً. ومن هناك يتوجه إلى عمله، فقالت في نفسها: «لو كنت سيارة لاتجهت في خط مستقيم...» لكن الخاطرة لم تكن موفقة، فاستدركت وما الفائدة؟ أتحطم لأول عارض... وقفزت في ذهنها فكرة: تكَلِّم كريمو الذي وعد أن يجيبها في مدى أسبوع، وقد انتهى الموعد، ولم تظفر بجواب.

نزلت إلى الصالون في الطبقة الأرضية حيث الهاتف، ركّبت الرقم فإذا بصوت يجيبها: «هنا صوتنا تراك»... فاستعذرت وأعادت تركيب الرقم، فأجابها صوت آخر: س. ت. س. في خدمتك... وضعت السماعة، وفكرت ماذا تعمل؟ الهاتف لم يرد أن يذعن لرغبتها! طفقت تركّب الرقم من جديد، فيجيبها صوت لم يستيقظ صاحبه جيداً:

ـ ألو... نعم....

ـ أنا دليلة! (بحدّة).

فيجيبها كريمو وقد أيقظته تماماً حدّة الصوت:

ـ صباح الخير. ماذا تريدين في هذا الوقت المبكر؟

ـ (آمرة) أريد أن نتلاقى في الساعة الثانية زوالية!

ـ في الساعة الثانية؟ (بتردد) أين؟

ـ في شارع محمد الخامس.

ـ (محتاراً) لكني لا أستطيع . . . أختي تُزفّ عروساً يوم الأحد، وأبي قرر أن يقيم حفلة لأصدقائه غداً فلا يمكن أن أتغيب، لا اليوم ولا غداً ولا بعده، حتى ننتهي من هذا الزفاف.

ـ لا بد أن نتلاقى اليوم! (يزداد صوتها حدّة وتهديداً).

ـ لماذا لا نتلاقى في يوم الاثنين أو أي يوم آخر بعد الزفاف؟

ـ (بقوة) لا! في الساعة الثانية بعد الزوال!

تضع السماعة بقوة وتنهي المحادثة وإذا بأمها تدخل، وتسألها:

ـ مع من كنت تتكلمين يا طفلة؟

فردّت ساخرة:

ـ صباح الخير، «كومندان»!

ـ مع من كنت تتكلمين؟ يكفي من المزاح!

ـ مع خالتي!

ـ من خالتك هذه؟ أم تسخرين مني؟

ـ خالتي هي خالتي . . . ألأنه ليس لك أخت فينبغي أن أبقى بدون خالة؟

ـ متى تنتهين من هذه السخرية؟ أتحسبين أنك ما زلت صغيرة؟

ـ أبداً، «كومندان»، أعرف جيداً أنني لست صغيرة بالمرة!

ـ معك لا يمكن الكلام . . .

رجعت العجوز كلثوم إلى المطبخ كالمغضبة. وصعدت دليلة

إلى الـدور الثاني، إلى غـرفتها، فتحت الخـزانة تبحث عن تبـّان نظيف تلبسه فوجدت كل سراويلها الداخلية وسخة، في كل مرة تنزع واحداً ترميه في زاوية الخزانـة، وتنسى من بعد تنـظيفه. . . نزعت التبان الذي عليها ورمته مع التبانات الأخرى. ثم رزمت الجميع مع بعض المناديل والصـدرات في قميص نوم، وأخـذت حقيبتها اليدويـة والرزمـة وخرجت. رأت بـاب الرزق عـلى الله (بـاب غرفـة أخيها الأكـبر) وكانت تنـوي أن تـطلب من زوجـة أخيهـا، مني، أن تغسل لهـا في هذه المـرة أثوابهـا، لكن لما رأت الباب مغلقاً عدلت عن ذلك. ومرت بباب غـرفة أخيهـا رضا، فدقت على كلمة «الدخول حر» المكتوبة عـلى الباب، فلم يجبهـا أحد نزلت إلى الدور الأول فدقت عـلى باب «كلبـة واعرة» بـاب غرفة أختها الكبرى زبيدة. ففتحت لها الباب نعيمة، ابنـة عمها التي تدرس في الجزائر. زبيدة لم تكن هناك. سألتها:

ـ ليس لك دروس اليوم؟

ـ قولي، صباح الخير، أولاً. . .

ـ خير ماذا؟ أعندك خير أنت؟

ـ طيب، لا أدرس اليوم، أنا حرة.

ـ قـولي، لا أدرس اليوم، بـدون حريـة. . . أين هي زبيدة؟ مع الكومندان؟

ـ ربما. ماذا تريدين منها؟ وما هذه الرزمة التي في يدك؟

ـ هـذه. . . ليست بذات أهميـة. أعرف انـك تقسمين بكـل الأيمان أن تغسليها أنت، ، لكن. . . أليس كذلك؟

ـ ليس كذلك! مع السلامة. أنا حرة، والحرية لا تقبل الأوساخ!

ـ في كلية الأدب لا يلقنونكم شيئاً كبيراً على ما يبدو!

ـ في كلية الحقوق يلقنونكم اغتصاب حرية الناس! مع السلامة. . .

وقفت نعيمة بالباب مازحة تشير لها بالخروج. فاقتربت منها دليلة ووضعت ذراعيها على كتفي ابنة عمها، وقالت لها ساخرة:

ـ أقسم بحبك لي أن تغسلي مع ثيابك هذه الأثواب الداخلية. إنها نظيفة وإنما أحببت أن أزيل عنها رائحة الخزانة!

وقبلتها على كتفها كما يحدث في الريف مع الرجال.

ـ أنت التي يناديك شباب الحي: دليلة ـ الرجل، ليس أنا!

ـ لذلك قبلّت كتفك! لكن لا بأس، أنت ابنة عمي وقبلة على جبينك ليست خسارة كبرى. . .

قبلتها على جبينها ساخرة. فقالت لها نعيمة:

ـ في أي سنة تنوين الانتهاء من السخرية؟

ـ عما قريب. . . أؤكد لك.

تركت لها ملابسها الداخلية ونزلت إلى المطبخ، فوجدت أمها وأختها الكبرى وزوجة أخيها هناك. فحيّت:

ـ صباح الخير، أيها الرفاق (بصيغة المذكر)!

فقالت لها أمها:

ـ إلى متى وأنت تسخرين؟

ـ عفواً، كومندان، أمزح لا أسخر. علينا بالدّقة في التعبير. . . . الم تسمعي حوار التلفزيون؟ كل واحد يتّهم الآخر بعدم الدقة في التعبير!

ـ مالك يا طفلة؟

ـ هوّني عليك يا ماما! أمزح ليس إلا. اجلسي، يا أميمتي الصغيرة، أنا أفرغ القهوة وحدي بدون أن أتعبك.

قبّلتها وجلست فشربت قهوتها في جرعات وخرجت.

***

وقفت دليلة في مفترق الطرق بين «حسين داي» و«القبة» لعل سائقاً ممن تتوسم فيهم «غباء خاصا» يدعوها للركوب. . .

وأخذ السائقون يغازلونها من سياراتهم بالإشارات الضوئية، والبعض بالكلمات والغمزات وهي لا تأبه لهم، لأنهم كانوا من الشبان. إن تجربتها علمتها ان الركوب مع مَنِ اجتازوا مرحلة الشباب ولا سيما المتزوجين منهم، أضمن طريقاً. بين بن عكنون حيث تدرس وهذا المكان الذي تقف فيه، قلّما تجد من يضحّي بالبنزين والوقت من الشبان. إنهم بمجرد أن يسمعوا «بن عكنون» يأخذون في الاعتذار والتأسّف الذي لا يغنيها عن طريقها. . .

ها هي ذي سيارة، كانت مسرعة، وإذ رأتها خفضت السرعة! ها هو رجل بداخلها يتجاوز الأربعين يشير إليها. . . تنظر دليلة إلى الرجل: يلبس نظارة سوداء لا تتبين من خلالها

طـريقة نـظره. تـتردد! السيـارة تبتعـد «راجلة» في تبـاطؤ كبـير! إشـارتهـا الضـوئيـة اليمنى تلح عـلى دليلة: «اقبـلي! لا تخـافي»! تلحق به دليلة. تركب إلى جانبه يحييها مرحباً ويعتذر مكانها:

- الحافلات صارت عذاباً!
- وأيّ عذاب!
- أتسكنين في هذه الناحية؟
- لا، كنت عند خالتي.
- آ... لك خالة تسكن هنا... جميل.
- أين تريدين أن أوصلك؟
- إلى بن عكنون فقط، إذا أمكن.
- تسكنين هناك؟
- منذ أربع سنوات!
- جميل!

يأخذ علبة سقائـر أمريكيـة من درج السيارة ويـنـاولها سيقـارة فتأخذها منه. يجذب القداحـة الكهربـائية ويقـدمها لـدليلة وهو يبتسم. تلاحظ طاقم أسنانه الاصطناعية التي موّههـا بنابـين من ذهب. تقول في نفسها: «إن الرجال لا يريدون أن يظهروا كباراً أكثر من النساء...»

تشعل السيقارة وتعيد إليه القداحة شاترة. تنتـظر ماذا يفعـل بعد السيقارة، لكن الـرجل يبقى في حـالته الـطبيعية. لا يبـدي أي حركة أو إشارة خارجة عن نطاق الأصـول العامـة للسلوك. ثم بغتة يفاجئها سائلاً:

ـ ماذا تدرسين؟

فتجيب تلقائياً:

ـ الحقوق.

ـ جميل! كم سنة بقيت لك؟

ـ هذه سنتي الأخيرة.

ـ أنا رئيس مصلحة إدارية بإحدى الشركات. مكتبي بالمدينة. أعربت له دليلة عن أسفها لإتعابه وإضاعة وقته، وقالت:

ـ إذا شئت، اتركني هنا. لست مستعجلة.

فأجابها مبتسماً:

ـ هوّني عليك أنا أيضاً لست مستعجلاً. أعمل بشركة خاصة يملكها شخص واحد. لا يهمّه حضوري، يهمه عملي أتمه نهاراً أو ليلاً.

ـ أنا ظننت أن العمل عند القطاع الخاص أصعب...

ـ وأنا قلت لك أسهل؟ إنما اتفقنا على أن يكون وقتي لي وعمله له، هكذا لكل حسابه... إذا لم أتمّ العمل المطلوب مني بالنهار أتمه بالليل!

ـ كيف يستطيع تقدير ذلك؟

ـ ممارسة المهنة زمناً طويلاً تعلّم كل شيء. مثلاً في القطاع العام، المردود يساوي عشر الطاقة المستخدمة!

هزت دليلة كتفيها وكأنها لا يعنيها الأمر. فقال:

ـ هـذه مشكلة من مشاكـل الجزائـر. . . مشكلة كبيرة. إن لم تحلّ وجدت البلاد نفسها بعد بضـع سنوات كالرجل الـذي فقد ذاكرته!

راق التشبيه دليلة، ولكنها لم تفهم إلامَ يـرمي بكلامـه. إنـه يعمل بالقطاع الخاص، بـأي حق يسمح لنفسـه بهذا النقـد؟ أم هي عـدوى من «معلّمه»؟ وفكـرت أن تهاجمـه لترى كيف يصـدّ ضرباتها فقالت:

ـ ألم تقل إنك تعمل بالقطاع الخاص؟

أدرك الرجل ما تعني بهذا التساؤل فردّ الهجوم:

ـ هل أفقد جزائريتي بذلك؟

ـ ليس هذا ما أعني، لكن. . .

ـ ماذا؟

ـ ظننت أن القـطاع الخاص يسرّه أن يـرى الجزائـر تحيا بعشر طاقتها. . . لا؟

ـ تحيا. . . أظن يا آنسـة أن التعبير الـذي استعملته لا يتـأتى من طـالبـة في الحقـوق. إذا استـطاعت الجـزائـر أن تحيـا بعشر طاقتها، من ذا يكون مثلها؟ كان عليك أن تقولي إنها تموت تحت ثقل التسعة الأعشار الضائعة!

قالت دليلة في نفسها: بـدأ يقلقني. . . أنا أبحث عن تفجـير العشرة أعشار، حتى يعلو الدخان إلى أعلى السماء، وهو يتحدث عن. . . لست أدري ماذا!. . . لما رآها سكتت قال:

ـ من يدري، ربما بعد المصادقة على الميثاق الوطني تصير الرؤية واضحة!

ـ هذا في الوقت الراهن لا يهمني كثيراً. أنا مشاكلي لم أستطع حلّها فضلاً عن مشاكل ستة عشر أو سبعة عشر مليون جزائري!

ـ ما يجري في بلادك يهمك، أحببت ذلك أم لم تحبي! لكن لا أدري ما هي مشاكل من في الثانية أو الثالثة والعشرين من العمر؟ الحياة كلها أمامك. كل يوم تكتشفين اكتشافاً جديداً! مالك والمشاكل أنت؟ أنا في سني هذه وليست لي مشاكل...

ـ من حسن حظك.

ـ من حسن تنظيمي! نعم، من حسن تنظيمي... انظري إلى هذا الجسر الذي نقطعه. ليست الفوضى هي التي بنته ولا الصدفة وضعته هنا، إنما الانسان المنظم. فكروا أن السيارات لا يمكنها أن تمر من شعبة غائرة مثل هذه فمدّوا الجسر.

وكانا حينئذ قد وصلا إلى الجسر الرابط بين حيدرة والجهة المطلة على البحر من المدينة. فقالت دليلة:

ـ هناك ظروف لا يستطيع الإنسان مجابهتها بسهولة...

ـ المجابهة هي الأساس. السهولة تأتي بعد ذلك... الآن لو لم أقتحم بسيارتي، وأنتظر السيارات الأخرى تفسح الطريق نبيت هنا. كذلك الحياة.

ابتسمت دليلة وردّت له ملاحظته الأولى:

ـ المجابهة غير الاقتحام!

أدرك بسرعة ما تعني، وقال:

ـ واحدة بواحدة... لكن مع ذلك، كل من المجابهة والاقتحام يتطلبان الشجاعة والاستمساك بحرية العمل.

ـ وإذا لم يمكنْ؟

ـ أنا طلّقت زوجتي من أجل احتفاظي بحرّية العمل التي حاولتْ تعطيلها.

قالت دليلة في سرها: وصلنا إلى بيت القصيد! كل هذا اللفّ من أجل أن يقول إنه طلّق زوجته!

ـ لكن الرجل أضاف:

ـ وهي رغبت في الطلاق من أجل أن لا أعطّل جزءاً من حريتها. كلانا أدرك أنه يحيا في مغالطة أخذت تسلب منه حريته بلا طائل.

التبس على دليلة أمر الرجل، ولم تدر ماذا هو؟ ماذا يريد؟ ماذا يعني بكلامه؟ هل هو يلمّح إلى أشياء سياسية؟ هل انتقلت إليه عدوى تفكير مستخدمه؟ أم يتحدّث ليتحدّث؟

ورأت أن تجاريه، إذ ليس هناك ما يترتّب على الاستماع إليه فقالت:

ـ الطلاق ليس جميلاً.

ـ بالنسبة إليّ جميل. لأني اكتشفت أنه من المغالطات البشرية الكثيرة التي يحاول الإنسان تغطية حقيقته بها. الزواج هو بديل

زائف للجنة الضائعة. . . وللجنّة البعيدة كذلك!

ـ لم أفهم ما تقول!

ـ الأمر بسيط. الجنّة الضائعة هي اللاوعي الكلّيّ، والجنّة البعيدة هي الوعي الكلي. هذا واضح؟

قالت دليلة في نفسها: «أخذ يلقي درسه. . .».

ـ واضح.

ـ الانسان الآن في منتصف الطريق يحيا بجزئين: جزء يتصرف فيه وعيه، وجزء يتصرف فيه لاوعيه.

ـ وماذا يترتّب على هذه الحياة النصفيّة، لست أدري كيف تسمّى؟

ـ يترتّب عليها أنه يدور في حلقة مفرغة. يحيا بالبدائل المزيفة!

ـ ماذا يفعل؟

ـ ببساطة عليه أن لا يغالط نفسه ولا يبني حولها سجناً ضخماً بما يخلق من قيود وحدود وإنما يفرغ إلى العمل الجادّ ليخرج من سيطرة اللاوعي بأقل ثمن!

ـ كل هذا يفوت حدود مداركي.

كانت السيارة قد وصلت بهما إلى المدرسة الإدارية. وكانت في كل مرة تعتقد فيها أنها توصلت إلى فهم مقصود الرجل، تزداد تيهاً. وفكرت أنه إما رجل مريض وإما يسعى إلى شيء لم

تتوصل إلى تصوره. ومهما يكن، فلم تبق لها معه إلا دقائق معدودات وتنزل، وإذا بالرجل يتكلم:

ـ ذات يوم كنت بأحد الشوارع، وكان أمامي زوجان في مقتبل العمر، لست أدرى إن كانا متزوجين أم لا. كانا يمشيان في انسجام. وإذا بالمرأة تنحني وتنزع من رجلها حذاءها وتنزل به على رأس الرجل! اجتمع الناس حولهما، البعض للتفرج والبعض لمحاولة التوسط بينهما... ثم انطلقا سائرين من جديد كما لو لم يحدث بينهما ما يستحق القطيعة!..

قاطعته دليلة سائلة:

ـ هنا بالجزائر؟

ـ هنا بالجزائر. لكن ما الفرق؟ عندما يكون الأمر يتعلق بالمرأة والرجل، العالم كله يصير بلداً واحداً...

واستأنف يقول:

ـ ومن ذلك اليوم أدركت أنه في لاوعي كل رجل امرأة، وفي لاوعي كل امرأة رجل. القصة واحدة منذ الأزل وإلى الأبد، والممثلون يتعاقبون على تأدية الأدوار!... لهذا فأقل ثمن ندفعه هو أن نتعلم أن نكون أحراراً دائماً. ولهذا قلت لك من قبل: إن الزواج هو البديل المزيّف لما في لاوعي كليهما!

ـ إن ما تقوله يستوجب انقلاباً كلياً في الحياة والسلوك والتصور، يستوجب انفجاراً ضخماً!

ـ ولِمَ لا؟

لـو تحقّـق هذا لانفتحت آفـاق أخرى أمـام الإنسان، تصـير الحياة فعلاً مغامرة عظيمة تستحق الحياة ويصير المستقبل. . .

لا داعي للمبـالغـة. . . الآفـاق، المغـامـرة العـظيمـة، المستقبل. . . كلمات جعلت لتغطية العجز وعدم تحقيق الرغبات في الحاضر. المغامرة العظيمة بين أيدينا لا تتطلب منا سوى أن نحياها!

وكانت السيارة قد وصلت أمام مقرّ الديوان الوطني للصناعة والتجارة السينمائية، فقال لها:

ـ أين تريدين النزول؟

ـ شكراً، أنزلني هنا. لست بعيدة.

فقال لها ضاحكاً:

ـ عن سكناك أنت بعيدة!

قالت في نفسهـا: «لم أسجل معه هدفاً! لكن، من هو؟ هل يعرفني؟ ولماذا كل هذه الأحاديث والتفلسف؟».

فكرت أن تطلب منه عنوانه أو تسأله عن اسمه ولكنها عدلت عن ذلك: لن يقول لي الحقيقـة. ما الفـائدة؟ الـرجل عنـدما لا يكذب على المرأة يعتبر نفسه أحمق أو غبياً!

أقلعت السيارة وتابعتها دليلة لحظات، حتى غابت عن عينيها في الطريق المؤدي إلى حي الأبيار.

بقيت في مكانها برهة عساها أن ترى بعض زملائها، ولما لاحظت رجلين في آخر شبابهما يتسكعان حولها بصقت في اتجاههما وانطلقت مع الطريق إلى كلية الحقوق.

- 2 -

في الوقت الذي كانت فيه دليلة متوجهة إلى الكلية، تفكر فيما دار بينها وبين الرجل من كلام، كان أبوها الشيخ علاوة واقفاً بساحة الشهداء ينتظر الحافلة ليعود إلى بيته.

إن الاجتماع الذي حضره حول مشروع الميثاق الوطني جعل الدنيا مظلمة في عينيه، ودفعه إلى مغادرة القاعة قبل نهاية الاجتماع.

إنه متضايق من الناس، متضايق من نفسه، متضايق من هذا الانتظار الذي لا يكاد ينتهي: «متى تأتي هذه الحافلة اللعينة؟» لكن الحافلة لم تأت والحشد البشري المنتظر لها بالمحطة يفوق العد!

كانت الساعة العاشرة، الطقس حار لكنه جميل. أعطته هذه المدينة الغافية على البحر منتهى ما يحلم به من رواء.

كان الشيخ علاوة ينظر في اتجاه البحر، ولكن لم يكن يرى عشرات البواخر المنتظرة هي أيضاً ولا زرقة البحر وصفاءه...

ولـو فعـل لـــوجـد سلوى في هــذا أو ذاك ولأدرك أن الحيـاة التي يحلم بها خلّفها وراءه بعيداً!

قال أمامه أحد المشاركين الشباب في اجتماع الميثاق، يردّ عـلى من زعـم أن لا تعارض بين الإســلام والاشتراكيـة، قال: هـل نتأخر بالاشتراكية أربعة عشر قرناً إلى الوراء، أم نتقدم بالإسلام أربعة عشر قرناً إلى الأمام؟».

كـاد الشيخ عـلاوة ينفجر وهـو يسمع هـذا المنطق الغـريب! كـانت هي الكلمة التي أفـاضت الكأس فخـرج وهـو يتمثـل في حزن ببيت من الشعر القديم للغزالي:

غــزلــت لهـــم غــزلاً رقـيــقـاً فـلـم أجـد
لــغــزلي نــســاجــاً فــكسّرت مــغــزلي

ليس من عادته الرجوع في هذا الوقت المبكـر للدار، بالـرغم من أن عمله لا يلزمـه بالبقـاء في الإدارة، ولا يـدخـل تحت أي حيز من الأوقات المنظمة. فهو مستشار، محاضر، مدرس: عامل دائماً ومتقاعد دائماً، كما يقول هو عن نفسه!

إنه يود لو قفز في الهواء فنزل رأسـاً في غرفتـه، كما كـان يقرأ عن أولئك الأولياء الذين يصلي الواحد منهم الظهر بمكـة! ويطير فيصـل إلى الجزائـر أو الأندلس فيعيـد صـلاة الـظهـر التي كـان صلاها بمكة! وقال في نفسـه وهو يتـذكر مـا قرأ، ويتـذكر قـرية جزائريـة تسمى «أولاد سيدي عـلي الطيـار» كان قضى فيهـا ليلة أثناء حرب التحرير، وهو ذاهب في مسيرته الطويلة إلى تـونس:

«من يـدري، لعل جـدهم كان حقيقـة يطير! الشرع لا يصـدّق ذلك ولا يكذّبه».

إن الشيخ علاوة لا يحكم على الأشياء بالعقل، ولكن بالشرع فالعقل في نظره لا ينتهي بصاحبه إلى أي حقيقة: معقـول اليوم هو خرافة الغد والأمس معاً!

لكن الحافلة لا تصل، المنتظرون في تذمر. الشيخ عـلاوة بلغ تذمره حد السخط على هـذه الحافلة، وعـلى سائقهـا المتهاون في عمله وعلى المشرفين على شركة النقل.

«كلهم يعبثون، لا رقيب ولا حسيب!».

أبواق السيارات تنطلق محتجة على من عرقـل سيرهـا. الشيخ علاوة يفيق من سخط إلى آخر: فتى يمتطي سيارة تمشي الهـوينا، عيناه تتنقلان وراءه بوقاحة وفسق بين الـواقفات عـلى الرصيف. لا يأبه للأبواق الصارخة، ولا للأعيـن الشـاتمة الحـانقة. يحمـل كبته الجنسي بين يديه.

تمتم الشيخ علاوة بينه وبين نفسه: هؤلاء هم أبناء الدهاليـز! لـو كنت أنا السـائق الذي وراءه لـدفعت بسيارتي عـلى سيـارتـه فدهكتها! قال أحد الواقفين للشيخ علاوة:

ـ أرأيت يا الشيخ، أين وصلنا؟

ـ أتتعجب من هـذا؟ إننا مقبلون عـلى أكثر وأبشـع. . .

فقال آخر معلقاً:

ـ لو أقامت الحكومة مكان «الحصان» مشنقـة لرجعت الأرض إلى صورتها الأولى!.

فرد عليه الشيخ علاوة كاليائس:

ـ الأرض تكورت وانتهى الأمر!

فتساءل الرجل:

ـ ما العمل إذن يا حضرة الشيخ؟ أنتم الذين ترشدون الأمة، من حقكم تنهون عن هذه المناكر، وتنبهون الحكومة...

فقال الشيخ علاوة في مرارة وسخرية:

ـ قالوا لنا إن الإسلام متأخّر، لا يحل مشاكل العصر! ها هـو الميثاق بدل الإسلام...

ـ الإسـلام، أو الميثـاق أو أي شيءٍ، المهمّ هـو وقف هـذا الانهيـار... سمعت البارحـة رجـلاً يقـول في التليفـزيـون، في اجتماع منقول حول الميثاق: الشعب متعوّد على عصـا الاستعمار، ولا يتعود بسهولة على الطاعة والنـظام. وأنا رأيي ليس الشعب هو المسؤول. المسؤول هم المسؤولون.

فأجابه الشيخ علاوة:

ـ قلنـا لهم لا يصلح آخر هـذه الأمة إلا بمـا صلح به أولهـا، قالوا لنا: أنتم «فرامل» ضدّ كـل تقدم. نحن «فـرامل»! وصفـونا بالمحافظة والرجعية، وكل الأوصاف الأخرى...

ـ من هؤلاء يا حضرة الشيخ؟

ـ هم أولئك الذين يسمّون أنفسهم «التقدميين»!

خفض الرجل رأسه وأمسك عن الحديث، كما لو خشي أن يُتّهم أو يُجرّم. والتفت ينظر إلى الحافلة التي أقبلت تجر عربتين مكتظتين بالركاب. فتزاحم من بداخلها على الأبواب للخروج وتدافع من بالخارج نحو الأبواب. وحدثت ضجة عارمة وفوضى مستفظعة: هذا لحاف يمزّق، وتلك رِجْل تداس، وذلك شيخ يكاد يقع على الأرض... والكل لا يأبه للكلّ. صرخت امرأة من بين اللواتي تقدمن للركوب، في حوالي الخامسة والأربعين، حيل بينها وبين ذراعها التي علقت فيها حقيبتها!

التفت رجل نحو المرأة فرأى شابين حاصراها وجعلاها في تلك الوضعية، فهب لمساعدتها ورأى الشابان النشالان أن حالة الرجل وقوة عضلاته لا ينفع معها إلا ترك المرأة...

لم يستقلّ الشيخ علاوة هذه الحافلة لأنها لا تتجه إلى الناحية التي يسكن فيها، وكذلك مجموعة كبيرة من الركاب المنتظرين... فأقلعت، وعاد الصف إلى منظره الأول، بالكثافة نفسها والكآبة نفسها.

كانت أنهج المدينة كالأمعاء المصابة بالحصر. وكانت الحافلة التي يستقلها الشيخ علاوة ومن يتوجه وجهته قد توقفت بأحد الشوارع في وسط الطريق، وأنزل منها ركّابها لخلل طرأ عليها...

لو وجد الشيخ علاوة سيارة أجرة لاكتراها، ولكن أين هي؟ عشرات ينتظرون في موقف سيارات الأجرة.

بالقرب من المحطة، كانت سيارة شرطة تمشي مشياً وئيداً

مـراقبـاً للواقفـين عـلى الـرصيف. وراءهـا خط متـلاصق من السيارات التي تسير بسيرها، لم يجرؤ أحد على اجتيازها، بالـرغم من اتساع الطريق فلاحظ أحد منتظري الحافلة ذلك وقال:

ـ ما زال شعبنا يعيش بمركب الشرطة منذ الاستعمار!

فأجابه من بجانبه:

ـ هـل منعهم رجال الشرطـة من اجتياز سيـارتهم؟ إنها بلادة السائق الذي وراءهـا انتقلت عدواهـا إلى الآخرين. الشرطيـون يقومون بأعمالهم، لهم الحق أن يمشوا بالسرعة التي يريدون. .

ـ أين كانوا عندما حُصرت المرأة بين النشالين؟

ـ كـانوا يـطاردون نشالـين آخرين، ربمـا من نـوع أخـطر من سرقة الحقائب والمحافظ!

ـ تدافع عنهم؟

ـ لا أدافـع عنهم، ليسوا في حـاجة إليّ. لكن أصحّـح نقـداً بدون مقابل!.

في تلك اللحظة ارتطمت بصدر الشيخ علاوة كرة طائشة من أطفـال يلعبون بهـا في الساحـة، قفـز الشيـخ عـلاوة من سهـوه ولسانه يشتم: «لعنكم الله أيها الشياطين!».

وصاح شخص في الأطفال، وهدّدهم بتمزيقهـا إن عادوا إلى مثل ذلك. فقال الشيخ علاوة محتداً:

ـ لو كان «الدوق دوارليان» ما زال بحصانه في هذه الساحة لما

رأينـا هذه الأشيـاء! أمـا الشهـداء فـماذا يستـطيعـون أن يعملوا لشباب تائه؟

فردّ عليه شخص يلومه:

ـ مثلك يقول هذا؟ تتمنّى أن يعود إلينا الاستعمار يا الشيـخ؟ لا يليق بك هذا الكلام!

ـ أنا أتمنى عودة الاستعمار؟ عندمـا لا تفهم الحديث جيـداً لا ينبغي أن تتكلم! الكـلام ليس كـرة تـرميهـا حيث شئت، هـــو مسؤولية... نعم مسؤولية.

تدخّل الرجل الذي هدد الأطفال بتمزيق الكرة مستعذراً عن الرجل:

ـ أعذره يا حضرة الشيخ. لم يفهم ما قلت. توهم أنك...

ـ كان من حقه أن يسألني ماذا أعني بكلامي... أنا أتحـدّث عن شعب يخاف الأجنبي ويحترمـه ولا يحترم حكـومة بـلاده. لقد رأيتم منذ الدقائق التي وقفنا فيها هنا كم شاهدنا من مآسٍ! وما رأيناه هنا نرى أكثر منـه عشرات المـرات في أمكنة أخـرى، وكل يوم!

فقال الرجل:

ـ ليس من المعقـول إدانـة الشعـب في كــل شيء. لـو وجــد الأطفال أين يلعبون لما أتوا إلى هنا.

فرد الشيخ علاوة:

ـ لـو وجدنـا الأطفال هنـا فقط لصدقنـا. لكن اذهب إلى أيِ مكان شئت وانظر. . .

ـ لأن الملاعب غير متوفّرة، أين يذهب هؤلاء الأطفال؟

ـ هـل في الماضي كـانت الملاعب متـوفّـرة؟ إنـه الإهمـال. . . الناس يلدون والنهج يربّي!

ـ ومن المسؤول عن هذا؟

فقال الشيخ علاوة بغضب:

ـ مـاذا تريـد مني يا أخي؟ تـريد عقـد اجتماع جـديد هنـا في المحطة حول ميثاقك أنت أيضاً؟

فرد الرجل بلا مبالاة:

ـ أنـا حـرّ في التعبيـر عن رأيي. بـأيّ حق تـريـد منعي من الكلام؟

ـ ألا تعرف من أنا أيّها الولد؟

ـ لا تسمّني ولـداً. ثم لا يهمني من أنت. إن لم أكن أعرفـك فإنني الآن عرفتك. . . . أنت الماضي الذي لا نريده، هذا أنت!

استولى الحنق على الشيخ علاوة، والتفت يمينـاً وشمالاً كمـن يبحث عن شاهد أو نصير، وقال للرجل الشابّ:

ـ ماذا تريد مني الآن؟ أتريد أن لا أركب في الحافلة؟

لم يجبه الرجل وابتعد إلى الجهـة الأخرى من صفّ المنتـظرين يجمجم بكلمات لا تفهم. فـأعاد الشيـخ علاوة مـا قالـه لمن كان بجانبه:

ـ الآن، لم يعد لنا الحق حتى في ركوب الحافلة! إنهم في كل مكان. انتشروا في كل مكان! هؤلاء هم الذين يسمّون أنفسهم «التقدميين»! لا حول ولا قوة إلا بالله!.

قال له صاحبه:

ـ هوّن عليك يا حضرة الشيخ. إنهم ليسوا وحدهم في هذه البلاد...

ـ لحسن الحظ، لحسن الحظ، وإلا لوجب علينا الرحيل!

أقبلت الحافلة فأنست الناس ما كانوا فيه من حديث ونقاش. وتقدم الشيخ علاوة برزانة وتعاظم للركوب، وقد أفسح له المجال بعض من في سنّه.

* * *

الحافلة تمخض الناس مخضاً، لا تشفق على كبير ولا ترفق بعاجز. الأقدام تدوس الأقدام والأجسام تضغط على الأجسام، الركاب يترنحون كالسكارى. الحرّ أفسح المجال للآباط أن تنفث ما عطن فيها من عرق وأوساخ. الرئات تتنفس البنزين وأدخنة الزيوت المحترقة في مشقة.

لكن الشيخ علاوة كان اختناقه من نوع آخر: إنه يشعر أنه يحيا غريباً في مدينة لا يعرفها!

لقد عرف كثيراً من المدن، وتجول في كثير من البلدان. سحرته حيناً من الزمن القاهرة واستهوته وقتاً تونس، وضمته إلى

صدرها فترة قسنطينة، وأعجبته باريس في إقاماته القصيرة بها. . .

وأحب، وتقلب في الحياة تقلب أيامها، فعرف الخوف، وذاق الجوع، وتعرض لِلحرمان. ولكنه في أعماقه، في سويداء قلبه، في أحرّ متعه وأصفى لذاته، كان يحس دائماً بحنين رقيق رفيق، مستمسك بنفسه، إلى مدينة الجزائر. المدينة التي صمدت للغزو، وعاشت مختلف الحضارات والتجارب الإنسانية، فأخذت وأعطت، وبقيت شامخة عظيمة. المدينة التي جعل منها موقعها الطبيعي قطعة فنية بديعة، توزعت أضواؤها وظلالها على ربى ووهاد بصورة تحقق للنظر حيثما ولى أجمل ما يحلم به من مشاهد.

والآن وبعد الذي رأى وسمع، في الاجتماع وفي غير الاجتماع، ماذا يفعل بحبه ذاك؟ وماذا تساوي حياته كلها الضائعة في هذه المدينة ومن أجل هذه المدينة؟ هل الجزائر هي التي تغيّرت؟ أم الزمان؟ أم هو؟ كلا. الشيخ علاوة لا يتغير! كل المتغيرات التي عاشها لم تؤثر عليه. بل لم تصل من نفسه إلى مستوى المنبّه العابر. ما الذي تغيّر إذن؟ المدينة لم تتغيّر. ها هي ذي، حتى من داخل الحافلة، تغفو باستمرار على بحر لم يكن بها دائماً رحيماً. وها هي سمفونية أضوائها وظلالها متعانقة دائماً في هيام وانسجام لتقدم للنظر حيثما ولى ما يذهله من جمال. إن الذي تغير إذن هو الزمان، كان يجري والشيخ علاوة واقف ينظر إليه. فوجد نفسه، لما اجتمع الشمل، غريباً!

مال الركاب فجأة ميلاً عنيفاً إلى الأمام ثم إلى الوراء، نتيجة الفرملة المباغتة التي اضطر إليها السائق. ولاحظ الشيخ علاوة شاباً اغتنم فرصة الاحتكاك الذي أحدثته الفرملة، فالتصق بظهر فتاة التصاقاً! فأغمض عينيه في سخط العاجز، وشفتاه تتمتمان: يا إلهي، في رابعة النهار! يا إلهي، أين المفرّ؟.

وفتح عينيه فوجد الفتى في الموقف نفسه، والفتاة لم تحرك ساكناً، فغاظه أن لم يستطع تغيير هذا المنكر. فتكلف السعال مرات، حتى التفت نحوه كثير من الركاب، ومنهم الفتى، فحذّره بنظرة تتّقد سخطاً وغضباً، ليشعره أنه يعنيه بسعاله الغاضب الصارخ. ولكن الفتى لم يأبه له! وتصوّر مكان الفتاة ابنته دليلة، ثم هالة، ثم ابنة أخيه نعيمة. وكلهن لم يكنّ في مثل قامة الفتاة الواقفة أمام الشاب. وبدا له أن يفعل شيئاً... أشار لشخص قريب من الفتاة أن يلفت نظرها إليه، فالتفتت، فأشار لها أن تأتيه. فأتت وهي متسائلة: ماذا يريد هذا الشيخ مني؟ فقال لها:

ـ اجلسي هنا، إلى جانبي.

ـ ولماذا أجلس إلى جانبك؟ هل أنت أبي أو عمي أو تعرفني؟

ورجعت إلى حيث كانت تتمتم: ما أخف عقله!

فقال في نفسه بحزن: الله، الله! اذهبي يا بنيتي، اذهبي... إنه هناك ينتظرك! سوف تعرفين...

واذا بامرأة تصرخ:

ـ ساعتي! ساعتي! انتزعها من يدي!

هجم الرجل الذي أنقذ المرأة بالمحطة على الشاب السارق، وصاح في السائق أن يوقف الحافلة، وأن لا يفتح الأبواب. وحدث هرج واضطراب بين الركاب. وتحفز البعض منهم للهجوم على السارق. وإذا بشخصين يشهران خنجريهما، ويأمران السائق بفتح الأبواب. ويطعن أحدهما الرجل الذي أمسك بالشاب السارق.

ذهل الركاب من شدة المفاجأة لما يشاهدونه يجري بين أيديهم! أما الشيخ علاوة فقد فقد أعصابه وصرخ بحنق:

ـ الاشتراكية!

خرّ الرجل المطعون على أرضية الحافلة، وأسرع شخصان إليه لإسعافه. أما السراق الثلاثة فقد تمكنوا من مغادرة الحافلة تحت تهديد خناجرهم للركاب وللسائق وصاحبه.

لحظات مرت بين الارتباك والذعر والتأفف كأنها دهر على ركاب الحافلة.

جاءت سيارة الإسعاف والشرطة. أفسح المجال لنقل الجريح إلى المستشفى. ولم تكن حالته، على ما ذكره أحد المسعفين من الخطورة بالقدر الذي تصوّره الركاب.

أراد الشيخ علاوة أن يشارك بما يفرضه عليه الواجب في مساعدة الرجل الشهم الذي عرض حياته للخطر، فقال لرجلي الإسعاف:

- إبني طبيب بالمستشفى، اسمه مراد، هو يتولّى معالجة الرجل.

فقال له أحدهما:

- نحن ننقله إلى قسم الاستعجالات، وهناك يتولون هم أمره. أين يعمل ابنك؟

- في قسم الجراحة. إنه معروف. أسألوا عن مراد بن خليل...

والتفت الشيخ علاوة حوله ليتفحص أوجه الركاب ويرى مقدار ما أحدثه تصريحه، لكن الناس كانوا في شغل عنه بما حدث، يروون للشرطة التي بدأت تستنطقهم تفاصيل القصة.

وبعد أن أتمت الشرطة جمع المعلومات الأولية وكتبت أسماء الركاب أخطرتهم أنها قد تدعو بعضهم لمواصلة التحقيق، أو للتعرف على المجرمين، إذا تمّ إلقاء القبض عليهم.

الشمس وقفت في كبد السماء، أو هكذا خيل للشيخ علاوة. أشعتها تصل إلى الأرض كالسهام المحرقة. أمواج البشر المنتظرة في المحطة تعرب في عنف عن أن اللعنة الديموغرافية أخذت تنزل على الجزائر بشكل فظيع!

الشيخ علاوة لا ينزل من الحافلة في هذه المرة، ولكن من حلم عاش فيه حوالي خمس وستين سنة! أما البشر المحدق بالحافلة المتهيىء للركوب، أو النازل منها فهو من عالم آخر لم

يعرفه الشيخ علاوة، أو لم يكد يعرفه إلا منذ بدء مناقشات مشروع الميثاق.

كان يشق طريقه بين الناس وهو يقول في نفسه: «هؤلاء ليسوا عمالاً، ليسوا آباء، ولا أبناء، ولا حتى بشراً. هم ملاحدة، أوباش، نشالون. هم اشتراكيون! يشتركون في كل شيء، حتى في حلائلهم!».

اكتشف الشيخ علاوة فجأة أن الجزائر كلها اشتراكية! جزائر العمال والكادحين الذين لم يكن يتصور من قبل أنهم شيء آخر سوى مساكين!

سار مع الطريق كمن يسير في ماض مفقود، أو بلد لا يعرفه ونفسه تغلي بالتساؤلات والأفكار المضطربة: «لماذا كافحنا إذن؟ لماذا تعذبنا؟ ألنصير اشتراكيين؟ الاستعمار على الأقل كان يحترم نفسه ودينه. وهؤلاء ماذا يحترمون؟ أي شيء هم؟ من أي جنس؟ بل من أين خرجوا هكذا فجأة باشتراكيتهم وميثاقهم؟ يا إلهي!».

المسافة بين محطة الحافلة والدار ليست بعيدة، ولكن ارتفاع الأرض والحر يجعلانها عادة شاقّة على الشيخ علاوة. أما اليوم فهو لا يحس بمشقة ولا حرّ. ولا بارتفاع ولا بانخفاض. يسير في الطريق ولا يراها. لا يسمع ما يملؤها من ضجيج السيارات. ولا ضوضاء المارة. إنه يسرع الخطو لكي يصل بأقصى ما يستطيع من سرعة إلى بيته. ليهرب من هؤلاء البشر. ليخلو إلى نفسه وإلى آلامه الروحية. وكان يقول في نفسه: «أين كنت؟

لماذا لم أشعر بهذا الانقلاب المريع في حياتنا قبل اليوم؟ ماذا فتح عيني بهذه الصورة الفجائية؟ أهم أولئك الشبان الخبثاء الملاحدة في الاجتماع؟».

قضى المسافة في ربع ساعة من «بروسات» إلى أعالي «الواحات». فتح صندوق البريد بصوة آلية فوجد بعض الرسائل فأخذها واتجه إلى غرفته بالدور الأول.

اعترضته، وهو صاعد، كنّته.

ـ على السلامة يا سيدي.

هزّ لها رأسه يرد التحية دون أن يجيبها. فقالت له.

ـ إن الغداء جاهز، أتنزل إلى المطعم أم أحمله لك إلى الغرفة؟ وكان من عادته تناول غدائه وعشائه بالمطعم. فقال سائلاً:

ـ والعجوز أين ذهبت؟

ـ ذهبت إلى الحمام هي وزبيدة ونعيمة.

واصل طريقه إلى غرفته دون أن يردّ على سؤالها المتعلق بالأكل. فتعجبت مني من هذه الحالة غير العادية! كان عندما يدخل الدار يدخل مسروراً مرحاً، يسأل عن الكبير وعن الصغير ويسألها بالخصوص عن أولادها. كما يسأل عن نوع الطعام الذي أعد للغداء أو العشاء، وهل هو لذيذ... لا شك أنه يشكو من همّ بالغ! ولكن كيف السبيل إلى أن تعرف ما به وهو لم يرد عليها حتى التحية؟

وضع الرسائل على المنضدة الصغيرة، وعلق برنسه بمعلاق بالحائط، ثم نزع عمامته وجبته الحريرية وكذلك البدلة العربية المطروزة التي يلبسها في المناسبات. إنه متى لبسها شعر بالاعتزاز وأحياناً بالغرور. فهي حقاً من النوع الممتاز. ثم لبس عباءة منزلية، وجلس في مقعد وثير منجد، قبالة خزانة كتبه وراح يستعيد في نفسه ما شاهده وسمعه في صبيحته تلك من وقائع وأحداث. وكانت سحنته تبدو وكأنه تعرّض لمحنة كبرى، أو همّ عظيم! كان مطرقاً مصوباً نظره إلى المنضدة ولكنه لم يكن يراها. كان يرى بدلها الاجتماع الذي شارك فيه وغادره مغاضباً قبل أن ينتهي. يرى الحشد المنتظر للحافلة في ساحة الشهداء. يرى الحافلة وترنّح ركابها، والتصاق الشاب بظهر الفتاة. يرى على الأخص الرجل الذي تعرّض للإجرام...

ولعل ما كان يؤلمه أكثر من كل شيء هو شعوره بعدم التوفيق في الحوار والنقاش! لقد قال معبراً عن رأيه في الميثاق: الجزائر ليست في حاجة إلى ميثاق. الشيخ باديس رحمه الله ترك لنا ميثاقاً لايبلى...

وكان يعني القصيدة المشهورة: «شعب الجزائر مسلم.. وإلى العروبة ينتسب» فردّ عليه أحد الشبان بذكاء ومنطق: «لو قلت يا حضرة الشيخ: لسنا في حاجة إلى أي ميثاق، القرآن هو ميثاقنا، لارتضينا لك ذلك، ولكنت بذلك عبرت عن موقف يلائم ما تمثّله. أما وأنت ترى أن القرآن نفسه لا يشكل ميثاقاً بالمعنى الذي نريد، فكيف تطلب من شعب كامل ينشد التطوّر

والتقدم السريع، ويريد أن يبني مجتمعاً عادلاً واعياً لنفسه ولمسؤولياته الإنسانية المعاصرة أن يتخذ ميثاقاً قصيدة من الشعر؟ إنها مهما تكن قيّمة فلا ينبغي لنا أن نتجاوز بها مكانها والظروف التي دعت إليها...».

حاول الشيخ علاوة بعدئذ أن يتدارك هفوته ويوضّح مقصوده، ولكنه كان يشعر بأن زلته كانت كبيرة، وأنه لم يكن في المستوى المطلوب. لقد أسكته شابٌ من ذوي الشعور الطويلة! وتمتم في نفسه: «يا إلهي! شعره كشعر الفتاة وهو يحسن الجدل!» كما لو أن التفكير الصحيح يقتضي أن يكون الشعر مقصوصاً!

في الواقع، كان الشيخ علاوة يرى أن التفكير المستقيم ينبغي أن تكون لصاحبه بسطة في العمر، لأن التجربة نصف العلم... ولم يكن يتصور لحظة أنّ مجرى النقاش ينتهي لغير صالحه. تلك هي الحقيقة التي بقيت لديه بعد كل ما قيل. وذلك هو سبب همّه بالرغم من اعتقاده أنه كان على حق وإنما لم يوفّق في النقاش فقط. إن الشيخ علاوة لم يتعوّد النقاش بهذه الطريقة التي تعطي لكل واحد، أياً كان، الحق في التعبير عن رأيه إلى النهاية. فهو مع أولاده إذا لم يعجبه رأي صاح في صاحبه: «اسكت علي! أتريد أن تعلّمني؟» فيسكت الابن. وهو يعتبر ذلك السكوت انتصاراً له... ومع الناس لم يتعود أن يستمع، تعوّد أن يستمع الناس إليه وهو يلقي درسه أو يعطي رأي الشرع في قضية مطروحة. ثم إن المنطق الذي كان يناقش به في المناسبات القليلة مع أمثاله يختلف عن المنطق الذي سمعه

اليوم. حاول أن يستشهد بالقرآن أثناء النقاش فقال شاب آخر: «دع ذلك للمسجد، نحن نتكلم عن الملكية المستغلة والملكية غير المستغلة. وأنت تتحدث عن الزهد في الدنيا، الأرض لله يرثها من يشاء من عباده... هذه الأرض التي نتحدث عنها نحن، يملكها أشخاص استولوا عليها بأوجه غير مشروعة، وهم يستغلون الشعب بها... فهمت؟».

لم يجد ما يقول. الشاب لا يهمه رأي القرآن، يهمه رأي الناس في الموضوع! مع من يتحدث الشيخ علاوة إذن؟ ما دام القرآن والحديث والفقه وكل ما قرأه لا دخل له في النقاش؟ بماذا يناقش؟ أسلحته هي القرآن والسنّة والعرف، وهذه كلها قيل له اليوم إنها لا دخل لها في النقاش. إنه إذن محكوم عليه بالصمت. والصمت المفروض سلب للحرية!

وجد الشيخ علاوة نفسه فجأة غريباً، في مدينة لا يعرفها، وفي مجتمع ينكره. لذلك فهو في محنة. والحقيقة أن محنته كبيرة. لأن العصر الفكري الذي يحياه في واقع الأمر لم يتعدّ القرن الثاني عشر الميلادي.

نزع نظارة الرؤية واستبدلها بنظارة القراءة، ورفع الرسائل، فوجد من بينها رسالة موجهة إليه من الوزارة، رسالة لابنة أخيه نعيمة، رسالتين لابنه الطبيب، رسالة لابنه الأكبر عمر. وضعها من جديد على المنضدة. وفكر أن يعطيها إلى كنّته، أو زوجته عندما تعود من الحمّام لتعطيها إلى أصحابها.

ثم فتح الرسالة الموجهة إليه، فوجدها تتعلق باجتماع حول الميثاق، فرماها بغضب: لا أشارك في أي اجتماع لتكفير الشعب. كلهم ملاحدة، حتى موظفو الوزارة... لو قال لهم الوزير طلقوا نساءكم لفعلوا! لا أشارك في أي اجتماع. لكم دينكم ولي ديني.

نزع النظارة بمثل الحركة الغاضبة التي رمى بها الرسالة. وقام من مكانه إلى السرير فاستلقى على ظهره وشبك يديه على بطنه كالمستسلم للقدر. إن الحياة تنقلب لمجرد اندفاع جزء ضئيل من مادة كيمياوية في بعض العروق، جزء أكثر من المقدار الطبيعي! لو فكر الشيخ علاوة أن كل ما كان ليس سوى تلك المادة الزائدة التي أفرزها جهازه العصبي لحاول من غير شك أن يساعد مزاجه على العودة إلى المجرى الطبيعي...

بقي في تلك الوضعية ما يقرب من دقيقة، ثم قام فاتجه إلى النافذة المطلّة على النهج فأخرج رأسه ينظر، وإذا بعينيه تلتقيان بفتى في شباك نافذة مقابلة لداره عارياً ما عدا تباناً للسباحة يستر عورته، فأدخل رأسه بسرعة وهو يتعوّذ من شر ما رأى. كل ما كان غافلاً عنه أو لم يره من قبل، أخذ يعترض سبيله حيثما ولّى! وظن أن هذا الفتى يقف هناك في تلك الحالة لأول مرة، أو أنه ليس من السكان كلية: لا بد أن أكلم صاحب الدار، هذا عيب!... إن الناس خرجوا من أطوارهم!

عاد إلى مقعده فنزع نظارة الرؤية ولبس الأخرى، وراح يتأمل

في الطوابع البريدية وساوره وسواس: ماذا تنطوي عليه هذه الرسائل ومن أين جاءت. قرأ الختم البريدي على إحدى الرسالتين اللتين جاءتا إلى مراد الطبيب. فوجدها من فرنسا. ثم أخذ رسالة ثانية كانت موجهة إلى عمر ابنه الأكبر. فبمجرد أن رآها عرف أنها من البنك ثم أخذ رسالة ثالثة فوجدها موجهة إلى الطبيب أيضاً، مكتوب عليها اسم شركة لصناعة الآلات الطبية الخاصة بالتصوير بالأشعة. وأخذ الرسالة الأخيرة الموجهة إلى ابنة أخيه نعيمة، فوجدها من الجزائر. فتعجب: «من يكاتبها من العاصمة؟ أنا ظننت أن الرسالة جاءتها من أبيها!» وتأمل الغلاف فرأى في يساره علامة زائد. خط الرسالة جيد، يدل على يد متدربة في الكتابة. تحول الوسواس الذي ساوره بخصوص محتوى الرسائل إلى شعور بالاطلاع على ما فيها. ماذا يترتب على ذلك؟ لا شيء. يطلع هذه المرة فقط، ثم لا يعود. لكن لماذا يطلع عليها ولماذا لا يعود؟ إنها ليست موجهة إليه فليس له أن يخرق حرمة أحد. الرسالة أيضاً عورة! لكن الرغبة في الاطلاع أخذت تكبر، وتخيل أنه كأب عليه أن يعرف أسرار أولاده. من يدري... إن الزمان تغيّر. وما شاهده من مناكر يجعله في حل من أمره. إنه يطلع على الرسائل لا لاكتشاف أسرار بنيه ولكن ليحول بينهم وبين ما يمكن أن يقعوا فيه من انحرافات ومهالك. من الرسائل الأربع اثنتان لا خطر فيهما: رسالة البنك الموجهة إلى عمر، ورسالة الشركة التي تصنع الآلات الطبية للتصوير.

قرر أن يقرأ رسالة البنك ليعرف بالضبط كم يتقاضى مدير مؤسسة، لأن عمر مدير. فتح الرسالة فإذا هي عبارة عن كشف لرصيد عمر بالبنك في نهاية شهر أبريل من تلك السنة. قرأ الرقم، وأعاد قراءته وهو لا يصدق عينيه (1500 233,45) ديناراً! فردد بصوته ما قرأت عيناه: «له بالبنك مليون وخمسمائة ألف دينار؟ لا، محال، أنا غالط». وأعاد القراءة من جديد فوجد المبلغ هو نفسه: «البنك لا يغلط. يملك مليوناً وخمسمائة ألف دينار! الخبيث! أخفى عليّ كل شيء عندما كلّمته عن بناء الدور الثالث، قال إن ما عنده في حسابه بالبنك لا يبلغ حتى ألف دينار. عجائب وغرائب! مع أنه ولد عاقل، مصلٍّ! عمر، صديق العمر، يكذب علي! عجائب وغرائب! قال لا يستطيع أن يعاون في البناء إلا بالأسمنت. طبعاً، الاسمنت لا يكلفه شيئاً. وإن كلفه شيئاً فلن يكون ذا بال. أصدقاؤه يبيعون له الأسمنت بسعر الحكومة: 14 ديناراً للقنطار. في عشرين طناً يدفع (2800) دينار. واشترط مع ذلك أن يأخذ الدور الثالث له ولأولاده بعد الانتهاء من البناء! بينما إخوته ليس للواحد منهم أكثر من غرفة. لا، لن أقبل له الآن... يخفي علينا كل هذه الأموال، ويريد زيادة على ذلك الاستيلاء على ثلث البيت. في الفائت قدّمته على الآخرين لأن له أولاداً، أما الآن وقد عرفت عنه ما لم أكن أعرف فلا. لماذا يحتال علي وعلى إخوته؟ من أجل من؟ من أجل مناه؟ لن ينال الدور الثالث! ثم خطر للشيخ علاوة خاطر انقبضت له نفسه: «لكن من أين جاءته هذه

الأموال؟ هو كمدير لا يتقاضى أكثر من ثلاثة آلاف دينار للشهر. فلو وفّر كل مرتبه منذ الاستقلال إلى اليوم لما كان لديه هذا المبلغ!

أخذ قلماً وورقة وراح يحسب:

قلنا مرتبه ثلاثة آلاف دينار، ولنفرض أنه يتقاضى هذا المبلغ منذ الاستقلال. في السنة 12 × 3000 = 36000 دينار. في 14 سنة يساوي = 14 × 36000 = (504000). نطرح هذا المبلغ من مليون وخمسمائة ألف دينار يبقى تقريباً مائة مليون فرنك قديم فائضة عن توفير كل مرتبة منذ دخوله الوظيفة إلى اليوم! لا. ليست هذه الدراهم من مرتبه. هي من باب آخر، لا شك في ذلك. هذا أمر خطير علينا جميعاً! اللهم... اللهم إلا إذا حصل عليه من بعض الصفقات التي لا يخشى وراءها أية متابعة قضائية؟ لا شك في ذلك، وإلا لما وضع دراهمه بالبنك. الله، الله! عمر، صديق العمر أخفى عليّ مائة وخمسين مليوناً، وقال: لا يملك شيئاً! من أصدق الآن؟ سمّيته عمر وهو معاوية!

أعاد كشف الحساب إلى الظرف، وأخذ منديلاً يجفف عرقه وبقي ينظر في لا شيء، ويفكر في لا شيء أيضاً! هل يفرح، لأن لأحد أولاده هذا المبلغ المالي المعتبر؟ أم يحزن، لأنه قد يكون حصل عليه من باب غير مشروع؟ لا، هذا لا يحزنه على كل حال. من ذا الذي «لا يتقلّب»؟ المال لا يحزن لكنه مع ذلك لم يكن مسروراً كل السرور باكتشافه لهذا السر. إن ابنه الأكبر لا يثق فيه.

أخذ الرسالة الثانية فكانت إحدى الاثنتين الموجهتين إلى الطبيب. وأخذ يقرأها: «سيدي،

«إن شركتنا نجحت أخيراً في تطوير أجهزة التصوير بالأشعة إلى درجة لم يسبق لها مثيل في العالم. إننا جمعنا إلى الدقة والضبط وآلية الاستعمال، ضآلة الحجم والوزن. وبذلك حققنا لأول مرة معطيات السيبيرنتيك والاليكترونيك.

ويسعدنا أن تكونوا من بين الذين قد يستفيدون مما تقدمه تكنولوجية شركتنا من خدمات.

مع الرسالة صور لبعض الأجهزة المتوفرة لدى الشركة وبيان بالتقنيات الأساسية والأسعار».

تمتم الشيخ علاوة عندما انتهى من قراءة الرسالة: «هذا هو العلم، لا اشتراكية فيه ولا ثرثرة. والله يبقى دائماً هو الله! لا شك أن هذه الشركة يابانية...».

وقرأ اسم الشركة على الظرف فوجدها فعلاً يابانية. والرسالة أرسلت من بعض فروعها الأوروبية. فقال في نفسه: «لماذا لم يمنع اليابان تمسكهم بتقاليدهم ودينهم من التقدم الحضاري والعلمي والوصول إلى ما وصلوا إليه؟».

ثم خطر بباله خاطر أعاده إلى صباه يوم كان تلميذاً في المدرسة الفرنسية الابتدائية وكان المعلم الجزائري يقول له ولرفاقه الصغار بالقبائلية: «تعلموا الفرنسية. سيأتي اليوم الذي تحتاجونها فيه...» فقال الشيخ علاوة في نفسه:

رحم الله (المعلم) لو لم أتعلمها في صغري لما استطعت أن أطلع على هذه الرسائل».

ثم أضاف: «باللغة الفرنسية يمكن للإنسان أن يقرأ الكفر والفسوق وكل شيء دون أن يشعر بوخز ضميره!».

وفكر أن ابنه الطبيب سيسرّ بهذه الرسالة. ولكنه استدرك بسرعة: «لكن ماذا يهم «الكندي» أن تصغر آلات التصوير أو تكبر؟ هو جرّاح ليس طبيباً أو متخصّصاً في هذا الميدان. هو جراح يعمل «في الطب المجاني» «وعزرائيل واسرافيل...» الناس يخسرون دماء قلوبهم ليعلموا أولادهم.. ثم بجرة قلم يقال لهم أنتم تخدمون في الطب المجاني! هذا آخر الزمان، لا شك في ذلك. لكنهم سوف يرون إلى أين ينتهي بهم هذا الطب المجاني.. بعد سنوات تصبح الجزائر كما كانت في القرون الوسطى، تداوي بالحشائش! الأطباء رئتهم هي حريتهم، فإذا نزعت منهم فارقتهم الحياة. بعد سنوات يموت من يموت، ويغادر البلاد من يغادر ويبقى «الطب المجاني» يداوي نفسه!.

قال هذه الكلمات بانفعال ووضع الرسالة على المنضدة، وهو يقول: «مسكين الكندي ورفاقه: إدارة جاهلة، شعب مريض، وطب مجاني!».

ثم رفع الرسالة الثالثة فكانت أيضاً للطبيب:

«عزيزي»،

لماذا لم تجب عن رسالتي الأخيرة؟ معاذيرك أعرفها... تتذرّع

بالعمل دائماً. أنا سيّئة الحظ معك، لأني أحبك.

مـراد! لم أعـد أستـطيـع الانتـظار. إن شـوقي إليـك لم يعـد حنيناً، صار ألماً متواصـلاً. (يعلق الشيخ عـلاوة على الجملة): ارمي بنفسك في نهر «السين».

«مـراد! يجب أن نعيش معاً، هنـا أو هنـاك لا يهمّ. إنمـا من أجـل مستقبـلك كـطبيـب أفضـل لـنـا العيش هنـا. (نـو مادموازيل... ولو الطب عندنا مجاني!) أمـا أهلك فنستطيـع أن نزورهم كل سنة أثناء العطلة مثلاً. (نو مادمـوازيل! الهقـا ليس في داري).

مراد! قل لي متى تضـع حداً لهـذا الفراق الـذي فوّت علينـا كثيراً من المسرات والأيام السعيدة»؟..

وقبل أن يتم قراءة الرسالـة دق الباب فـوضعها عـلى المنضدة وقال:

ـ ادخلي، ماذا تريدين؟

ـ أنا يا سيدي، حملت إليك الطعام.

قـالت منى ذلك وهي داخلة، ولاحـظت العـرق يتصبّب من جبينه، وعلى المنضدة مجموعة من الرسائل، فسألته:

ـ مالك يا سيدي؟ إنك تبدو مرهقاً؟

قبل أن يجيبها انتبه إلى الرسـائل فجمعهـا بسرعة، محـاولاً أن يوهمها أنها رسائل وأوراق قديمة، ووضعها في ملفّ بـالخزانة وهـو يقول:

ـ عندي أعمال مستعجلة طلبتها مني الوزارة، كنت بصدد البحث في الملفات والرسائل القديمة لتحضيرها.

انحنت منى تضع صحن الطعام على المنضدة أمامه، وقالت:

ـ لما لم تنزل إلى المطعم فكرت أن أحمل إليك الغداء إلى هنا.

ـ في أي ساعة قالت لك حماتك تعود من الحمّام؟

ـ لم تقل. تعود متى انتهت من الاغتسال. الآن كثر الناس، قلما يمكن الدخول إلى الحمّام بمجرد الوصول!

ـ هي لا تذهب إلى الحمّام يوم الخميس!

ـ طلبت منها نعيمة مرافقتها، لأنها لا تعرف الحمّام، واليوم لا دروس لها.

ـ نعيمة لا تعرف الحمّام؟

ـ هكذا قالت!

ـ في الجامعة، ولا تعرف الحمّام!

ـ هل في القرية حمّام؟

ـ في القرية لا، لأنها صغيرة، لكن...

ـ ربما لا تعرف هذا الحمّام الذي تذهب إليه عادة خالتي.

ـ هذا ممكن. أما لا تعرف الحمّام كلية فهذا مستبعد.

ـ ودليلة، ألم تعد؟

ـ لم تعد منذ الصباح. لا شك أنها لها دروساً، أو... أشغالاً...

ـ دليلة لها أشغال؟

ـ ربما في النادي، حيث تتمرّن على «الجيدو»!
ـ ربما. دليلة كالرجال: الشجاعة و. . .
ـ لأنها رياضية. كل من يزاول الرياضة يصير يثق بنفسه.
ـ صحيح، صحيح. ولكنها أيضاً تربّت تربية كاملة! وهالة، أين هي؟
ـ هالة من العادة تدخل في الواحدة.
لم يسأل عن أبنائه الذكور ولا عن أبناء ابنه وإنما قال سائلاً:
ـ من بالدار غيرك:
ـ أنا ووداد وجمال. سعاد تخرج من المدرسة في الرابعة، وكذلك إبراهيم.
لم يتقدم للطعام وبقي ينتظر انصرافها، فقالت له:
ـ كل يا سيدي ما دام الأكل ساخناً.
ـ لا آكل، ارفعي الصحن من أمامي.
ـ مالك اليوم يا سيدي؟ لماذا لا تأكل؟
ـ لا أحسّ بالحاجة إلى الطعام.
ـ ولو، ينبغي أن تأكل.
ـ قلت لك لا.
رقّقت صوتها وقالت بتحنن:
ـ كل من أجل خاطري.
وقالت في نفسها: «الآن يأكل!» ولم تتم الجملة حتى تقدم إلى الأكل وهو يقول:
ـ لا بأس، من أجل خاطرك آخذ هذه اللقمة (يتناول ملعقة

ثم يتوقف) خذي الآن.

ـ (يريد أن أؤاكله!) سيدي هذا ما تأكل من أجل خاطري؟ لا، ينبغي أن تأكل بصورة طبيعية. كعادتك!

لم تعجبه كلمة: «كعادتك». فقال في نفسه: اللعينة تعرّض بي كأني أكلت من دار أبيها!

وصرح لها:

ـ لا أستطيع، ليست لي شهية «كعادتي»!

ـ سيدي، الشهية تأتي مع الأكل. إذا لم تأكل فأغضب!

ـ (لا أكلت!). قال في نفسه: «هي تود أن تراني ممدوداً أمامها، ميتاً! لتبقى لها الدار وحدها».

وصرّح لها:

ـ الشهية تأتي مع الراحة، ومع السرور...

ـ وأنت مالك يا سيدي؟

ـ لا شيء. أنا غير جائع!

ـ لا، لا تقل هكذا... هل أكلت في مكان آخر؟ طبعاً. لا. إذن يجب أن تأكل، أقسم لك.

ـ انصرفي. لا أستطيع أن آكل وأنت هنا أمامي!

ـ عدني أنك تأكل حتى الشبع!

ـ (ما أثقلها!) أعدك.

وخرجت على أن تعود إليه بعد حين لأخذ الصحن. أما هو فأخذ يأكل بنهم. كما لو أنه يريد أن يقول لها: زوجك يخفي

الدراهم وأنت تعيرينني بالجشع وكلاكما في داري! فآكل كما أشاء وموتي!».

لم يخسر وقتاً طويلاً في الأكل. ازدرده بسرعة ونادى على كنّته:

- منى! منى!

سمعت نداءه، فصعدت مسرعة، ووجدته أكَلَ أكل الشره فقالت:

- أتريد شيئاً آخر؟

- لا أريد شيئاً.

رفعت الصحن. وقام هو مباشرة إلى الملف، فبحث عن الرسالة التي كان بصدد قراءتها، فوجدها وأعاد قراءتها من البداية إلى أن وصل إلى حيث تقول: «... مساء السبت الماضي التقيت بريموند وأليس وسألاني عنك. أتعرف أنه ولد لهما طفل؟ لو تراه ما أحلاه!

مراد إن صبري نفد. هيا أسرع يا حبيبي. إنني أنتظرك بكل حواسي وأجزاء جسمي المشتهية كل ذرة فيها لعناقك! (بلع الشيخ علاوة ريقه حياء).

«أقبلك بحنان وحب. ديدي التي تعبدك».

فقال الشيخ علاوة بصوت مسموع: «أستغفر الله، أستغفر الله العظيم! تعبده الكافرة! يا إلهي ماذا جنيت؟».

شعر الشيخ علاوة بخيبة أمل. ابنه هو يتزوج بفرنسية. . . ماذا يقول الناس عنه؟ وقال في نفسه: أنا أريد شيئاً والأقدار تريد شيئاً آخر! أنا أنوي له بنتاً شريفة من علية الناس بينما هو يسير في طريق آخر! ماذا جنيت يا إلهي؟ هل الأبوة جناية؟ أيصدق الأعمى إذن؟ (يشير إلى قول المعري):

«هذا جناه أبي عليّ
وما جنيت على أحد»

ثم قال بصوت مسموع: «ويحه! ويحه إن تزوج بكافرة!» أحسّ بالحزن يطبق عليه من جميع أقطاره، حزن مقرون بالضعف. وتصور أن قضية زواج ابنه بالفتاة الفرنسية أمر واقع لا محالة. بالرغم من أن الرسالة لا تشتمل على ذلك. إنها لا تعدو أن تكون رغبة عبرت عنها فتاة تحب فتى! لكن يومه ذاك لم يكن به لطيفاً. وهو رجل شديد الحساسية، يهول ويبالغ ويبني من الحبة قبة كما يقولون!

إنه يعتبر ابنه الطبيب أكثر من سائر أبنائه مفخرة الأسرة. يذكره في حديثه مع الناس بمناسبة وبدون مناسبة. فليس هناك من له صلة به ولا يعرف أن ابنه درس الطب في فرنسا، وأنه أنفق عليه ما يملك. . . وما لا يملك. إنه يقول عنه دائماً: «قوي الإرادة مثلي! الفارق الوحيد بيننا هو أني اعتمدت في دراستي على نفسي وحدها، فلم يكن أبي قادراً على مساعدتي، أما هو فاعتمد عليّ إلى حد كبير. لكنه مع ذلك له إرادة جبارة مثلي»!

والآن، وبعد أن خيل إليه أن ابنه مقبل على الزواج بأجنبية، كيف يقول للناس؟ هو الشيخ علاوة رجل العلم والدين يقول لهم: إن ابني الذي طالما حدثتكم عنه باعتزاز وفخر، يعتزم الزواج من أجنبية غير مسلمة؟ يعرف أن الإسلام لا يمنع ذلك ولكن مركزه الاجتماعي... لو كان مثلاً في مكان آخر لا يعرفه فيه أحد لأذعن، لكن هنا في بلده، وفي هذا «المركز» الذي يظن نفسه أنه يشغله، زواج من هذا القبيل يفسد عليه كل أموره. والأكثر من الزواج هو إمكانية مغادرة ابنه الوطن. إن ذلك يقوض حياته من الأساس. هو يسعى أن يربط صلاته بكل ما استطاع بمن يسميهم علية القوم، من أثرياء المدينة، وبرجوازييها، سواء بالمعاملة أو المصاهرة أو أي نوع من أنواع التحالف، ليمحو إلى الأبد مركّب «رجل القرية» الذي لا نباهة له ولا شأن. إن عمر بإخفائه لملايينه يسير على الأقل في الطريق (المستقيم) الذي يصل بصاحبه، مباشرة إلى صف «الرجال» ويبعده عن «الغوغاء» كما فكر الشيخ علاوة! وقال في نفسه: «لا، لا أقبل أن يتزوج بفرنسية. أعمل كل ما في وسعي لمنع ذلك، أنا لست كسائر الناس، وأبنائي لا ينبغي أن يكونوا كسائر الأبناء. أبوتي ليست سلطة روحية إنها سلطة مادية أيضاً... من عصاني أخرجته من بيتي!».

أخذ الرسالة بغضب، يعتزم تمزيقها ثم عدل عن ذلك.

رفع الرسالة الأخيرة الموجهة إلى ابنة أخيه. ولما رآها تذكّر ما كانت قد أثارته في نفسه من تساؤلات: رسالة إلى نعيمة من

الجزائر! من يرسل إليها الرسائل؟ من يكتب هذا الخط الجميل؟ ولماذا هذه العلامة على الجانب الأيسر؟ أم هي علامة لا معنى لها؟ قرأ الختم مرة أخرى، فكان ختم البريد المركزي بالعاصمة. وقال في نفسه متعجباً: «بين عشية وضحاها أصبح عندها مراسلون! لا بد من قراءة الرسالة. هي أيضاً ابنتي. أنا المسؤول عنها ما دامت عندي ومع أولادي. بل هي أحوج للتوجيه والمساعدة من بناتي. لأنها لا تعرف أحابيل سكان المدن ولا مداخلهم الملتوية».

بهذا المنطق أقنع نفسه وفتح الرسالة. ومضى يقرأ فلا يصدق عينيه:

«عزيزتي...

فكرت ملياً في الموضوع، والحل الذي انتهيت إليه، هو أن نرى طبيباً... فالإجهاض في بداية الحمل سهل كما قيل لي. ولا أخالك ترين غير هذا. فكلانا في بداية الحياة، ولا ينبغي أن يغير ما نعدّ أنفسنا له هذا الحادث العارض.

لو كنت عملت برأيي أثناء «لقائنا» لما وقع هذا كله... على كل، لا تتحيري كثيراً، الأمر سهل. أرى طبيباً من أصدقائنا يساعدك ثم تقضين إذا لزم الأمر بضعة أيام في إحدى المصحات وينتهي الأمر!

كل المشاكل الأخرى، مالية وغيرها، أنا أتولاها.

أقبلك».

لم يصل الشيخ علاوة إلى آخر الرسالة حتى أحس أن أرضية الغرفة رجّت من تحته رجّاً! حاول أن يقرأ اسم المرسل فلم يجد شيئاً. لم تكن الرسالة موقّعة ولا ذكر فيها اسم صاحبها. التفت يميناً وشمالاً لا يدري ماذا يفعل. خيّل إليه أن كل ما في الغرفة يهتزّ! أحس بالغضب يخنقه خنقاً أليماً. لم يعرف في حياته الطويلة حالة بلغ فيها سخطه إلى هذه الدرجة. أين يقع ما شاهده وسمعه، أو ما قرأه مما في هذه الرسالة! إنها الكارثة الحمراء تنزل من السقف! «مستحيل، مستحيل، نعيمة التي لا تحسن حتى الجلوس إلى المائدة... نعيمة البائسة تنزلق إلى هذه الهاوية! لماذا زهدت في شبابها إلى هذا الحد؟ لماذا رمت بنفسها في وحل لن تخرج منه أبداً؟ أغباؤها هو الذي أغرقها في هذا المنكر؟ ياالله لنا من هذه الكارثة! ياالله لأبيها المسكين! من حياة الحرب إلى حياة السجن... كيف لم تفكر أن أباها يقتلها بالظنّة فضلاً عن الانغماس في الفحشاء بهذه الصورة البشعة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله! ماذا أفعل؟ ماذا أقول؟ لمن أقول؟ إنها حكمت على نفسها بالموت. أبوها لن يغفر لها هذه الزلة. من يقبل أن تعود إليه ابنته بلقيط؟ لا حول ولا قوة إلا بالله. كأن الذي أنا فيه لا يكفي حتى تنزل علي هذه الصاعقة! لماذا قبلتها اليوم الأول؟ أنا الظالم، أنا الجاني على نفسي وعلى أخي. كان يعتزم ادخالها إلى المعهد التكنولوجي للبنات فدبرت عليه... يا لها من ظالمة!».

كل الكلمات تقصر عن تصوير ما كان يشعر به الشيخ علاوة

من مـرارة ساخـطة وسخط مـر. كـل معـاني الكلمات لا يسـع حجمهـا حجم الكارثـة التي كان يتصـور أنها عليـه وعـلى أخيـه المجـاهد السـابق. إنها كارثـة دكت في لحظة شرفـاً بناه بكم من تضحية، وبكم من جرأة طوال سبع سنوات! جاهد كما لم يجاهد أحد، وأبلى بـلاء الوفي لـوطنه! تحـدى الموت في مـواطن الموت، ليبني شرفـاً وليحرر وطنـاً . . . ها هـوذا تسخر الأقـدار منه فيلد الفضيحة من صلبه!

«تعـود إليه بلقيط! خـذ أيها الأب المجـاهد هـذه اللعنة عـلى وجهك لأنك ولدت بنتاً . . .

سيقتلها ما في ذلـك شك، وسيقـطع كل صلة بي إلى الأبـد! أخي الذي ليس لي في هذه الدنيا سواه!».

اختلطت الأفكار بالمشـاعر في رأسـه، ولم يعد يقـدر حتى على الغضب! كـان يبكي بـلا دمـوع . . . دمـوعـه كـانت تسيـل في نفسـه. ودّ لو يـطير إلى أرض لا يسمع فيهـا ببشر. كـل السبـل بدت له مغلقة. لو ارتكبت إثماً، ولو كان قذراً بهذا الشكل لكن بدون لقيط لأرغمت النفس على قبوله مهما كان ممضاً . . . يفسق الفتيـان وتفسق الفتيـات، شيء لا يـرتضى، ولكنـه يقـع . . . فضيحته لا تتحدى النـاس والمجتمع بهـذا الشكل الفـظيع! أمـا فضيحة من هذا النـوع فهي لعنة أبـدية في شكـل إنسان! لعنـة لصاحبتها ولأهلها وللمجتمع!

كانت هذه الأفكـار تجري في نفسـه في شكل خـطاب، يلقيه

على الناس. وشعر ببرودة تعلو جسمه حتى أحس بالحاجة إلى إغلاق النافذة والدخول في الفراش.

قال في نفسه وهو يجذب الغطاء عليه: «لا أستطيع أن أفكر، إن الموضوع أكبر من أفكاري».

وكان في حقيقة الأمر يفضل عدم البت فيه بسرعة، والانتظار به وقتاً، لعل أموراً أخرى تحدث فتساعده على ايجاد الحل الملائم.

ومهما يكن فإنه في حالته تلك، كان عاجزاً عن القيام بأي شيء. لا بد إذن أن ينتظر إلى المساء، أو إلى الغد. زوجته أيضاً لها رأيها في مثل هذا الأمر، ولعلها تدله على حل لم يخطر له على بال.

في تلك اللحظة دقّت منى الباب وهي تقول:

- سيدي، سي عبد الكبير بن عبد الجليل في الخط يريد أن يكلمك.

- قولي له إني مريض. لا، قولي له أني لست هنا... لا لا، قولي له ينتظر، إني آت.

بن عبد الجليل من أعيان المدينة ومن أثريائها الكبار، من الطبقة الممتازة كما يرى الشيخ علاوة فلا ينبغي أن يرد. إن مكالمته وحدها تعتبر شرفاً.

نزل الشيخ علاوة يتعثر في حزنه ليكلم الرجل الذي يصبو إلى أن يكون من أقرانه أو على الأقل من أصفيائه.

أخذ السماعة وتكلم بصوت مرهق:

ـ آلو، سي عبد الكريم!

فرد عليه صوت رجل مستبشر مليء بالحيوية:

ـ آلو الشيخ، لا بأس! إن صوتك ضعيف كأنك مريض!

ـ أنني متعبَ، وكنت في الفراش.

ـ لا بأس؟ زكام أم ماذا؟

ـ ارهاق من الاجتماعات...

ـ لا بأس، لا بأس. اسمع، الشيخ، كلمتك مرتين أو ثلاثاً هذا الصباح للوزارة فلم أجدك. وكلمتك منذ حوالي ساعة إلى البيت فلم يجب أحد...

ـ كنا هنا، لعل الهاتف...

لا يهم، اسمع الشيخ، أننا ننتظرك غداً بعد صلاة الجمعة. قررنا إقامة أمسية «أندلسية» للأحباب بمناسبة زفاف دنيا، ابنتي الوسطى، يوم الأحد. أمسية خاصة للخواص. لا بد من حضورك!

ـ ولكني لا أستطيع. إنني أشعر...

ـ الشيخ، لا تشعر ولا أقبل أعذاراً من أصدقائي. لا يمكن أن تكون غائباً في مناسبة عزيرة مثل هذه. أنت ممن نعزهم، ونتبرك بهم!

ـ أعزك الله وبارك فيك. إنما أنا في حالة...

ـ الحالة التي أنت فيها تزول... المثل يقول: انس الهمّ

ينساك! إننا ننتظرك بعد صلاة الظهر.

ـ إذا قدرت على كل حال. . .

ـ على كل حال تقدر وتحضر بحول الله. إلى اللقاء.

وضع عبد الكبير السماعة، بينما بقي الشيخ علاوة واضعاً لها على أذنه يستمع لرنّات الانقطاع ولا يدري ماذا يفعل؟ وقال في نفسه: «هو لا يعلم الحالة التي أنا فيها. . . أنا في نفسي صرت أمسية. . . لكن ماذا أفعل؟ ليس لي أن أردّ دعوة رجل مثله. على كل حال، من الآن إلى غد يفعل الله ما يشاء».

وضع السماعة وبقي في مكانه متأملاً في الطريقة التي يعالج بها هذه القضية الخطيرة التي نزلت على رأسه كالصاعقة، بدون سابق إنذار. وانتهى به تفكيره إلى أنه مهما كان الحال فإن لديه متسعاً من الوقت للنظر في الموضوع إنما عليه أن يحتفظ بهذا السر احتفاظاً كلياً حتى يتعيّن الأمر، وأن لا يغيّر من سلوكه ولا من حياته حتى لا يثير حوله الشك. فحلّ مثل هذه المشكلة ليس من الحلول العادية التي ترى وتسمع، إنما يكون في السرّ والصمت.

وقال في نفسه مفكراً في نعيمة: «عليها أن تتحمل ما اكتسبت. العفو لا يكون عن مثل هذه الأمور!».

وكأن هذه الكلمة التي جاءت على لسانه فتحت أمامه الطريق للحل «المنطقي» والعادل الذي يتصوره. وقام راجعاً إلى غرفته ليستريح وينظر في الموضوع بعد ذلك نظر المتأني الذي لا يستعجل للناس الخير ولا الشر.

- 3 -

لم تكن نعيمة تعرف من حمّامات العاصمة إلا الواجهة الخارجية المنمّقة بالآجر الملون أو الفيسفاء. وكانت تعد نفسها دائماً بالذهاب إلى الحمام متى سمحت لها الفرصة، لأن ما سمعته من بنات عمها ومن الطالبات اللائي يدرسن معها من قصص تجري فيه الهب فضولها للتعرف عليه.

ها هي إذن تذهب اليوم مع زوجة عمها العجوز كلثوم وابنة عمها زبيدة الفتاة العانس.

أعجبت نعيمة بالقاعة الأولى التي هي بمثابة المدخل. كانت حيطانها مزخرفة إلى النصف بالفيسفاء الملونة ذات الأشكال الهندسية والزهرية المختلفة ولاحظت أن القاعة ليست في استواء واحد. فهناك البهو الذي تحيط به أقواس على شكل هالة، أضفت على المكان مسحة من الفن المعماري الأندلسي المكيف بالذوق الجزائري. بينما وراء الأقواس امتدت على كلا الجانبين للممّر المؤدي إلى القاعة الثانية مصطبتان فسيحتان للاستراحة بعد الخروج من الحمام ولنزع الثياب قبل الدخول إليه.

صاحبة الحمام جالسة وراء مكتب عالٍ على شكل خزانة بالقرب من الباب. ضخامة جسمها جعلت فيه العرض يتساوى مع الطول! ولولا احتفاظ وجهها بشكله الطبيعي إلى حد ما، وبتجانس أجزائه، لكانت تبدو وكأنها فقدت فجأة عمرها، وخرجت عن مقاييس الزمن إلى مقاييس الأحجام!

تقدّمت العجوز كلثوم إلى صاحبة الحمام التي كانت تعرفها فحيّتها، فردّت عليها المرأة ترحب بها وبمن معها في صوت حلو النبرات، راق نعيمة وخفّف من شعور النفور منها عندما وقع عليها نظرها لأول مرة:

ـ أهلاً بك يا كلثوم، أهلاً بزبيدة، وأهلاً بهذه التي لا أعرفها والتي جاءت بوجهها الجميل وجسمها النحيف تتحداني في محلي! (استنكار مازح) فأجابتها العجوز كلثوم ضاحكة:

ـ متى نجدك مغتاظة؟ إنك دائماً في مزاحك ومرحك!

ـ لماذا أغتاظ؟ من لم تعجبني غطست رأسها في الحوض حتى تعود إلى الطريق! لم تقولي لي من هذه التي جاءت تشتري إحساني ببسماتها؟

وكانت نعيمة لا تنفك تبتسم، وابتسامها ذاك أعطى لوجهها سحراً لم يغب عن صاحبة الحمام.

فأجابتها العجوز كلثوم:

ـ هذه نعيمة ابنة سلفي الذي في البلد (في الريف).

ـ جاءت ضيفة إذن!

ـ لا، تدرس هنا بالجزائر.

ـ مرحباً بك يا ابنتي. (ضاحكة) من أتى حمّام باية مرة لم يغب عنه مرة! أليس كذلك يا كلثوم؟

ـ حق، حق، حمام ولا كالحمامات!

ـ (لنعيمة) أرأيت إلى امرأة عمك؟ فضلت الحمام على صاحبته! أتدرين لماذا؟ لأني أزن ثلاث مرات مثلها. إنها تغار! اسمعي يا بنيتي، إياك أن تضحكي من ضخامة جسمي لأنك عندئذ تخسرين رقة قلبي. صحيح ما أقوله لك قلبي رقيق رقيق... سوف تتحققين من قولي...

خجلت نعيمة، وظنت أن المرأة تتكلم جادة، وقالت:

ـ لا تضحكني ضخامة جسمك ولا نحافته. أنا في مستوى أقل من أن أضحك على الناس!

ـ لماذا، لأنك من الريف؟ لا تفكري هكذا... لا يستحي من أصله سوى البطيخ!

ضحكت نعيمة بالرغم منها واستفهمت:

ـ هل البطيخ يستحي من أصله؟

ـ وهلَ تشكينّ في ذلك؟ لماذا إذن يضخم ويحمرّ ويعذب، لو لم يكن يحاول تغطية أصله؟ إنه خرج من بذرة سوداء مثلي! لو تعرفين أمي.... سوداء سوداء تلمع بالسواد كالزيتون!

قالت ذلك وغمزت زبيدة وهي تقول لها:

ـ عما قريب. . . سوف ترين، يأتي لخطبتك رجل أضخم مني!

تدخلت العجوز كلثوم لتغير موضوع الحديث:

ـ باية، نود أن نتخذ أماكن بالقرب من مقصورة العرائس. أنت تعرفين أنني أصاب أحياناً بالضيقة من الحمام. . .

ـ للأسف يا كلثوم، لا أستطيع اليوم. . . تلك الجهة كلها محجوزة منذ أسبوع. انظري (مشيرة إلى الدفتر أمامها) إني أنتظر صواحبها من لحظة لأخرى.

ـ من حجزتها؟

ـ عائلة بن عبد الجليل. . . أرادوا أن يحجزوا الحمام كله هذا اليوم، فامتنعت لأن زبائني أيضاً لهم حقهم في هذا الحمام. ليست الدراهم وحدها هي صاحبة الحق!

ـ ألم يجدوا أين يحجزون إلا هنا؟ هذا الحمّام بعيد عنهم.

صاحب المال الدنيا كلها قريبة منه! وحمّامي ليس كسائر الحمّامات. .

ـ لا شك أن بنتهم ستزفّ عما قريب؟

ـ يوم الأحد على ما علمت. ألم يستدعوكم؟

ـ لا علم لي حتى الآن. ربما دعوا الشيخ ونسي أن يخبرني كعادته.

ـ الرجال لا ينسون، يتناسون!

ـ لا، لا أظن. لا شك أنه نسي، لأن سي عبد الكبير

صديقه. قولي يا باية، هل تعرفين أهل الرجل الذي تزوج بها؟

ـ تزوجها ابن ذهبية، امرأة بوبكر القهواجي. أنت لا تعرفينها. يسكنون بالأبيار.

ـ وكيف قبل بن عبد الجليل أن يعطي بنته لابن قهواجي؟

ـ بوبكر القهواجي صار أغنى من عبد الجليل! وابنه حسن الذي تزوّج بدنيا نائب وكيل الجمهورية...

ـ آ... لهذا قبل!

ثم قالت تثني على الفتاة العروس:

ـ دنيا فتاة حيّية مليحة تستحق كل خير.

ـ لكن وهيبة أختها الصغرى أجملهن.

ـ حق، حق.

وهيبة هي البنت التي يفكر الشيخ علاوة وزوجته العجوز كلثوم في خطبتها إلى مراد الطبيب. فتاة في منتهى الجمال.

وسألت العجوز كلثوم صاحبة الحمام:

ـ في أي جهة نتخذ لنا أماكن؟

ـ هناك، بالقرب من النافذة. إنه مكان مريح. انتظرن لحظة تعدّه لكنّ العاملة.

ونادت:

ـ مريم! حضّري المكان قرب النافذة للسيدة كلثوم...

واصلت صاحبة الحمام الحديث مع العجوز كلثوم، ريثما يتم تحضير المكان، أما نعيمة فكانت تسترق النظر إلى المرأة بالرغم منها. فلاحظت أنها تلبس فستاناً حريرياً حائل اللون، أو

بالأحرى رأت الجـزء الأعلى من الفستـان أو ما يشبهـه لأن الجزء الأسفـل كان يحـول بينها وبـين رؤيته المكتب ـ الخـزانـة. وتشـدّ نصف رأسهـا بمنديـل حريـري أخضر تتخلله خيوط بيضـاء على الطريقة الجزائرية القديمـة. رقبتها يحليهـا وشم ضخم من أقصى اليمـين إلى أقصى اليسار في شكـل عقد عـريض. وعـلى الـوشم قـلادة ذهبية غليـظة، تتفرع عنهـا سلاسـل صغـيرة، بـرؤوسهـا ميـداليات من قـطع العشرين فرنكاً النابليـونية، تغـطي الجـزء الأعلى من صدرها العاري. علقت في أذنيها قرطـين على شكـل هـلالين خصيبـين. والتبس في نظر نعيمـة الوشم بـالمصوغـات، لكثرة ما حلت به المرأة نفسها من هذا وتلك! ورأت عـلى لحيتها في الـوسط من الشفة السفـلى إلى الذقن وشمـاً في شكل صليب مزدوج يتقلص طولـه كلما ضحكت المرأة. وكـانت تضحك بـلا انقطاع. مما جعل الصليب الوشم، من جـراء الحركـة المتواصلة يبدو كأنه يسخر من رائيه ومن صاحبته في الآن نفسه!

كما كانت حركة ذراعيها تحدث ضجة من الرنين بلا انقطاع، لمـا طـوقهـا من أسـاور ذهبيـة من عضـلات الكـربعتـين إلى المعصمين! عدّتها نعيمة فوجدتها سبعة أسـاور في كل ذراع، من النوع العريض!

في أصابعها تزاحمت مجموعـة من الخواتم التي تـدل على قيمـة مرتفعة بـلا ذوق. قالت نعيمـة في نفسها: «إنـه نوع من الـثراء البـذيئي الموروث عن عهـود الانحطاط!» وفعـلاً، كـانت المـرأة بمصوغاتها تلك تشكل بطاقة بـريديـة مثل البـطاقات التي كـانت

تمثّل «فاطمة» الاستعماريين في أيام الاحتلال الأولى!

وكـانت المرأة وهي تتحـدث تلعب حبة (بي) بـين أصـابعهـا وتضع رأسه أحياناً على شفتيها السفلى حتى أزرقَّ المكان فشكـل تكملة للوشم!

رأت نعيمة وراء المرآة بالحائط مرافع عليها زجاجـات صغيرة وأحقـاق وأوعية مختلفـة بها المـواد التي تستعمل في الحـمّام عادة من طرف النساء. تحت المرافع نبتْ ثـلاجة ضخمـة للمبردات. إلى يسار المرأة مـروحة كهـربائيـة تهبّ بهواء دسم كثفتـه أبخرة المـاء الساخن والتنفّس.

انتبهت نعيمة إلى ما كانت فيه المرأة من حديث، نبّههـا جهر المرأة بها بيدها على صدرها:

ـ قلت لهـا، نحن حـافـظنـا عـلى أصلنـا وشرفنـا والاستعـمار بالباب. أما أنت فكنت خادمة عندهم، كانوا ينادونك «فـاطمة» واسمـك خـديجـة! واليـوم أصبحت تحسبـين نفسـك وحـدك في الـدنيا، أنت فقط التي جـاهد ابنهـا والأخريـات ولـدن الخـونـة «والمتعـاونين» قلت لهـا: «أنا لم ألـد، ولست أمـا لمجـاهـد، أنـا المـجـاهـدة، وضـعـت قـنـبـلتـين بـقـهـوة «المـيـلك بـار» «والكـوكـاردي»... هـا هي أوراقي. وقلت لهـا من اليـوم لن أقبلك في حمـامي. اذهبي حيث شئت فـلست في حـاجـة إلى أوساخك. ومن ذلك اليوم لم تضع رجلها ببابي!

فقالت لها العجوز كلثوم:

ـ لم يهـدها الله، الثلب في النـاس عيب. الحرب كـل النـاس عرفوها وتعرضوا لويلاتها.

ـ بارك الله فيك! هذا كلام العقـال، لكن قولي لهـا أنت هذا واسمعي... إنها أفعى بسبعة رؤوس!

أقبلت العاملة تخبرهن بأن المكان جاهز فقالت العجوز كلثـوم ناصحة:

ـ وسعي بالك، الزمان تغير.

ـ لا تخافي علي، الزمان يتغير وأنا أتغير معه. صحّ حمّامكنّ!

شكـرنها واتجهن إلى المكان الـذي أعـدّ لهن، وطفقن ينـزعن أثوابهن، وإذا بزغردات النساء تنطلق بباب الحمـام معلنة وصول العـروس وذويها. فـلاقتهن «بايـة السمينة» بـالترحيب. وكـانت تتقـدم العروس ومن رافقنها مغنية تقليـديـة تغني أغنيـة خـاصـة بـالمناسبـة مضمونها طمـأنـة العـروس على الحيـاة المقبلة عليها، وذكر خصالها والدعـاء بالخـير لها والسعادة. بينما كـانت صاحبـة الحمام تمشي أمامهن ترشدهن إلى المكان المخصص لهن وهي كلها ابتسـام وترحيب. وراحت نعيمـة وزبيدة تتـابعان بـاهتمام بـالغ تقـدم العروس في البهـو إلى أن دخلت مقصـورتهـا وغـابت عن أنـظارهن. كان مـا يدفـع نعيمة إلى متـابعة مـا يجري هـو جـانب الفضول والاطلاع، بينما زبيدة كان يدفعها إلى ذلك التمني بهـذا النمط من الاحتفالات في زفافها هي عندمـا تتزوج. ولم لا؟ إنها من عائلة محترمة، إمكانياتها تسمـح لها بمثـل هذه النفقـات لكنها

مع ذلك كانت تشعر في أعماقها بأن الوقت يكاد يفوتها. فمن الشاب الذي يتقدم إلى خطبة عانس تتأهب لاستقبال الأربعين؟ إنها تبلغ بالضبط ثماني وثلاثين سنة، قضت منها ما يقرب العشرين في انتظار مثل هذا اليوم، ولم يتقدم إليها من يحظى برضا والدها. إن خطبها مثقّف فضّل لها الغني، وإن خطبها غني تمنى لها من يجمع العلم والثراء. وإن تقدم هذا ودّلها من له حسب ونسب... وبقيت تنتظر الرجل الذي يعجب والدها حتى أوصلها الانتظار إلى العنوس! ثم أخذ الزهد في الزواج يتغلب فيها على الأمل فيه، وصارت بمرور الأيام تشعر بالحقد على من يتزوج، رجالاً ونساء. كان تتبعها للعروس وهي تتجه إلى مقصورتها فيه كثير من الحقد ومن التمني معاً.

المقصورة طبعاً لا تتسع إلا لعدد معدود من الأشخاص. ولذلك بقي معظم من رافقن العروس في المصطبة الفسيحة. رأت عمة العروس العجوز كلثوم في الجهة المقابلة فحيّتها برأسها، مشيرة لها أنهما سيتلاقيان في قاعة الاستحمام بعد حين.

أحست العجوز كلثوم بالخجل منذ حيّتها المرأة وقالت لزبيدة:

ـ أخشى أن يكون أبوك نسي أن يخبرنا بأنهم استدعونا لحضور حفل زفاف ابنتهم؟

ـ أنا لا أشك في أنهم استدعونا، وأبي لن يخبرنا إلا في آخر لحظة كعادته...

أتممن نـزع ثيابهن وشـددن على أوسـاطهن بفوطـات الحمام، ودخلن قـاعة الاستحـمام. كانت هـذه القاعـة تشتمل عـلى دكة واسعة، لِذَلكِ الأجسام، وحـولها مقصـورات صغيرة يؤخـذ منها الماء لغسل الجسم أو الرأس أو الاستسخان.

لقد أدهش المشهد نعيمة... كان عبارة عن سوق للعـواري من كـل سن، من الثانيـة عشرة إلى السبعـين أو أكـثر! وأذهلهـا بالخصوص مـا يلاحظ من فـرق مريـع بين أجسـام أولئك النسـاء العواري حسب أعمارهن. وفكرت أن جسم المرأة إذا تجـاوز سناً معينة أصبح مجلبة للضحك المـر! لقد تصـورت بعضهن ضفادع ضخمـة تلبس جلوداً بيضاء، لا تكـاد تتحرك من السمن! بينـما كانت العاملات منهمكات في أعمالهن. هذه تدلك وتلك تسـاعد في غسل الرأس، والأخرى تجلب مسحوقـاً طلب منها أو عـجينـة لإزلة الشعر الخ...

قالت العجوز كلثوم لزبيدة ونعيمة:

ـ لنسرع قبل أن تدخل العروس ومن معها فلا نجد مكاناً.

وتقدمن نحو حوض على اليمين، فنادتهن إحدى العاملات:

ـ الأحواض اليمنى محجوزة. اذهبن إلى اليسرى.

التففن حـول حـوض وأخـذن يغتسلن، لكن نعيمـة لم تـطق حرارة الماء. فقالت لها زبيدة:

ـ لا تخـافي، ستتعودين بسرعـة. خذي المـاء بيديـك واغسلي ساقيك شيئاً فشيئاً حتى يسخن كامل جسمك.

ـ لكنه حارّ جداً!

ـ الناس يأتون للحمام من أجل الحرارة، ولولا ذلك لاكتفوا بحمامات بيوتهم. سترين، بعد فترة وجيزة تتعودين وتحسين بأن جسمك يأخذ في الارتخاء كأنه يستسلم للحرارة! ثم تشعرين بلذة الحرارة التي تشملك... أنا أود لو أبقى يوماً كاملاً بالحمام!

عملت نعيمة بنصيحة ابنة عمها، وشعرت بالفعل أن جسمها قادر على تحمل حرارة أكبر!

وكان بأحد الأحواض القريبة منهن امرأتان تغتسلان. وكانت المسنة منهما تدلك الأخرى التي ما يزال نهداها لم يتهدلا، تدلكها دلكاً رفيقاً. مما آثار انتباه نعيمة، وودت لو أنها كانت مكان الفتاة بين يدي تلك المرأة الحنون. وفكرت أنها تكون أختها الكبرى، أو قريبة لها تعزها. وكانت الفتاة تبدو مستسلمة للمرأة، ينثني جسمها بطواعية، تبعاً لحركة الدلك. وكانت المرأة أحياناً تبدو وكأنها نسيت أنها تدلك فتبقى يداها وحدهما تجسان كتفي الفتاة، وهي تكاد تلتصق بها!

همست زبيدة بالفرنسية لنعيمة لكي لا تفهم أمها:

ـ انظري...

فأجابتها نعيمة:

ـ رأيتها قبلك. إنها في دنيا أخرى...

ـ ماذا تريدين أن تقولي؟

ـ لم تفهمي؟
ـ لم أفهم ماذا؟
ـ ماذا تعمل المرأة لتلك الفتاة؟
ـ تدلكها. . . ماذا تعمل؟
ـ ما أغباك! ألا ترين؟
ـ ماذا أرى؟
ـ انظري، إنها نسيت نفسها تماماً. . . إنها. . .
ـ ربما أتعبتها الحرارة؟
ـ الحرارة الداخلية! ينبغي أن تأتي للحمام مرات عديدة لكي تعرفي ما تفعل بعض النساء. . .
ـ ماذا تفعل امرأة لامرأة؟
ـ أنت لا تفهمين شيئاً. دعينا من هذا الحديث. . .
ـ هل رأيتها قبل اليوم؟
ـ عندما تنتهيان من الحوض وتنتقلان إلى الدكة، انظري، هل تدع الطيّابة (الدلاكة) تلمس صاحبتها. . .

كانت في تلك اللحظة كل من المرأة والفتاة مغمضتي العينين، مستتسملتين لبعضهما، في حالة من التواصل الغريب الذي أنساهما كلية المكان والزمان.

فتعجبت نعيمة، وقالت بدون أن تفكر:

ـ عيناهما مغمضتان!

فردت عليها زبيدة بالفرنسية دائماً:

ـ وما حاجتهما لفتح عيونهما إذا كانت القلوب تعرف بعضها!

ـ إنك قاسية!

ـ على من؟ أنت لا تعرفين هذا النوع من النساء.

ـ سمعت وقرأت، لكن نفسي لا تصدق!

ـ إلى الآن؟

ـ لست أدري.

فتدخلت العجوز كلثوم وقد أثارها تهامسهما:

ـ منذ حين وأنتما توسوسان لبعضكما بالفرنسية... أنكما أثرتما فضول من حولكما!

فقالت لها زبيدة:

ـ هل التهامس عيب؟

ـ إذا كان فيه إشارة إلى الغير عيب!

ـ لم نشر إلى أحد.

ـ إنني أعنيك أنت بالخصوص، أما نعيمة فحاشاها...

ـ لن آتي معك مرة أخرى إلى الحمام!

ـ يكفي من الحديث الفارغ. اشتغلي بنفسك ولا يعنيك حال الغير...

انطلقت زغردة موكب العروس فقطعت توبيخ العجوز كلثوم بنتها. وبّختها بمحضر نعيمة، نكاية بها وتحذيراً للأخرى التي ربما لا تعرف أن هذا النوع من الاشتغال بالغير، غالباً ما ينتهي بخصومات لا آخر لها.

دخلت العروس بموكبها وأبهتها تتقدمها المرأة «المقدمة» (المغنية) وفتاتان تحملان شمعتين مشتعلتين، واتجهن جميعهن إلى

الأحــواض اليمنى. أزاحت العــروس عن وركيهــا الفــوطــة لتستحم، ففعلت الأخريات مثلها وأخذن يغتسلن.

لاحــظت نعيمــة أن وركي العــروس أعــرض بكثيــر من صدرها، كما لو أنها ركّبت من جسمـين: أعلى نحيف، وأسفـل عريض! وأفضت إلى ابنة عمها بما يدور في نفسها:

ـ أرأيت جسم العروس؟

أدركت زبيـدة ما تعني ابنـة عمها، وكـانت قـد لاحـظت مـا لاحظته هذه منذ اللحظة الأولى وقالت:

ـ من الجلوس!

ـ عدم العناية أيضاً له فعله.

ـ أغلب الجـزائريـات ولا سيما من تـربـين مثـلي، لا يفـارقن البيت، يُعنـين غالبـاً بوجـوههن أكثر من كـل شيء آخـر. ليس مثلكن أنتن الجيل الحالي. . .

ـ مهـلاً، مهلاً! الجيـل الحالي والجيـل الماضي. . هـذا كـلام لعجوز. . أنك تخوفينني بهذا التفكير القانط!

ـ بين عمري وعمرك ثماني عشرة سنة!

ـ الأعـمار لا تقاس بـالسنـين، بـل بـالـطريقـة التي يحيـا بهـا الإنسان. نحن بالريف مثلاً أكثر الفتيات لا يعـرفن من الشباب إلا حلماً عابراً، تعقبه الأمومة أو الشيخوخة المبكـرة. . . حسنة الحظ من «بيعت» في سن السادسة عشرة. . .

ـ الزواج في السادسة عشرة ولا حياة العنوس إلى الأربعين.

ـ لا تقنطي من الحياة بهذا النوع من التفكير. إن التفكير المستمر في شيء ينتهي بصاحبه إليه! إنك ما زلت تحتفظين بكل مقومات الشباب. ثم إن السعادة ليست في الزواج...

ضحكت زبيدة ضحكاً عالياً حتى التفت إليهما من بالحمام، وأغضبت أمها التي كانت قد ذهبت إلى العروس ومن معها وخاصة العمة التي أشارت لها منذ حين بقاعة الاستراحة أنهما تتلاقيان من بعد، والتي ما إن دخلت قاعة الاستحمام حتى دعتها من جديد.

هددت العجوز كلثوم ابنتها من بعيد بيدها على الضحك المسموع فهزت زبيدة كتفيها غير عابئة بالتهديد وأجابت ابنة عمها:

ـ إذا لم تكن السعادة في الزواج للمرأة الجزائرية، فأين تكون إذن؟ أنك ما زلت غرّة، لا تعرفين ما معنى المرأة عندنا... إنني أحياناً عندما أكون بالبيت وحدي أتمنى لو أكون شحنة كهربائية تضرب كل رجل يمرّ في نهجنا!

ـ لماذا؟ (بتعجب).

ـ لأشعره، بوجودي وبحرماني.

ـ رسخت في ذهنك هذه الأفكار لبقائك الدائم بالبيت. لو خرجت لما كانت أفكارك هكذا... إن الرجال ليسوا كما تتخيلين. إنهم كالكلاب...

ـ في أيّ شيء؟

ـ إذا طعموا تفرقوا. لا عاطفة لهم.

ـ من عرّفك بالرجال؟ إن حياة المرأة وحدها لا معنى لها. وحياتها بدار أهلها خادماً على نساء الإخوة هي أقسى ما يمكن أن تتعرض له من عذاب! لا، أنت تتحدثين عن موضوع لا تعرفينه.

ـ لم أكن أدري أنك ساخطة على الحياة بهذا القدر!

ـ لم توات الفرصة لنتحادث، أنت طالبة وأنا. . .

ـ وأنت ماذا؟ أنت أيضاً قارئة و. . .

ـ أقرأ ألف ليلة كل ليلة!

ـ أودّ لو كنت في مكانك أحيا بالمدينة، مع إخوة مثقفين. أنا أحيا مع أب جاهل، لا ينفكّ يروي لنا المعارك التي خاضها أثناء حرب التحرير. . .

ـ أحيا في المدينة ومع أهل مثقفين، أنت تتصورين حياة المدينة كحياة أسرة العم بيل(★) إنك مخطئة. الحياة في المدينة أو في الريف، أو حتى في السماء مع الأهل، هي دائماً شيء واحد!

ـ أنت تتحدثين مع عمّي وتردّين عليه أحياناً، أما أنا مع أبي فلا حق لي إلا في قول «نعم». قال لي ذات يوم: أكلمك مباشرة لأنك يتيمة، ولو كانت أمك حيّة لما كلّمتك!

ـ أنت تتصورين أنني أتحدث مع أبي! عمَّ نتحدث؟ أبي لا

(★) مسلسل تلفزيوني أميركي للأطفال.

يتحدث معه أحد، يتحدث وحده، أليس هو الشيخ علاوة؟

ـ على كل، هو مثقّف.

ضحكت زبيدة من قول نعيمة... وقالت في نفسها: «إنها لا تعرف شيئاً عن الثقافة وعن الحياة إذا كان ما تقوله هو اعتقادها! وقالت بجهر:

ـ مرات أفضل أن لا أكون مثقفة، عندما أسمع هذا النوع من التفكير! تدرسين في الجامعة ولا تعرفين أن أبي غير مثقّف! يريد أن يكون مثل ذاك وذاك، ولا يفكر لحظة واحدة أن يكون هو نفسه... عندما يذكر أمامه ثريّ من أثرياء المدينة يقفز مادحاً له ولو لم يعرفه! لماذا لم أتزوج؟ لأنه ينتظر هذا الثريّ الذي يتقدّم إليه خاطباً... وهم يضحكون عليه. إننا لو بقينا مائة قرن في الجزائر لاعتبرنا سكانها الأصليون من الفحص (الضواحي)!

ـ تبالغين. ما الفرق بين سكان المدينة وغيرهم؟

ـ سوف تعرفين ما الفرق...

ـ دليلة لا تفكر مثلك!

ـ أنا نموذج وحدي! سوف ترين، دليلة، هالة، رضا، مراد... لكن مراد لا، قد يقبلون مصاهرته... أما نحن كلنا فلا نعامل إلا معاملة الوافدين على المدينة!

ـ وماذا يؤلمك في هذا؟

ـ يؤلمني أن أبي لم يرد أن يعرف طبقته!

ـ تتحدّثين عن الطبقة الآن!

ـ ولم لا؟ أنا أعرف موقع قدمي. ولعلني بهذا سيّئة الحظ!

ـ أنت سيئة الحظ إذن بدون شك! عمي فعلاً يحاول أن ينتمي إلى طبقة غير طبقته... يخلط بين تمسّكه بالدين وانتهائه سياسياً!

ـ لا تخافي، لا يخلط، هو إقطاعي بفكره ولو لم يكن من الملّاك!

ـ إنك تدهشيني بهذا التفكير الجديد! لا شك أن رضا أعداك...

ـ رضا هو أذكانا... ولعله هو ملاذنا في نهاية الأمر...

ـ ودليلة ما رأيك فيها؟

ـ دليلة، كما كتب على باب غرفتها رضا: بركان، ولكنها لا تلتهم نارها غيرها! أنا لو كنت مثقفة مثلها لانفجرت على غيري. هي كريمة جداً، تعطي نفسها، لا تأخذ.

ـ يبدو لي أنها في هذه المدة تعيش أزمة؟

ـ من يدري؟ هي لا تسارّ أحداً. ثم لماذا لا؟ كل شيء في حياتنا أزمة...

ـ ألا تريدين أن نخرج؟ إني لم أعد أقوى على تحمّل هذه الحرارة.

ـ نخرج ونحن لم ندلك؟ أمشي إلى الدكة الحجرية، أنا أتم غسل شعري وألتحق بك.

ونادت زبيدة عاملة تعرفها، ورجتها أن تتولى دلك نعيمة. وقالت لنعمية:

ـ هي تدلك جيداً، دعيها تدلكك.

ـ وأنت؟

ـ أنا لا يهمك. لا يلعبن معي . . .

ذهبت نعيمة إلى الدكة الحجرية، وأتت إليها المرأة، وأمرتها أن تنبطح على طولها وتسلم لها جسمها فضحكت نعيمة، وقالت لها:

ـ هو أمامك، افعلي به ما تريدين.

أخذت المرأة تدلكها بكيفيّة أشعرت نعيمة بلذة وبارتياح. لكنها بعد لحظات أخذت مرة تضغط على كاذتيها ومرة تكبس نهديها، مما جعل نعيمة تزجرها غاضبة:

ـ مالك؟ هل كلكن مريضات في هذا الحمّام؟

ـ وكيف تريدين أن أدلكك؟ أعلم بخطوط جسمك، لكي لا أتجاوز الأماكن التي تريدين دلكها؟

ـ ضعي تلك الخطوط في رأسك، لا على جسدي.

ـ إذا كنت لا تريدين أن أدلكك أنصرف. ليس لي وقت أضيعه في الحديث!

ـ ادلكي ما يُدلك وكفى.

ـ كل شيء يُدلك! انظري إلى هذه الأوساخ التي أخرجتها منك . . .

ـ (تريد إشعاري بالنقص) لولا الوسخ لما جئت إلى الحمام.

ـ لا، وسخك تجاوز الحد، كأنك لم تذهبي في حياتك إلى الحمّام!

ـ اعملي عملك وكفى.

ـ اسمعي، لست خدامة عندك! عهد «المعلّمين» مات...

قالت ذلك وتوقّفت عن الدلك تنتظر ردّ فعل نعيمة. لكن هذه بعد غضبها الأول شعرت بشيء يشبه التعاطف مع هذه العاملة التي تحتجّ وتحاول إثبات شخصيتها وكرامتها. فقالت لها بلهجة التصالح:

ـ لا تخافي، لست من طبقة «المعلّمين» أنا مثلك.

ـ إذا كنت مثلي دعيني أعمل عملي.

فقالت نعيمة بلهجة مازحة:

ـ اعملي عملك ودعي ما ليس لك!

ـ ما دمت بين يديّ، فجسمك كله لي، فهمت أم لا؟

فكرت العاملة أن هذه الفتاة ليست من المدينة، فهي لأول مرة في عملها هذا تزجر بهذا الشكل في الوقت الذي كانت تعتقد أنها بحركاتها تلك الزائدة على الدلك تنال حظوة أكثر لدى نعيمة. وسألتها:

ـ أنت لست من المدينة، لا؟

ـ لست من المدينة.

ـ ماذا تعملين هنا؟

ـ أدرس.

ـ زبيدة صديقتك أو قريبتك؟

ـ ابنة عمي.

ـ هي بنت طيّبة. لكن ليس لها حظ.

ـ ولماذا؟

ـ التي يكون أبوها بورجوازياً في الجزائر لا يمكن أن يكون لها حظ.

ـ ولماذا؟

ـ لأنها لا تتزوج. الشعب لا يخطبها، والبورجوازيون يتزوجون بالأجنبيات!

ـ أتعتقدين هذا؟

ـ ولم لا؟ هل أكذب؟

ـ لم أقل هذا. ولكن البورجوازيين لا يتزوجون بالأجنبيات، ليس كلهم. هم كغيرهم من الناس.

تعجبت العاملة من تفكير نعيمة، وقالت لها:

ـ تفكرين أن البورجوازيين كغيرهم؟ مع أنك قلت، تدرسين هنا بالجزائر! أنا أقول لك: البورجوازيون من جهة والناس من جهة أخرى! انظري إلى اللواتي جئن مع العروس، لبسن كل مصوغاتهن. يتعالين بها علينا!

ـ أنت غالطة. لبس المصوغات لا يعني دائماً الانتماء إلى الطبقة التي تتحدّثين عنها. النساء كلهنّ يلبسن ما يملكن في المناسبات.

ـ أنت تتكلمين كما في الاجتماعات. نحن الآن في الحمّام!

ـ أي اجتماعات؟ (متعجبة).
ـ اجتماعات الميثاق. . . هل هناك غيرها؟
ـ أتشاركين فيها؟
ـ ولم لا؟ ألست من أفـراد الشعب؟ هـذا المســاء أذهب إلى اجتماع بحيّكم.
ـ صحيح؟ أنا أيضاً أنوي ذلك.
ـ نتلاقى هناك إذن، وسوف ترين ما أفعل!
ـ طيّب، شكراً الآن يكفي من الدلك، أحسّ لحمي طاب!
ـ لذلك نسمى بالطيّابات!

قامت نعيمة لتذهب إلى المنضحة، بينما أقبلت زبيدة لتـدلكها العاملة نفسها. وكانت العجوز كلثوم حينئذ مع عمة العروس في أحاديث وبرامج مستقبلية منوّعة. العمـة تودّ من العجـوز كلثوم أن تـوصي ابنها الـطبيب ليرى أحـد معارفـه الأطبـاء في أمـراض المفاصل. . . لأنها تشكـو هذا المـرض، ولم تنفع فيهـا أدوية ولا حمّـامـات. في حـين كـانت العجـوز كلثوم تتنسّم الأخبــار عن وهيبة، الأخت الصغرى للعروس، وهي التي يتحدث عن جمالها كل من رآها، كما تبحث عن زوج لزبيدة، أو لدليلة لأنها أيضـاً في سن الزواج. . . وقالت لعمة العروس متحدثة عن وهيبة:
ـ وهيبة فتاة طيبة. تكلمت ذات يوم أنا والشيخ عليها. . .
ـ لمن؟
ـ للطبيب، لمراد.
ـ ايه، رجل وابن رجال! هل ذكرتم شيئاً لأبيها؟

ـ ما زلنا، نريد أن نشاور مراداً أولاً. هو ليس كالآخرين، لا نستطيع أن نتصرف به كما نحب. . .

ـ صحيح. استشارته لازمة. إذا رغب فيها فلا أظن أخي يرفض طلبه. لكن وهيبة أيضاً ليست سهلة. أبوها لا يستطيع تزويجها إلا بمن ترضى به هي.

ـ كم عمرها الآن؟

ـ أربعة وعشرون عاماً.

ـ عمر الزواج الحقيقي. . .

ـ وزبيدة، ألم تتزوج؟

ـ لم يحن مكتوبها.

ـ الزواج لمن في سنّها صعب.

ـ أبوها هو السبب، في كل مرة يأتي خاطب يرفضه، حتى فوّت عليها الفرص، والآن ها هي ذي كما ترين. . .

ـ لو تَكِلين أمرها لي أزوّجها!

ـ إني وكلتك.

ـ وأبوها؟

ـ أبوها الآن لا يستطيع أن يعارض. من يجد لابنته خاطباً ويرفض، في سنها؟ أنا أقول الحق. . .

ـ إذن أؤكد لك، ستتزوج بالرغم من الرجال. إننا من العاصمة، نعرف كل مداخلها ومخارجها. . . تتزوج في هذا الصيف، أو في هذه الأيام!

ـ لك منا كل ما تريدين، إذا حققت لنا هذه الأمنية.

ـ أريد ألفي دينار فقط، ليس لي أنا، وإنما أنفقها في هذا السبيل.

ـ لك أكثر إذا شئت.

ـ أنت لا تدفعين شيئاً. آخذ الألفي دينار منكم وأنتم خذوها من الزوج. ألا يليق هذا الرأي؟

ـ أنا أدفعها من عندي، إذا لزم الأمر.

ـ لا تدفعين شيئاً. دعيني أنا أتصرف.

ـ تصرفي، ولك كل عرفاني بالجميل.

ـ بعد غد تأتين للتصدير؟ (حفل تلبس فيه العروس جهازها أمام المدعوات).

ـ إن شاء الله. أما فيما يخص الطبيب فإني أكلم مراداً هذا المساء.

ـ تعملين جميلاً.

ـ ابقي على خير.

ـ لماذا لا تبقين معنا حتى نخرج؟ إننا أتممنا حمّامنا نحن أيضاً.

ـ لا، شكراً. إني على استعجال، لم أتعود أن أبقى كل هذا الوقت في الحمّام.

افترقت المرأتان وقد حقّقت كلتاهما مصلحة. وكانت العجوز كلثوم قد اغتسلت في الأحواض المخصصة للعروس. وبمجرد أن التحقت بزبيدة ونعيمة أخذت تحثها على الإسراع، كأنها تخشى

ان تفوت فرصة تزويج زبيدة مرة أخرى، إن هي بقيت بالحمّام دقائق أخرى!

وكانت تنوي إخبار زوجها بالأمر، ليؤمن لها الألفي دينار التي طلبتها المرأة كما كانت تود أن تعرف ما إذا كان بن عبد الجليل دعاهم إلى الحفل أم لا. لأنها أصبحت ترى ضرورة حضور هذا العرس، لما فيه من مصلحة...

أتممن غسلهن وخرجن إلى قاعة الاستراحة، ولم يلبثن لحظات حتى خرجت العروس أيضاً من قاعة الاستحمام مع من رافقنها. وقدمت المشروبات لمن كنّ بالحمّام بدون استثناء، بينما كانت امرأة تحمل في يدها قمقماً ترشّ ما فيه من عطر على النساء وغطت الزغردات وصوت المغنية هرج الحمام، وحركته الدائبة بين خارج وداخل وطالبة لمادة من مواد الاغتسال، أو خدمة ما.

كانت نعيمة تفكر أن الحمّام عبارة عن سوق مصغرة من الأسواق القديمة التي قرأت عنها في ألف ليلة وليلة... ولكنها تزيد عليها بما يجري بين النساء من جهة، وبأن الحمّام لا يقبل الرجال والنساء في وقت واحد، إذ للرجال الصباح وللنساء العشية... ولم تكن تجربتها في هذا الميدان خالية من الفائدة على كل حال. ولما نشف العرق عنهن لبسن ثيابهن وخرجن عائدات إلى البيت مودّعات عمّة العروس ومن معها.

* * *

- 4 -

في الـوقت الذي كـانت فيه نعيمـة وزبيدة تـراقبـان المـرأتـين المتنـاجيتين بـالحمّام، كـانت دليلة جالسـة على كنبـة وثيرة بشقـة العزوبة التي يملكها كريمو بشارع محمد الخامس. كانت تتأمـل في صورة للممثل عمر الشريف في دور شي غيفارة، معلقة بالحـائط المقابل لها.

إن هذه الصورة تثير في نفسها كم من ذكـرى... فأول مـرة رأتهـا فيها كـانت جالسـة في هـذا المكـان بالضبط، وعـلى هذه الكنبة نفسها. وكان السكر قد بلغ منها مبلغه، فلم تكن متعوّدة عـلى الخمر، فـأغراهـا كريمـو بالشرب، بـطريقـة جـد بـارعـة، فشربت.. وكـان كـريمـو يحسن الحـديث للعـاطفـة، ويتقن فن استثـارة الغـرائــز حتى وجـدت نفسهــا تحنّ إلى استقبـالــه من بعد... ورأت وهي في سورة التشنج هذه الصورة!

كانت في نظرهـا حينئذ جـد جميلة... جمعت بين ممثـل بارع وثائر عظيم! لكنها الآن لا ترى هـذه الصورة بـالشعور نفســه، فقالت في نفسها: زيف، كل هذا تمثيـل وزيف. ثم جرعت مـا

بقي من ويسكي في كأسها جرعة واحدة، ووضعت الكأس على المنضدة الصغيرة التي أمامها. وجذبت نفساً صغيراً من السيقارة التي بيدها وقالت لكريمو وهي تبدو في حالة انفعال وتوتر شديدين:

ـ قلت لي انتظري أسبوعاً، وها هو الأسبوع قد انتهى منذ يومين!

كان كريمو واقفاً أمام المشرب، في يده كأس من الويسكي لم يذقها بعد يفركها بيده ليسكن بذلك أعصابه. ولما تكلمت دليلة وضعها على لوحة المشرب، ومشى خطوات في القاعة ثم التفت إلى دليلة مجيباً في لهجة المؤاخذة والاستنكار معاً:

ـ طلبت أن نتلاقى بسرعة من أجل إسماعي أغنيتك؟ مع أني أخبرتك في الهاتف بأني لا أستطيع مقابلتك في هذه الأيام...

أحمرّ وجه دليلة غضباً وتشكلت على خديها حفرتان من عضّها على فكّيها، تحاول بذلك السيطرة على أعصابها، فازداد وجهها جمالاً وجاذبية قلما توجد في حالة الغضب وقالت:

ـ لم آت لأغنّي لك، جئت لأعرف جوابك.

ـ أنت تعرفين أن أبي يقيم حفلاً غداً بمناسبة زفاف أختي، وأنا وحدي الذي أعدّ كل شيء، فلماذا هذا الاستعجال؟ لست في المخاض على كل حال. لنا كل الوقت للحديث، ثم إن جوابي مع ذلك تعرفينه، قلت لك كل شيء في الرسالة.

ـ أي رسالة؟

ـ الرسالة التي أرسلتها إليك.

ـ متى؟

ـ أمس.

ـ باسمي أنا؟

ـ باسم ابنة عمك، وضعت العلامة على الغلاف كالعادة.

ـ ربما ستصل اليوم. لكن لماذا كتبت إليّ رسالة في موضوع يقتضي المشافهة وتبادل الرأي؟

ـ القضية لا تحتاج إلى تبادل رأي، كتبت إليك، لأني ظننت أننا لن نتلاقى بسرعة.

ـ ظننت أننا لن نتلاقى! الآن صرت تفكر في أن لا نتلاقى...

اقترب منها وأخذ يدها فجذبتها منه، فقام ومشى خطوات في القاعة ثم أشعل سيقارة وقال لها بدون أن ينظر إلى جهتها:

ـ لم يعد يجدي الكلام معك. أنت لا تثقين بي ولا بحبي لك.

فسألت بابتسامة ساخرة:

ـ تحبني مثل من: سليمة؟ أو هدى القسنطينية؟ أو نصيرة ـ صوناكوم؟.

ـ حتى نصيرة ـ صوناكوم أيضاً كنت خليلاً لها! أنت وكل الطالبات اللائي تحدّثت معهن ولو مرة كن أو هنّ صديقاتي! هذا كثير. ينبغي أن تعيشي في عصرك لا بغيرة القرون الوسطى!

ـ أعيش في عصري . . . (بحـدة) لست أنـا فقط التي أعيش في عصري بـل حتى هذا الـذي وضعته هنـا (تشـير إلى بـطنهـا) يعيش في عصره، ويودّ أن يعرف مصيره!

ـ أنت عصبية وكل حديث معك لا ينتهي إلى نتيجة.

ـ الآن صرت عصبية، أليس كذلك؟ أما من قبل، فقد كنت فتاة حيّية عاقلة. . .

التفت إليها مستعملاً طريقة الهجوم:

ـ أنت تحاسبينني على فعل مارسناه معاً؟ لم أرغمك على شيء لم ترغبي فيه. تحمّلي مسؤولية رغباتك.

قامت مغضبة ورمت السيقارة على الأرض وسحقتها بقدمها وهي تقول:

ـ لا أريد منك دروساً! قل لي ماذا تنوي أن تفعل؟

ـ قلت لك كل شيء في الرسالة. لا داعي للانفعال ولا لاستعمال لهجة التهديد. لست أول فتاة تحبل. . . إن أكثر من عشرة آلاف فتاة يجهضن سنوياً في العاصمة وحدها!

ـ آ. . . تريد هذا! تريد أن أجهض. بالنسبة إليك كل شيء سهل.

ـ ولم لا؟

ـ أتظن الحياة تجري كما تحب أنت؟

ـ قلت لك منذ لحظات لا داعي للتهديد. إذا أردت أن نبقى دقائق أخرى معاً، غيّري لهجتك.

ضحكت بسخرية وانفعال، وطفقت ترقص في القاعة. وقالت:

ـ هكذا يعجبك؟ تريد أن أرقص لك هنا. أو آتي لأرقص في زفاف أختك؟ هي ابنة عبد الجليل. وأخت كريمو لا تضع في بطنها إلا منيّ زوجها، ليست مثلي!

ـ يكفي من هذا اللغو!

ـ أتريد أن نجامع واقفين لتغيير الموضوع؟

رفعت فستانها إلى صدرها في موجة من الانفعال وهي تقول:

ـ انظر، بدون سروال! عندما تفقد المرأة عذرتها مع جبان فلماذا تتسرول! هيّا اقترب! لكنك لا تستطيع، أنت أعجز من أن تجامع فتاة واقفة، أنت تجامع النائمات!

ـ إن الويسكي أفقدك عقلك. لو كنت مكانك لاسترحت.

ـ كيف؟ مستلقية، أم منبطحة؟ أرأيت، إن رجليك لم تعودا تقويان على حملك واقفاً. لأنك جبان!

ـ لو لم أكن جباناً لما تركتك هكذا.. لكنت دفعتك إلى هاوية لا تخرجين منها أبداً!

ـ أي هاوية؟ ترسلني إلى فرنسا كما أرسلت غبيّات قبلي؟

ـ إنك تهذين.

يصبّ لها كأساً من الويسكي ويتقدم إليها كالمصالح، داعياً إياها للجلوس.

ـ لا، لن أجلس. قل لي كلمتك النهائية، لأرى كيف أتصرّف.

ـ (يفتعل الغضب) تصرّفي، اعملي ما شئت... شدّي السماء من تلابيبها زلزلي الأرض!

يشرب كأسه في جرعة واحدة. ثم يضيف:

ـ أنسيت أنك في الثانية والعشرين؟ يبدو أن أساتذتك في الحقوق لم يفهموك معنى الرشد القانوني؟ افعلي ما شئت. اذهبي إلى مركز الشرطة، أو اتّصلي بمحامٍ، أليس في أساتذتك من يمتهن المحاماة؟ اطرحي عليه قضيتك... قولي له إني حبلت من رجل، ذهبت إلى داره فأرغمني... أو قولي له، كنت سائرة في نهج فهجم عليّ وأخذني إلى داره...

أخذت بدورها زجاجة الويسكي فصبت كأساً وجلست، وقد عاد إليها بعض الهدوء كما لو أن انفعال كريمو أزال عنها انفعالها، أو أن ما قاله لا يخلو من حجة ومنطق في غير صالحها! وراحت تنظر إلى شي غيفاره الممسوخ... وتتساءل في نفسها: متى جاء شيء غيفاره إلى الجزائر؟ ثم تسأل بجهر؟

ـ هل ترك أولاداً؟

ينظر كريمو إليها مستغرباً سؤالها، ولكن لا يجيب. فتضيف في أسى:

ـ الثائر لا يلد!

ـ من هذا الذي تتحدثين عنه؟

ـ لو ولد لولد ثورات. . . وهذا يستحيل، لأن الحياة من أصل بورجوازي!.

ـ ماذا تقولين؟ أأنت مريضة؟

ورآها تتأمل في الصورة بالحائط فقال:

ـ ترك أولاداً مع فاتن حمامة على ما أظن.

ـ وإذا لم يترك العمر ـ الشريفون أولاداً فمن يترك اذن؟

قامت والكأس في يدها واتجهت إلى النافذة فلم تقدم لها إلا نهجاً مكتظاً بالسيارات وقالت في نفسها: الجزائر حبلى بالسيارات! ثم التفتت إليه تسأله:

ـ ماذا تقول، لو ألد لك سيارة. . . ميرسيديس أو 604 أو سيارة أخرى ضخمة، تناسب مقام العائلة؟ عندئذ ترتاح ويرتاح أبوك من شراء الفرنك الفرنسي بدينارين! في كل تسعة أشهر ألد لك سيارة. . . طبعاً تقودني حالاً إلى دار القاضي حينئذ لنتعاقد، لأن الاجهاض يلد سيارة غير كاملة التكوين!

ـ ان الويسكي لعب برأسك!

ـ لو كان الويسكي لعب بعقلي لهان الأمر.

أقبلت نحوه وهي تبتسم في مرارة:

ـ أتدري ماذا قال لي الطبيب عندما قلت له لا يمكن أن أكون حبلى، لأني لست متزوجة؟ قال:

ـ أنت مريم!

ـ من هو الطبيب الذي فحصك؟

ـ رجل من الرجال! أتدري في أي شيء أفكر؟ ولِمَ أنا في هذه المرارة؟ لأني امرأة. وضعي كامرأة في مجتمع رجال هو الذي يحزنني. أنت لست في نهاية الأمر سوى واحد من الرجال. مأساتي أنني أحيا في مجتمع الرجال! الصديق رجل، الأب رجل، الأخ رجل، الزوج، حتى بائع الخبز رجل! ليس سوى الرجال...

ـ أنت التي كنت متهوّرة... ألححت عليّ لأنزع الواقي...

فطأطأت رأسها تتذكّر الواقعة التي أشار إليها، والحزن يملأ نفسها. وقالت بصوت هادىء:

ـ أتدري لماذا ألححت عليك؟ لم أكن متهورة، إنما أحببت أن أنال منك ما لم تنله غيري... لم أرد أن تكون تجربتي كامرأة تشبه الفحص الطبي!

اقترب منها ليقبّلها ويهوّن عليها الأمر:

ـ ان حالتك لا تستحق كل هذا التهويل، فليس أسهل من الإجهاض...

دفعته عنها وقالت:

ـ طبعاً، ليس هناك أسهل من الاجهاض!

ـ أنا أقصد...

ـ أنت لا تقصد شيئاً. أنت رجل...

ـ عدنا من جديد إلى ما كنا فيه. أذهب إلى الغرفة المجاورة، وحين ينتهي غضبك أعود.

وانصرف إلى غرفة النوم. فقالت في نفسها: «اذهب إلى

الشيطان لم أعد «بسيشي» الساذجة! ورفعت كأس الويسكي إلى شفتيها وإذا بها ترى ذبابة سقطت فيها فخاطبتها متهكمة: هل الويسكي هو الذي أغراك فأغرقك، أم أنت التي أحببت الانغماس؟ وتراءت لها الذبابة من وراء الزجاج الداكن فاقدة للحركة. ثم ارتسم على زجاج الكأس أمامها أحد مدرجات نفق الجامعة قبل أن تنقل كلية الحقوق إلى ابن عكنون، كانت حينئذ في سنتها الأولى في الحقوق. وفي الثامنة عشرة من العمر... رأت شاباً طويلاً نحيفاً يشع ذهباً، وعيناه تحاكيان زرقة السماء، واقفاً مع مجموعة من الشبان وفتاة، تكاد تمتصه بنظراتها الملتصقة به. كان ينظر إليها الفينة بعد الأخرى، ولكن بلا مبالاة، ثم بعد برهة وجيزة أقبل نحوها كما لو كان يعرفها. وسألها بلا مقدمات وهو يمد يده:

ـ سيقارة من فضلك.

تعجبت من أسلوب الشاب في «عدوانه» هذا الغريب والجميل معاً! وأجابت سائلة بدورها:

ـ ومن قال لك بأني أدخن؟

ـ ألست طالبة؟

ـ وإذا كنت طالبة؟

ـ هل تأذيت من طريقتي هذه المباشرة؟ أنا ظننت أنك مثلنا جميعاً...

ـ في أيّ شيء.

ـ لست أدري . . . من أجل سيقارة كل هذه التعاليق! لو أنت طلبت مني سيقارة لما . . .

ـ ولكني لم أطلب منك شيئاً!

أرادت أن تحرجه إلى أقصى حد. وظنته كالمراهقين الذين كانوا معها بالثانوية. فأجابها وهو ينحني عليها ليقبلها:

ـ طيب، تجاوزت معك الحد؟ ها أنذا أقبّلك مستعذراً . . .

وقبّلها! فقامت بدون أن تشعر من شدة المفاجأة ولاحظت من بعيد الشبان الذين كان معهم يضحكون عليها. وقالت له بغضب تحذّره:

ـ لا تعد لمثل هذا أبداً! ماذا تظنّني؟

ـ أظنك طالبة. سنة أولى حقوق أليس كذلك؟

وانفجر ضاحكاً، ومد يده لها مصافحاً ومعرّفاً نفسه إليها في خطبة طويلة فلم تستطع وضع كلمة معه خلال ذلك:

ـ اسمي الكريم: كريمو. اللقب العظيم: بن عبد الجليل، القامة 1,77 الوزن 75 كلغ. أحسن من اللغات: العربية طبعاً، الفرنسية طبعاً، الأنقليزية، بلا طبعاً! الدرجة العلمية: ليسانس في العلوم السياسية بعد النجاح. الوظيفة المقبلة: سفير بجزر هاواي. حاجتي المقبلة إلى الموظفين متخرجة في الحقوق قبل الدراسة . . .

انفجرت ضاحكة وهي تقول:

ـ يكفي، يكفي، أرجوك!

كانت تظن أنه لن يغادرها وسيواصل الحديث معها إلى مالا نهاية. وإذا به يقفل راجعاً، كأنه لم يكن يتحدث معها بالمرة!

وفي رجوعه إلى رفاقه ظهرت الذبابة من جديد في الكأس! وضعتها على المنضدة، وأخذت حقيبتها اليدوية وقامت تعتزم الانصراف فرآها كريمو تتأهب للخروج فأسرع يعترض سبيلها فدفعته عنها:

ـ لا تحاول الاتصال بي مرة أخرى أبداً.

قالت ذلك وجذبت الباب إليها، فاعترضها مرة أخرى:

ـ لا، لا تذهبي هكذا. ينبغي أن تفهمي... نستطيع أن نبقى صديقين.

ـ ما بيننا صار ماضياً منذ الآن!

ـ لا ينبغي أن نغيّر ما نعدّ أنفسنا له من أجل هذا الحادث العارض.

... زحزحته عن طريقها وخرجت في تصميم وعزم تفكر في مستقبل جديد لا يعرفه ماضيها ولا ما أعدّها أهلها له!

* * *

- 5 -

خرجت دليلة من شقة كريمو وهي لا تدري أين تذهب. وهبطت في شارع محمد الخامس باتجاه شارع ديدوش مراد. وأمام أحد المسارب التحت ـ أرضية، في زاوية التقاء الشارعين، قبالة مكاتب الخطوط الجوية الجزائرية كانت نصيرة ـ صوناكوم واقفة، كأنها تنتظر أحداً. لم تكن علائق دليلة بها وثيقة. لكن ما سمعته من اشاعات حول علائقها مع كريمو في وقت من الأوقات جعلها تجد في هذا اللقاء شيئاً من المسرة.

ـ ماذا تعملين هنا؟ هل أنت مسافرة أم تتمنّين السفر؟

ـ لو كنت مسافرة لما وقفت هكذا أنظر إلى مقر الخطوط الجوية الجزائرية!.

صافحتها دليلة بشيء من الحرارة وسألتها:

ـ أتنتظرين أحداً؟

ـ لا أنتظر أحداً، حرة كالريح.

ـ هل الريح حرة؟

ـ هل هناك أكثر حرية منها؟

ـ ريح الشمال أم ريح الجنوب؟
ـ هل الحرية تختلف؟
ـ الرياح هي التي تختلف... أنمشي قليلاً؟
ـ ولم لا؟

لاحظت نصيرة أن دليلة ليست في حالة طبيعية مائة بالمائة، ولم تعرف السبب إلا من بعد. وقالت في نفسها: ان سرورها هذا المفتعل إما بقية انفعال، أو...

ولم تكن تعرف أن دليلة تشرب الخمر. وإذا بهذه تلفت انتباهها إلى فتى مسند ظهره إلى حاجز الرصيف الحديدي:

ـ انظري كيف أخذ يستعدّ لاعتراضنا...

فتح الفتى قميصه إلى سرّته، وراح يمسح بيده على صدره، في حركات تعبيرية، محاولاً إبداء رجولته ورغبته الجنسية في الوقت نفسه. فقالت دليلة:

ـ هو يعتقد أنه الوحيد الذي له صدر!

فأجابتها نصيرة:

ـ فتح القميص صار موضة لدى الشباب.
ـ على كل حال صدر هذا لا يرغّب في صاحبه أيّ امرأة!

تعجبت نصيرة من كلام دليلة الذي لا يناسب على كل حال الشارع. والتفتت إليها تستشف من ملامحها ما يدلها على حال الفتاة. لكن دليلة لم ترد أن تكون الصورة التي تأخذها من وجهها نصيرة عن طريق الحدس، بل تتركب من الكلمات.

فقالت:

ـ سوف ترين عندما نصل إليه كيف يتقلص ويدخل رأسه في صدره كالسلحفاة..

وفعلاً، عندما وصلتا إليه ضاعف من حركاته لإبداء ملامح الرجولة في جسمه لكن دليلة فاجأته تقول:

ـ لو كنت مكانك لأخفيت صدري، إنه يشبه صدور الفتيات!.

لم يدر الفتى بما ابتلي، فأدخل صدره بصفة لا شعورية وانكمش مشدوهاً! بحث عن كلمة يرد بها، لكن الكلمات أبعدتها المفاجأة، بحيث لم يتمكن من تركيب جملة، حتى كانت الفتاتان بمنأى عن ما يمكن أن تتضمن من إقذاع يعنيهما. وقال من بعيد بصوت غطّته ضوضاء الشارع:

ـ تعالي لأريك...

لكن نصيرة تأذّت وتضايقت مضايقة كبيرة من سلوك رفيقتها، وندمت على مماشاتها وراحت تحاول إسكات دليلة التي انفجرت ضاحكة ضحكاً عالياً نبّه المارة إليهما! ولشد ما كانت دهشتها عندما أدركت أن دليلة في حالة سكر. أو توشك...

لكن دليلة كانت شديدة الانتباه والحساسية بالرغم مما كانت فيه، ففهمت أن نصيرة تضايقت منها إذا رأتها تسرع الخطو كالهاربة. كفّت عن الضحك، وقالت بأسى وهي تشد كتف نصيرة:

ـ لا تخافي، لست بالقدرِ الذي تتصورين. . . نسيت فقط أنني في مجتمع الرجال!

ـ ماذا تقولين؟ هل تعتقدين أن حالتك الاستثنائية تخوّل لك كل حق؟ إننا في الشارع!

ـ أعرف، أعرف. لا حالتي الاستثنائية ولا العادية تخوّل لي الحق. . . هوّني عليك. نسيت أنني امرأة! هل عيب أيضاً أن أنسى لحظة أني امرأة؟

ـ طبعاً عيب! امرأة، وفي مجتمع الرجال كما قلت. . . انظري كم عدد النساء بالشارع وكم عدد الرجال!

ـ طيب، مرة أخرى لن أنسى لحظة أني امرأة. أيرضيك هذا؟

وتساءلت نصيرة في نفسها عن ما جرى لدليلة ولكنها لم تجد جواباً مقنعاً فسألتها:

ـ لكن مالك؟ ان حالتك تبدو غريبة!

ـ حالتي، تسألين عن حالتي؟

ـ ماذا بك؟ ماذا جرى؟

ـ لم يجر شيء يستحق الاهتمام، أفقت فقط من حلم بغتة فلم أستعد وعيي بالواقع تمام الاستعادة!

كانت تتكلم جهراً أكثر مما يقتضيه الحديث بين امرأتين. وبالرغم من الضجيج المرتفع في الشارع فان صوتها كان يصل مسموعاً إلى من يليهما من المارة مما أضجر نصيرة وجعلها تفكر في مفارقتها وقالت لها محذرة:

ـ خفّضي صوتك، لست صماء!
ـ أزعجتك إلى هذا الحدّ؟
ـ إن تماديت في الحديث على هذا النحو افترقنا!
ـ بهذه السرعة! (ثم بخيبة) إن شئت أن نفترق افترقنا!
ـ إن سلوكك لا يتلاءم مع المكان الذي نحن فيه. ألا ترين الأعين كيف تخرزنا؟
ـ أعين الرجال!
ـ خفضي صوتك، إن الناس ينظرون إلينا.
ـ إلى متى نخشى الناس؟ لك أن تذهبي وتتركيني إذا شئت. لن أخشى أحداً.

كانت دليلة لا تكاد تتكلّم جملتين أو ثلاثاً حتى يعاودها الانفعال مما جعل نصيرة تزداد حرجاً على حرج. فلم تجرؤ على مفارقتها، ولم تستسغ سلوكها. وكانت تحس أن شيئاً ما يقض نفس دليلة، ومفارقتها في تلك الحالة ليس من اللائق. وجرتها من يدها إلى نهج «شاراس» الذي كانتا قد وصلتا إلى زاويته التي تلتقي بشارع عبد الكريم الخطابي. فأذعنت دليلة، وابتعدتا بذلك نسبياً عن الأعين. لأن النهج تقل فيه المارة. وقررت نصيرة أن تسألها في صميم الموضوع الذي أحست أنها تتألم منه:

ـ هل تخاصمت مع كريمو؟

نظرت إليها دليلة لحظات بابتسام نظرات لا تخلو من حنان وهما تمشيان الهوينا وقالت:

أبو عبدو البغل
https://facebook.com/groups/abuab/

ـ لم نتخاصم.

وحاولت أن تقرأ على نصف وجه نصيرة الموالي إليها ما تحدثه كلماتها، فلم تر شيئاً يرتسم عليه أصلاً. وأضافت:

ـ ولكننا افترقنا. . . افترقنا إلى الأبد!

فبدا الانطلاق على محيا نصيرة. وقالت دليلة في نفسها تخاطب رفيقتها:

«عرفت أن هذه الكلمة تريحك»! ثم صرحت:

ـ أرأيت؟ إننا سواء. . . ما أراحني أراحك. وهذا هو المهم. القاسم المشترك بيننا نحن النساء أننا عندما نتخلص من الرجال نشعر بالتوادّ والارتياح! أليس كذلك؟

طأطأت نصيرة رأسها ولم تجب بكلمة. وسارتا في صمت جزءاً من النهج الذي كاد يعود بهما إلى الوراء ثم سألت نصيرة دليلة:

ـ إلى أين نذهب؟

ـ لست أدري.

ـ أليس لك درس هذه العشية؟

ـ لي درس في الرابعة ولكن لا أذهب إليه.

ـ وأين تريدين أن نذهب؟

ـ أنت اليوم بلا سيارة؟

ـ سيارتي بموقف التافورة.

ـ اذن نذهب إلى السيارة، وهناك نرى ماذا نفعل!

ـ كما تشائين.

عادتا إلى الصمت من جديد، وكانتا قد وصلتا إلى نهاية نهج شاراس المتصل في أسفله بشارع العقيد عميروش. فرجعتا معه في اتجاه موقف التافورة الذي يقع في أسفل البريد المركزي، إلى جانب حديقة صوفيا.

ثم خطر لدليلة أن تسأل زميلتها:

ـ ومن قال لك إني كنت مع كريمو؟

ـ قال لي محمد الخامس! (الشارع)

ـ هل محمد الخامس يتكلم؟

ـ محمد الخامس لا يؤدي إلا إليه!

ـ شارع كامل لا يؤدي إلا إليه؟ وأنت، ماذا كنت تفعلين في أسفل الشارع؟ بصدد التفكير في الذهاب إليه؟

ـ أنا أفكر في الذهاب إليه؟ إذن أنت...

ـ ماذا أنا؟

ـ إذن أنت تتصورين أن علاقتي به وصلت إلى ما بعد الجلوس؟

أضحك التعبير دليلة، وارتسمت أمامها على بلاط الرصيف صورة عمر الشريف في دور شي غيفاره... وتعجبت من ورود الصورة على ذهنها وهي لا تفكر فيها! وراحت تبحث عن العلاقة التي أدت إلى بروز الصورة. وانتهت بمعرفتها: «كلمة ما بعد الجلوس» التي تلفظت بها نصيرة. لقد رأت هذه الصورة لأول مرة في حالة ما بعد الجلوس...

وقالت مازحة:

- إذن لم تعرفي عمر الشريف؟
- الممثل المصري؟
- نعم.
- لم أفهم ما تعنين؟
- ألم تري عمر الشريف لدى كريمو؟
- هل جاء إلى هناك؟
- هو صديقه!
- لا علم لي بهذا!
- صديقه في التمثيل!
- أنت تمزحين.
- لا أمزح. لو وصلت إلى ما بعد. . .

ولم تتم الجملة. فألحت عليها نصيرة أن تتكلم:

- قولي ما شئت. هذا الشارع يقل فيه الفضول والتهور.
- أتظنين؟ انظري إلى هذا الذي مرة يتقدمنا ومرة يتأخر!

وبالفعل، كان في تلك اللحظة شخص متقدم في السن، يحاول مغازلتها، لكن ظروف المرور في الرصيف لم تسمح له بأداء دوره كاملاً. فراح يتسكع في منظر مزرٍ بالنسبة لسنّه.

- صحيح! لم أره، ماذا يريد هذا الغبي؟
- يريد أن أصفعه!

خافت نصيرة من إقدام دليلة على تنفيذ ما قالت، وتوسلت

إليها بإلحاح:

ـ أرجوك، أرجوك... أقسم لك، لا تفعلي. دعي الكلب يلهث أتريدين أن يجتمع علينا المارة، والشرطة؟ انظري، ذاك مركز الشرطة.

لم يكن يخطر ببال دليلة صفع الرجل. وإنما هي كلمة قالتها. ولكنها ما إن سمعت نصيرة تحذرها حتى راقتها الفكرة: «ماذا لو صفعته؟ أنه يقينا لا يستطيع إنقاذ نفسه مني!».

حقيقة أن دليلة قادرة على ذلك. فهي رياضية ممتازة في المصارعة اليابانية. لكنها عدلت لحينها عن الفكرة الطائشة، وقالت لنصيرة:

ـ لا تخافي، لن أصفعه.

ـ لقد خشيت فعلاً... علامَ كنا نتكلم؟

فكرت دليلة هنيهة ثم قالت:

ـ على عمر الشريف... سألتك إذا رأيته أم لا؟ قلت لم تريه أليس كذلك؟

ـ لم أره أقسم لك. ولم أعلم أبداً بمجيئه.

ـ إنه دائماً هناك.

ـ أؤكد لك، أنه هناك. ولو وصلت إلى ما بعد الجلوس مع كريمو لكنت شاهدته ولو مرة. إنه هناك يمثل دور شي غيفاره!

ـ فهمت، تعنين أن كريمو يملك الفيلم الذي مثّل فيه عمر الشريف دور شي غيفاره...

ـ ليس فيلماً. إنه معلق بالحائط.

ـ تقصدين صورته وهو في دور شي غيفاره؟ وماذا في ذلك من غرابة؟ أليس عمر الشريف ممثلاً؟

ـ وكيف لا!

ـ وإذن، يمثل دور شي غيفاره أو دور هتلر، ما الفرق؟

ـ لست أدري، لكن تلك الصورة تسخطني.

ـ ولماذا تسخطك صورة؟

ـ للزيف الذي تمثّله.

كانت نصيرة في حديثها مع دليلة تنتقل من دهشة إلى أخرى. وأخذت تكتشف هذه الشخصية الغريبة الجذابة في الوقت نفسه. وقالت لها:

ـ أتعرفين، إنني بدأت أشعر بالغبطة لهذا اللقاء!

ـ وقد كنت منذ حين متضايقة!

ـ صحيح، خشية أن تؤدي بنا جرأتك إلى ما لا يليق.

ـ ماذا يغبطك في لقائنا؟

ـ اكتشاف جانب من شخصيتك!

لم تجب دليلة بشيء. راحت تستمع إلى وقع خطاهما فلم تجده منسجماً فعدلت من مشيها حتى انسجم وقع خطاها مع وقع نصيرة، وصارا صوتاً واحداً. وكأن امساكها عن الحديث دفع نصيرة إليه! فقالت تحكي مغامرتها مع كريمو:

ـ أنا لم تربطني بكريمو صداقة. تعارفنا كما يتعارف كل

الطلبة، ولما اكتشفت حقيقته تركته. اننا لا ننتمي إلى طبقة واحدة.

ـ تتحدثين عن الطبقة!

ـ ولم لا؟ هل تعتقدين إمكانية مصادقة شخص أنت عدوه طبقياً؟ أنا لا أرى ذلك.

ـ وكيف كان تعارفكما؟ ألم تذهبي إلى شقته بشارع محمد الخامس؟

ـ ذهبت، ولكن لا كما تتصورين! لما تعارفنا، دعاني ذات يوم إلى تناول الشاي في بيته. فقبلت الدعوة، وكنت أظنه دعاني إلى عند أهله. اتفقنا على الموعد: كان عشية سبت، لم تكن لنا دروس. وظننت أن زيارتي له بين أهله وذويه لا تثير تعليقاً ولا وشوشة... طالبة تزور أحد زملائها... هل هناك أكثر بساطة من هذا؟

ـ ظننت أهله يسكنون بشارع محمد الخامس!

ـ نعم أعرف أنا أباه من كبار الأثرياء، ولكني قلت: أنهج الجزائر لا تؤمن... تقدم لك أحياناً مظهراً متواضعاً وهي تخفي بين ثناياها قصوراً! ذهبت إذن. وقلت بما أني أزور هذه العائلة لأول مرة فمن اللائق أن أخذ معي بعض الورود...

ـ حملت له النوار!

ـ حملت له النوار وذهبت. ضغطت على الجرس الكهربائي ففتحت لي الباب عجوز لها ناب من ذهب، تحاول بكل الطرق

إظهاره. سألتها: هذه دار سي كريمو أليس كذلك؟ وكان مدخل البيت أثار في نفسي بعض الحيرة وقلت لعلني غلطت في الدار. فقالت ضاحكة: نعم، هذه دار سي كريمو بن عبد الجليل. تفضلي. وأفسحت لي الطريق ويدها تشير إلى الغرفة، أعطيت لها النوار، ودخلت وبقيت واقفة فأشارت إليّ بالجلوس. فانحنيت على أحد المقاعد فدعتني إلى الجلوس على كنبه. لم يكن في هذه الغرفة أثاث كبير. فبالإضافة إلى الكنبة التي يبدو لي أنها تستعمل أيضاً سريراً، هناك مقعدان وثيران، على الجهة اليمنى خزانة كتب. . .

ـ وهي أيضاً مشرب للخمور. . . . عند كريمو كل شيء ذو وجهين!

وواصلت نصيرة تصف الغرفة:

ـ أما على الجهة اليسرى فقد نصب جهاز ستيريو: راديو، ايليكترفون، كاسيت. ومجموعة من الاسطوانات وتساجيل الكاسيت التي كانت موضوعة في أدراج أثاث خشبي صنع لذلك. لاحظت من بين الاسطوانات غلاف اسطوانة عليها صورة جيلبيريكو. في إحدى زوايا الغرفة وضعت خزانة صغيرة عليها زهرية من خزف صيني، أو ياباني لست أدري. جلست لحظات وحدي. وأخذت أشغل وقتي بقراءة عنوان الأغنية المكتوبة على غلاف اسطوانة بيكو. . .

ـ «الوحدة لا وجود لها» أليس كذلك؟

ـ هـو ذاك. وظننت أن أحـداً من أهله آت إلي. . أمـه أو إحدى أخواته. وفي الواقع لم يكن شكل البيت يـريحني ويشعرني بـأني في دار أسرة. . . فكـل من الغـرفـة التي أدخلت إليهـا والأثـاث، والعاملة وابتسـامها الغـامض، ولا سيـما وهي تقبض الزهور مني، والصمت المطبق تضافرت على جعـلي أحس بأني في بيت غريب! وتساءلت:

«لمـاذا تـركـوني وحـدي؟ هـل أنـا في عيـادة طبيب أو مكتب محـامٍ؟» لكن لم أتـوصـل إلى الحقيقـة. . . ثم تبينت الأمـر من بعد، عندما أقبل عليّ وهو يفتعل الاعتذار، وقال:

فقاطعتها دليلة:

ـ قال لك كان بصدد نقل محاضرة، أليس كذلك؟

ـ هكذا قال لي ولم أصدقه. قولي، إنك تعرفين دقـائق سلوكه وتعامله مع زواره!

ـ وكيف لا، وأنا وصلت إلى مستوى «المحظية» لديه!

ـ أقبل مبتسماً، معتـذراً، سائـلاً إياي إذا لم أضجـر من هذا الانتظار غير المقصود. وانحنى جالساً وهو يقـول: «هل وجـدت بسهـولة أين تقفـين؟ ان يوم السبت يسهـل الـوقـوف فيـه بهـذا الشارع وخاصة بعد الظهر، لأن السكان يخرجون من المدينـة». جلس على المقعد المقابل، وآخذني على الاتيان بالزهور. ثم قـام واتجه إلى الجهاز الموسيقي ووضع اسطوانة بيكـو: «. . .» وعاد نحوي وهو يقول: «لعلك لا تحبين بيكـو؟» فقلت له وأنـا أشعر

بالحيرة ولم أدر هل أبقى أم أغادر الغرفة: «جيلبير بيكو أو غيره لا يهم». وقررت أن أسأله بعدما تأكدت أني في شقة عزوبة: «كريمو، هل نحن في دار أهلك أم؟» ضحك عالياً وقال: «لا، لا... أهلي يسكنون هنا! غير معقول، غير معقول»... «ـ هل تسكن وحدك؟»، «ـ لا، أسكن مع أهلي طبعاً. هذه شقّة خاصّة بالأصدقاء. أتظنينني متهوراً أفضحك من أول تعارف؟ لا، أبداً. هنا لا يعلم أحد أنك معي إلا العاملة العجوز فاطمة التي فتحت لك، وهي لا تتكلم أبداً».

فقالت لها دليلة:

ـ اسمها عويشة ليس فاطمة. ولكنه يدعوها «فاطمة» على طريقة المستعمرين في الماضي.

ـ قال لي ذلك ذات مرة عندما سألته متعجبة: «لماذا تناديها فاطمة واسمها عويشة؟» فأجابني: لو ناديتها باسمها لاغترّت وتحولت بسرعة إلى خالة أو أم... أما وأنا أناديها بغير اسمها فلا تنسى أنها خادم عندي ولو بقيت مدى الحياة!

وواصلت نصيرة حكايتها:

ـ ... قلت له: لماذا تفضحني؟ هل زيارتك في دار أهلك فضيحة؟ الفضيحة أن أكون معك هنا!» فقال بابتسام: «ـ عائلتنا محافظة... لا أبي ولا أمي يقبلان أن تزوروني صديقة إلى الدار. أما هنا فنحن أحرار... نحن من جيل، وأهلي من جيل..: وأهلك أيضاً... أليس كذلك؟» فلم أجبه. وبدا لي

أن أتلبث حتى أرى ماذا يريد أن يفعل. لعله سليم النية؟ قام إلى الخزانة - الخمارة، وقال لي وهو يدير واجهة الكتب إلى الحائط ليبرز مكانها مشرباً معبأ بأنواع الخمور حسبما يظهر من أشكال الزجاجات المختلفة: «- ويسكي بالثلج أو بصودة؟ أو مشروب لذيذ... «مارتني» مثلاً بقطعة ثلج وأخرى ليمون!» فأجبته بما أمكن أن تعبر عنه لهجتي من برودة: «لا هذا ولا ذاك!» وكنت أشعر أني ارتكبت خطأً فادحاً. ولكني قرّرت مواصلة التمثيلية بالرغم من قلقي وحيرتي. ونادى: «- فاطمة! فاطمة! أعدّي شاياً أحمر بالليمون». وقال لي: «- الشاي بالليمون في الحرّ لا أحسن منه». ثم كالمتعجب: «- لكن... كيف لا تشربين الخمر؟ ان حالك غريبة! فتاة مثقفة مثلك لا تشرب؟» فقلت له: «- هل تعاطي الخمر عنوان على التطور؟». «- في مجتمع محافظ كمجتمعنا لا بد من سلوك جريء، للفتى والفتاة معاً...».

كانت نصيرة تحكي ودليلة تخمّن ما ستقوله لها مسبقاً، لشد ما تتشابه الحكايتان، مع اختلاف ضئيل في الجزئيات... فهي كانت تشرب الخمر قبل التعرف عليه...

ووصلت الفتاتان إلى موقف نافورة، واتجهتا إلى أسفل الموقف حيث تركت نصيرة سيارتها. كانت من نوع «الاوستين». صغيرة الحجم جداً يشيع استعمال أمثالها بأوروبا بكثرة، وخاصة من طرف النساء. فتحت الباب فركبت دليلة ثم ركبت هي. فلاحظت دليلة:

- من العادة السيارات الإنكليزية مقودها على اليمين.

ـ هذه من السيارات التي صنعت للتصدير. إلى أين نذهب؟
ـ أتمّي لي الحكاية أولاً.
ـ نمشي ونحكي، أليس ذلك أفضل؟
ـ أفضل سماع بقية القصة بلا انشغال خارجي.
ـ لماذا؟
ـ لست أدري.

وفعلاً كانت تود أن تسمع بقية القصة بكل تفاصيلها، كما لو أنها تعيشها هي من جديد. أو لعلها وجدت فيها بعض العزاء عما وقع لها. وواصلت نصيرة:

«ثم أقبل نحوي ودعاني إلى التعرف على غرف الشقة. بدأ بالمطبخ، حيث كانت «فاطمة» بصدد اعداد الشاي. لم يكن يشتمل على تجهيزات كبيرة: موقد ذو مشعلين. ثلاجة، خزانة حائطية بها مجموعة من الصحون والفناجين وأكواب الشاي...

ـ ولماذا تريدين أن يكون مطبخ شقة عزوبة مجهزاً؟ هو لا يأكل هناك إلا لماماً.

ـ ثم أراني بيت الحمام الذي كان نظيفاً. وانتقل بي إلى غرفة بها سريران فرديان من النوع العادي. بالحائط أعلاهما علقت صورة زيتية تمثل فتاة عارية تقريباً، جالسة على مقعد. وفتى بجناحين عارٍ يقبلها على جبينها...

فقاطعتها دليلة متممة التفاصيل المتعلقة بالصورة:

ـ يد الفتى اليسرى موضوعة برفق على أعلى نهدها الأيمن،

واليسرى وراء عنقها بدون أن تمسه!

فاندهشت نصيرة من التفاصيل التي أعطتها دليلة وقالت لها:

ـ أتتذكرين إلى هذا الحد كل هذه التفاصيل؟ أنا لم أكن أبداً أستطيع أن أتذكر أكثر من صورة لفتاة وفتى عاريين. وإذا أضفت تفصيلاً آخر يكون على أبعد تقدير: تقبيل الفتى للفتاة!

ـ تلك الصورة رأيتها عشرات المرات. لا أعرف الرسم ولا أنا من هواته ولكن تلك الصورة لشدة ما أثارت فضولي سألت عنها من لهم خبرة بفن الرسم فأفهموني بأنها من غير شك، ليست أصلية وإنما منقولة.

ـ ولكنها زيتية، وتبدو قديمة!

ـ ولو. هي لرسام يدعى فرانسوا بارون جيرار، من مواليد ايطاليا بالقرن الثامن عشر. والصورة تمثل أسطورة يونانية عن الفتاة الحسناء بسيشي (Psyché) وهي تتلقى لأول مرة قبلة الحب!

ـ برافو! إذن، وضعها هناك ليغري الفتيات بقبلته الأولى لهن.

ـ ألم يقبلك هناك؟

ـ لا. ثم انتقلنا إلى غرفة أخرى، قال لي عنها انها الاستوديو حيث يعرض مع بعض أصدقائه أحياناً بعض الأفلام التي يحصل على نقل نسخة منها أو يستعيرها. كما أن بهذا الاستديو مخبراً لتحميض الصور.

ـ لتحميض الصور «البورنوغرافية» على الخصوص! ألم يعرض عليك مجموعته البورنوغرافية؟ ان له مجموعة قلما توجد في مكان آخر.

ـ هل هو مغرم بهذه الهواية؟

ـ هي هوايته المفضّلة!

ـ ثم دعاني لمشاهدة فيلم قصير، فاعتذرت. فألح علي بحيث لم أتمكن من الرفض. جلست فأطفأ النور وأدار جهاز العرض وجاء إلى جانبي وجلس وإذا بي أرى مشاهد بورنوغرافية مركبة تركيباً، كما لو أنها أخذت من عدة أفلام، أو هي من القطع التي تحذفها الرقابة... أخجلتني من نفسي! فهمت بالقيام وإذا بذراعه تمتد فوق كتفي، ويميل علي ليقبلني... قمت مغضبة في انفعال شديد، ونسيت حتى من أين دخلت، فارتطمت بالحائط! خرجت كالمجنونة لا ألوي على شيء. كنت أحس أن روحي تكاد تمزق جسمي سخطاً وغضباً. لقد ظنني ولدت تحت جسر!

ـ هل اللواتي يولدن تحت الجسور يختلف سلوكهن عن سلوكنا؟

ـ هكذا فكرت حينئذ... سمي ذلك بأنه من آثار التربية المحافظة أو بما تشائين.

وبينما هما كذلك إذا بسيارة سوداء تصل إلى مكان في آخر خط بالموقف، وتقف. بها رجل وامرأة. ما إن وقفت السيارة قليلاً حتى مال الرجل على المرأة يقبلها في لهفة وشوق. وأحست دليلة

كأن شيئاً ما يثيرها... إنها تعرف هذه السيارة! وراحت تقرأ الرقم... تعرفها يقيناً: انها سيارة أخيها الأكبر، عمر، المدير... حاولت أن ترى الرجل، لكنها لم تتمكن. يبدو من الوراء كأخيها، لكن الجزم بذلك مائة بالمائة يستحيل. لكن كيف يأتي أخوها مع امرأة أجنبية وإلى هذا المكان؟ هي لم تر من قبل هذه المرأة أبداً. لعل شخصاً آخر مع المرأة في سيارة أخيها استعار السيارة لكيلا يعرف... لكن أخاها ليس ممن يعيرون سياراتهم! وأرادت أن تتأكد من الأمر ولو كلفها ذلك التقاؤها بأخيها وجهاً لوجه! وقالت لنصيرة:

ـ قولي، هل تستطيعين أن تذهبي إلى آخر خط كالباحثة عن مكان لتقفي به، ثم ننصرف؟

ـ ولماذا؟

ـ أردت أن أتحقق من شيء... رأيت رجلاً يشبه أحد أساتذتي.

ـ ولماذا تريدين التحقق منه؟ انه في وضع لا يليق بك أن تفاجئيه.

ـ لن يراني. انما أردت أن أتحقق ليس إلا... سأحكي لك من بعد لماذا...

ـ سيارة البوجو السوداء، لا؟

ـ 504، تلك التي وصلت الآن.

نظرت نصيرة فرأت الرجل غارقاً في إشباعه نهمه من المرأة التي لا يبدو عليها مشاركته حماسه الغرامي! فقالت:

إنه غارق إلى أذنيه!

ـ حاولي أن لا تثيري انتباهه.

ـ لن ينتبه، وأنا لا يعرفني على كل حال. غطّي وجهك إذا خشيت أن يراك.

ـ سأفعل.

مرت سيارة الفتاتين بالقرب من سيارة البوجو السوداء... إنه أخوها يقيناً! أخوها الأكبر المتزوج! أخوها الذي يأتي في الترتيب العائلي بعد أبيها... وقالت لنصيرة:

ـ اسرعي، اخرجي بما استطعت من سرعة!

ـ عرفته؟ هو أستاذك؟

ـ اخرجي، لا تسأليني عن شيء الآن.

ضغطت نصيرة على الدفّاع فأقلعت السيارة كالرصاصة.

أظلمت الدنيا في عيني دليلة. وأحست كأن شيئاً بدأ يتقوض في شخصيتها! إذن. ما تحيا فيه كله زيف، كله ضلال! كله سراب!

كانت السيارة تتجه غرباً نحو ساحة الشهداء، سالكة شارع الاستقلال، وكانت دليلة ترى البنايات المحاذية للشارع على الجهة اليسرى تساقط الواحدة تلو الأخرى نحو البحر.

وودّت لو أن السيارة تحولت إلى صاروخ، وشقت الفضاء، وانطلقت بعيداً بعيداً، حيث لا كريمو ولا عمر ولا بشر، حيث لا زيف ولا حيف! لقد شعرت بالاختناق، وبمزيج من المرارة

والحسرة. كل ما قيل لها أو سمعته عن الدين والأخلاق والأسرة والناس بدأ يأخذ أشكالاً أخرى في نفسها لم تتصورها من قبل. لو كان أخوها رضا الذي يكبرها بست سنوات والذي ما زال أعزب هو الذي شاهدته متلبساً بهذا الجرم لهان الأمر. وتساءلت في نفسها: ترى لو كان في هذه السيارة بدله شخص آخر مع امرأته، ماذا سيكون الموقف؟ لكنت بصقت عليها أمام الملأ، ولسحبت من معها على وجهه في الساحة! لماذا أخي المحترم أحب هذه المرأة الرخيصة التي قبلت أن تأتي معه إلى هذا المكان القذر؟ لماذا تزوج اذن؟ لماذا جاء بها إلى هنا، حيث الأنظار تحزره بكل ما تملك من احتقار؟ لماذا لم يذهب بعيداً حيث لا يراه أحد؟ هذا في الأسرة أعرفنا وولّينا بعد أبينا لو كنا في حاجة إلى وليّ! معارفه ليست في خلاياه، إنها في جيبه، . . . إنه تافه، حقير. . . حقير.

وابتسمت ساخرة من نفسها في حديثها النفسي: أنا خائفة، غضبى، شعرت بالإجرام لأني أحمل في بطني جنيناً لم أنكر لحظة لذتي في حمله! لو قبل كريمو لأصبحت أشرف امرأة لدى أهلي. . .

وتراءى لها أهلها فرداً فرداً، عراة بالعراء! ثم رأت كل من تعرفهم عراة يغطون عوراتهم بأيديهم! ثم رأت الناس جميعاً عراة ولكن لا يمشون على أرجلهم وإنما البعض منهم يمشون على رؤوسهم، والبعض يحملون رؤوسهم تحت آباطهم! وسألت نصيرة من غير أن تشعر:

ـ لماذا يحمل الناس رؤوسهم تحت آباطهم؟

فتعجبت نصيرة من سؤالها وسألتها:

ـ ماذا تعنين؟ لم أفهم سؤالك!

ـ مع أنه واضح . . . قلت لك لماذا يحمل الناس رؤوسهم تحت آباطهم؟

فكرت نصيرة لحظات قبل أن تجيب، ثم قالت تجاري رفيقتها في حديثها التجريدي:

ـ ربما لأن أجسامهم تعبت من حملها!

ـ ممكن. أو ربما لأنهم يستحون أن يروا أنفسهم وهم عراة وسخون؟

ـ لا أظن أن الوسخ يستحي من نفسه. إذا استحى فيستحي من غيره!

ـ صحيح. مجتمعنا قذر، أليس كذلك؟

ـ لا، بعض الطبقات فيه قذرة!

ـ ربما.

وأحست نصيرة أن دليلة في حزن ممض لم تلاحظه عليها من قبل بهذه الدرجة. فسألتها:

ـ ماذا بك؟ هل أستاذك هو الذي جعل نفسك تظلم بهذه الدرجة؟

ـ ليس أستاذي، إنما ما قاله لي منذ بدأت أعرف الحروف الهجائية للحياة! لكن لا تخافي علي. لست سهلة العطب!

ـ وصلنا إلى ساحة الشهداء، إلى أين تريدين أن نذهب؟
ـ بودي أن أذهب إلى مكان لا أرى فيه أحداً.
ـ وأين هو هذا المكان؟
ـ لست أدري، في كوكب بعيد، أو مقبرة!
ـ المكان الذي ليس فيه أحد، قديكون هو الجنة!

ابتسمت دليلة من غير أن تشعر، لما أثارت في نفسها هذه الكلمة من صور. وقالت سائلة:

ـ وهذه المساجد إذن التي تمتلىء بها الدنيا، لماذا بنيت؟

ـ لماذا؟ هل تعتقدين أن المساجد محطات قطر، أو مطارات للجنة؟

لما وصلت السيارة إلى الدوار قفلت نصيرة راجعة دون أن تستشير دليلة التي أجابت قائلة:

ـ أنا أفضل أن تكون المساجد مطارات على أن تكون محطات قطر!

ـ ولكن صواريخها ثابتة أبداً كما قال أحد الكتاب...

ولاحظت دليلة السيارة عائدة من حيث أتت فسألت نصيرة:

ـ إلى أين أنت ذاهبة؟
ـ سألتك منذ برهة إلى أين نذهب فلم تردي علي.
ـ لا أريد أن أعود إلى المدينة.
ـ إلى أي مكان تريدين أن نذهب؟
ـ لست أدري. اذهبي إلى أي مكان، باستثناء المدينة.

ـ لي اقتراح، نذهب معاً إلى دارنا. هناك لا يزعجك أحد. ومن شرفة غرفتي نرى الجزائر كلها... نراها في عظمتها وفي تفاهتها أيضاً!

ـ الجزائر ليست تافهة إنما سكانها هم التافهون!

ـ أصحّح لك كلامك لثاني مرة: ليس كل السكان، بعض السكان تافهون! الشعوب ليست تافهة!

ـ أرى أنك تحبين الدقة، وأنت خريجة كلية الآداب!

ـ لم تردي عليّ... أنذهب إلى دارنا أم لا؟

ـ نذهب لكن بشرطين: أولاً ليس الآن، ما زال لدينا متسع من الوقت وأفضل إذا لم تري مانعاً، أن نذهب إلى شاطىء من الشواطىء، وفي نهاية العشية نمر بدارنا لإخبار أمي وأخذ بعض الثياب.

ـ والشرط الثاني؟

ـ أن لا يكون في ذهابي معك أي كلفة.

ـ أي كلفة؟ أتعتقدين أننا نذبح لك كبشاً؟ كوني مطمئنة، لن يكون ذلك ولا ما يشابهه!

ـ طيب، اتفقنا.

ـ إذن نذهب، إن شئت إلى نادي الصنوبر، هو المكان الهادىء في هذا الوقت.

ـ خسارة، لو كان معي تبّان لاستحممت!

ـ مرة أخرى إذا شئت نأتي، الآن رواد البحر قليلون ما عدا بعض المتعاونين.

عادت السيارة من جديد إلى الاتجاه الأول الغربي قاصدة نادي الصنوبر. وقالت لها دليلة وقد مرت بذهنها بعض الأحداث القريبة التي عاشتها:

ـ خسارة لم أعرفك بهذه الصورة قبل اليوم... لكنت الآن امرأة أخرى...

ـ لماذا امرأة أخرى؟ لكنت أنت كما أنت! أنا أيضاً اكتشفتك، وإني مسرورة بهذا الاكتشاف.

ـ صحيح؟

ـ صحيح. ولعل الأيام تقرّب بيننا أكثر، من يدري؟

ـ ربما.

وراحت كل منهما تتابع الطريق بسرعة السيارة التي كانت تخترق الشوارع اختراقاً، لا تعطلها حركة المرور المتزايدة ولا مآزق الشوارع الملتوية!

* * *

أخذت الشمس تحمرّ وهي منحدرة إلى الغروب كما تبدو من رمال نادي الصنوبر حيث قضت دليلة ونصيرة فترة من الوقت أراحتهما من هرج المدينة وضوضائها. لم يكن بهذا الشاطىء الفسيح الجميل إلا بعض المتعاونين الأوروبيين الذين يحسنون الاستمتاع بالطبيعة، بالرغم من حرارة الطقس، ولا سيما في وسط النهار. ولم يجر بين الفتاتين حديث ذو بال. كانت كل منهما تستمتع بما يمنحه هذا المكان الهادىء من راحة ومناظر وديعة.

لكن دليلة كانت تخطط ولو على الرمال لمستقبل آخر لا تتصوره، بيد أنه بالنسبة إليها يشكل مصيرها المحتوم. فليس لها من سبيل إلى الاستمرار في حياتها السابقة. هذه السنة هي الأخيرة في الدراسة.

السنة لا تنتهي وهي بنت حرّة تبحث عن المزيد من المغامرات كما كانت في السابق بل تنتهي عليها وهي أم لمولود لا يعرف أباه، ولن يعرفه، كما قررت! وتنتهي كذلك وهي تتحمل حياتها ومصيرها وحيدة، لا سند لها إلا نفسها.

كانت في هذه الأفكار عندما نبهتها نصيرة إلى باخرة تتجه نحو الشمال تبدو في أقصى الأفق كأنها واقفة:

ألا تتمنين لو كنت على ظهرها؟

ـ لا أدري، لم أفكر فيها. فوق ظهرها أو هنا ما الفرق؟ الإنسان وحيد أينما كان...

ـ رافقتك الأفكار السوداء حتى إلى هنا؟

ـ لم ترافقني، هي تحيا في ذرات وجودي!

ـ ألا تريدين أن نعود؟ إن الطقس أخذ يبرد، ثم حركة المرور...

ـ كما تشائين. لنعد.

وقامت تنفض ما علق بها من رمال، وكذلك نصيرة، واتجهتا إلى السيارة. وسألت نصيرة زميلتها:

ـ نسلك أي طريق؟ البحري؟ أم البري؟

ـ أنت التي تسوقين وتعرفين أحسن مني الطريق اللائق.

ـ أظن أن الطريق البري أحسن. من جهة حركة المرور. نمر بالشراقة، الأبيار، المرادية، ثم نتجه إلى سكناك، أم نسلك طريق حيدرة وبير مندرايس والقبة... ماذا تفضلين؟

ـ أنت صاحبة الأمر. على أني أعتقد أن طريق حيدرة أقل حركة في هذا الوقت من الأبيار والمرادية.

ـ نسلك طريق حيدرة... أنت تسكنين في حي «البحر والشمس» أليس كذلك؟

ـ ليس تماماً هناك. أنا في حي الواحات، في أعلى حسين داي.

ـ زي بعضه، كما يقول المصريون!

انطلقت السيارة بالفتاتين كالسهم لكن في اللحظة نفسها ضغطت نصيرة على الفرامل لأنها تذكرت العراقيل الأرضية التي أوشكت أن ترتطم بأحدها والتي جعلت في طرقات نادي الصنوبر للتخفيف من السرعة. فسألتها دليلة:

ـ لماذا أسرعت، ولماذا تتمهلين؟

ـ لأني لا أريد أن أغادر المكان دون أن آخذ في ذاكرتي صوراً لهذه الفيلات الضخمة التي بنيت للمحظوظين!.

ـ لست أدري إن كانوا محظوظين؟

ـ ولم لا؟

لم تجب دليلة، وأخذت سرعة السيارة تزداد بقدر ما كانت

تبتعـد عن العراقيـل وعن نادي الصنـوبر. ومـا هي إلا لحظات حتى وصلتـا إلى مزرعـة بوشـاوي التي كانت في عهـد الاستعـمار مزرعة لأكبر المعمرين: بورجو، فقالت نصيرة:

ـ لم يأخذ الشهيد بوشاوي من خيرات المزرعة إلا الاسم!

ـ تلك هي الحياة، كقول الشاعر: بعض يصيد وبعض يأكـل السمك!

ـ تعرفين الشعر! متى التقت الحقوق بالشعر؟

ـ هذا شعر أبي. . . الذي ينشده علينا أو يتمثل به!

ـ جميل!

ـ أبي أنت لا تعرفينه، تسمعين به فقط. . . هـو رجل أضـاع زمانه وبقي بلا زمان! كلما رأى شخصـاً وأعجبه حـاول تقليده، أو التقرب إليه!

ـ انـك تدهشينني أكـثر فأكـثر! وأظن أن طريقينـا ينتهيان إلى نقطة واحدة!

ـ لست أدري.

ـ أنظري ذاك الذي اجتازنا منذ لحظات، كيف أريه أن يتعلم الأدب ويحتفظ بالمؤخرة!

ضحكت دليلة من التعبير الذي لم تجده موفقاً في هذا المضـمار بالذات وقالت:

ـ ذاك ما يفتش عنه الرجال: المؤخرة!

ـ لكن ليس في الطريق. انظري. . .

وأعطت للأستين الحساسة كامل السرعة فانطلقت كـالرميـة، واجتـازت الرجـل الذي بـدت سرعـة سيـارتـه كسرعـة احـدى الشـاحنات! وسـاد الصمت بينهـما وأخـذت الأشجـار المحـاذيـة للطريق وحـدها تحييهـما بسرعة 130 كلم في السـاعـة! وبعـدهـا البنـايات ثم الأحيـاء، حتى وصلتا إلى الـواحـات في أقصر وقت عرفته دليلة منذ أن بدأت تركب السيارات!

* * *

وبالنهج الذي تقع به دار الشيخ علاوة، سألت دليلة زميلتهـا أن تـدخل معهـا، ريثما تـأخذ غـلالتها وتغـيّر بعض مـلابسهـا، فامتنعت وفضلت الانتظار بالسيارة. قالت:

ـ لـو دخلت لـدعيت إلى تنـاول قهـوة أو شــاي، ولـطال بي المقام، وأصبحت أنا المدعوة. . .

ـ كما تشائين. لن ألبث طويلاً.

دخلت دليلة إلى البيت وبقيت نصيرة تنتظرها.

لم يكن النهج جميلاً ولا رديئاً. كان بـين بين. وقـد كان ذات يوم جميلاً. . . تزدان كل فيلاته بحدائق أماميـة أو خلفية جميلة. حتى الفيـلات التي كانت مسـاحتها لا تتسـع لحديقـة، كان بهـا مكـان أو أمكنة لغـرس الأزهار. وكـانت دائماً تجـد العنايـة من سـاكنيها لتجـديدهـا حسب الفصول. فهي طـول السنة مـزدانة بجميـل الزهـر والحشائش النـادرة. أما بعـد السنـوات الأولى من الاستقلال فأخذت كل فيلا تتشكل بحـالة سـاكنيها. . . معـظم

السكان لم ينشأوا تنشئة حضارية، ولا لهم موارد مالية تسمح لهم بأن يولوا عناية لهذا المظهر الثانوي بالنسبة إليهم، وهو يتمثل في الجمال. وفي الواقع ما الفائدة في أن يجمل مدخل الفيلا أو يقبح إذا كان سلوك الفرد سلوكاً لاحضارياً؟ وكذلك صارت معظم الفيلات بلا حدائق، أو ببقايا حدائق. وبلا زهور ولا نباتات نادرة. وبلا مدخل تماماً. لقد بنيت أسوار عالية في معظم الفيلات لتحول بين النهج والنوافذ المطلة عليه، مبالغة في الاحتجاب فصارت الفيلات أحواشاً، ضاعف من قبحها تفنّن سكانها في انتقاء الألوان الفاتحة لدهنها. فإذا البيوت تصير مجموعة من الألوان المتنافرة المتسامتة! وضربت القضبان الحديدية على النوافذ، وأحياناً مدت من السور الخارجي إلى سقف البيت، بحيث صارت بعض البيوت سجوناً مصغرة لساكنيها، (ولكنها سجون اختيارية!) أو أقفاصاً كبرى ضربت حول النساء، كما لو كن حيوانات مفترسة!

كان نظر نصيرة يتنقل من دار إلى أخرى بهذا النهج، ولم تكن الدور كلها مثل ما كان يجري بنفسها. . . لقد كانت بعض البيوت تذكرها ببيوت أخرى في أنهج وأحياء أخرى جرى لها ما جرى لهذه.

وكانت دار الشيخ علاوة تظهر لها كعمارة صغيرة أكثر منها كفيلا. فالطبقتان اللتان أضيفتا إلى البناء الأصلي، حولتا شكلها تحويلاً كاملاً. وبدا النشاز واضحاً بين البناء الأرضي الذي تحيط به حديقة، وله مدخل كمدخل الفيلات، والجانب العلوي

الذي ترك الفيلا في الأرض ليتخذ شكل عمارة بدورين!

في الرصيف المقابل لنصيرة كانت مجموعة من الشبان يقمرون بينما راح واحد منهم يعزف على قيثارة صغيرة. في حين كان شابان أحدهما يمسك بزجاجة مغطاة بجريدة واضعاً فمها في فمه والآخر في حالة المنتظر المتلهف لتناولها بدوره! تظننت نصيرة أنها من غير شك زجاجة من البيرة لأنها رأت في أماكن أخرى هذه الطريقة في التعمية.

بالطريق كان الأطفال يتسابقون على صفائح من اللوح، مركبة على عجلات صغيرة من حديد تحدث في هبوطها ضجيجاً يصم الأسماع! أما البنات الصغيرات فكنّ يتسابقن في التطبيل على أوعية الزيت القزديرية الفارغة.

باختصار، كان النهج قد تجاوز الحياة العادية إلى درجة التلوث بالضجيج، شأن أغلب أنهج العاصمة واحيائها. وفي أسفل النهج كان لاعبو الكرة في تشاحن وتصادم أنساهم كلية المارّة وسائقي السيارات... طبعاً نصيرة لم تستغرب ذلك. فالمنظر عاديّ جداً وعامّ بشكل جعله جزءاً من حياة السكان اليومية،. لكن الشيء الذي لم تره نصيرة من قبل، والذي يعتبر بالنسبة إليها جديداً هو قذف المصابيح الكهربائية بمقاليع مطاطية من طرف الأطفال!

وتساءلت نصيرة في نفسها وهي ترى كل ذلك في نهج واحد وفي لحظة واحدة «كم ينبغي لنا من سنة لنتخلص من كل

هـذا». طبعاً لا يمكن أن تجيب هي ولا غـيرها عن هـذا السؤال لأنـه يعني هنا تـطور الانسـان من وضعيـة متخلفـة إلى مستـوى حضـاري معين. . . لقـد لاحظت مثـلاً مـع بعض زمـلائهـا في مصلحة الدراسات النقابيـة أن مستوى معيشـة الفرد في الجـزائر ارتفـع عشر مرات أكـثر مما كـان عليه إبـان الاستقلال سـواء في المـدن أو الأرياف بينـما لم يصاحب هـذا التطور المـادي تطـوّر في السلوك الحضـاري! بل يكـاد المـرء يعتقـد العكس: كلما ارتفـع مستوى المعيشة لـدى الفرد الجـزائري تـدهور سلوكـه! والحقيقة هي أن «ما كبت عاد إلى الظهور». . . على حد تعبير فرويـد. لم يؤد ارتفـاع مستوى المعيشـة إلى تدهـور السلوك، وإنمـا أدّى إلى اكتشاف ما كان غائباً عن الأنظار تحت أثقال الخصاصـة والحيـف بكل أنواعـه! كان النـاس موتى والميت لا سلوك لـه أصلاً. ولمـا أخذت الحياة تدب فيهم بدا سلوكهم وكأنه غير الذي كان!

لقد تراءى هذا النهج لنصيرة بأكـثر مما هـو عليه، لأنها تسكن بمكان يقع على طريق ضيق ملتو منحدر، لا يصلح للجلوس ولا للعب.

فلو جـاءت إلى هنا وهي تسكن كـما كانت من قبـل بيبيلكـور لتراءى لها نهجاً هادئاً جميلاً. ثم لأنها جاءت وقد خـرج الأطفال من المدارس وعاد العمال من أعمالهـم فمن الطبيعي إذن أن ترى ما ترى. . . فالشقق والفيلات لا تتسع لإيواء كـل أفراد سكـانها إيواء معقولاً. ذلك أن معظم السكان من النازحين إلى المدينة في

سنوات الاستقلال الأولى. فكانت الأسرة لا تشتمل على أكثر من ستة أو سبعة أنفار. واليوم تضاعفت مرتين!

إن دار الشيخ علاوة نفسها خير دليل على هذا الواقع. فهو عندما سكن هنا بأسرته كانت فيلا أرضية... ثم كبر الأبناء فأخذوا يستقلون بالغرف. فبنى الشيخ علاوة دوراً إضافياً ولو على حساب الذوق المعماري. ثم لما ولد لبعض أولاده بنى دوراً ثانياً وهو يفكر في بناء دور ثالث. لأنه يعتقد أن أبناءه لن يستقلوا عنه. فهو عندما يكون مزاجه في حالة مرح ويتحدث مع أصدقائه ومقربيه عن الحياة والأسرة والأبناء يقول ضاحكاً: إنه يعطي لأبنائه استقلالاً داخلياً. أما الخارجية والدفاع والمالية فيحتفظ بها لنفسه، وان عجز عن القيام بها كلها أشرك معه أكبر أبنائه!

وهكذا صار بيته بدورين، ولربما في المستقبل القريب أو البعيد سيصير بثلاثة أو أربعة أدوار ولم لا؟ الجزائر لا تنوي أن تبقى بلدة صغيرة لا شأن لها. تريد أن تعدّ الملايين، وملايين الملايين! ولادة الأولاد لا تكلف تعليماً ولا مهارة. من الجزائري الذي في حاجة إلى تلقي دروس من الغير في انتاجية الأولاد؟ صحيح هناك بلدان متقدمة في هذا المضمار وهي معروفة، ولكن الجزائر سوف تتحداها في مستقبل لن يطول كثيراً...

ثم إن هذا النهج لا يعمره ساكنوه فقط.. إنه ككل الأحياء الأخرى، تحرسه عمارات مجاورة، تضم بين طياتها مئات الشقق. أين يذهب أطفال هذه العمارات إذا لم يكن إلى الأنهج المجاورة؟

وخاصة الأنهج التي تقل فيها حركة السيارات مثل هذا النهج الذي أدهش نصيرة! إنه إذن نهج يلعب فيه سكانه من الأطفال ويلعب فيه أطفال العمارات المجاورة التي تظهر أدوار منها لنصيرة، شرفاتها جللت بمختلف الفرش والغسيل، بالرغم من الشمس التي غربت.

وتساءلت نصيرة في نفسها وهي ترى كل ذلك: «والسلطة، أين هي؟» نصيرة تعرف وضعية الجزائر الديموغرافية كسائر الناس، أو بالأقل أولئك الذين نالوا حظاً من الثقافة. ولكنها منذ أن سكنت بالمرادية، في هذا الممر الضيق الذي ينحدر منها إلى شارع الشهداء تعودت أن لا ترى بهذا القدر مناظر البشاعة! هي من شرفة غرفتها ترى المدينة أسفلها، وترى وراء المدينة البحر وترى وراء البحر أو في نهايته أفقاً جميلاً... كما تحدثت بذلك إلى دليلة! جزائرها هي عبارة عن صورة بانورامية من أبدع الصور. لا صورة جزئية متقطعة بالعمارات والشرفات المعبأة بالفرش والغسيل حتى وقت الغروب!

أما دليلة فانها لما دخلت إلى البيت وجدت رضا بالردهة واقفاً، بيده محفظة كالمتأهب للخروج. فسألته:

ـ إلى أين؟

ـ إلى ما لا يهمك!

ـ ألم تر نعيمة؟

ـ مع الجدة زبيدة (أخته الكبرى) يبدو عليك الاستعجال؟

ـ تركت نصيرة أمام الباب.

ـ نصيرة من؟

ـ نصيرة ـ صوناكوم.

ـ أهاه! إنك تطورت على ما يظهر!

ـ ولِمَ لا؟

ـ لماذا لم تدخليها؟

ـ (ساخرة) خشيت أن أجدك هنا!

انطلقت إلى غرفة زبيدة. كانت متحرقة للتعرف على ما إذا وصلت الرسالة أم لا؟ وجدت نعيمة بغرفة زبيدة تسرح شعرها، تتأهب هي أيضاً للخروج. ولم تكن زبيدة بالغرفة، كانت بالمطبخ مع منى زوجة أخيها... وسألتها:

ـ إلى أين؟

ـ إلى حيث لا تفكرين أبداً!

تشككت في أنها قد تكون ذاهبة إلى السينما مع رضا، لكن الوقت ليس وقت السينما. وسألتها مع ذلك تقول:

ـ أذاهبة إلى السينما؟

ـ سينما من نوع خاص!

ـ مع رضا؟

ـ مع رضا.

ـ قولي لي الحقيقة، إلى أين أنت ذاهبة؟... لكن لا يهمني هذا. هل جاءتني رسالة؟

ـ لا، لم تأت أي رسالة.

ـ أنت متأكدة؟
ـ قلت لك لمْ تأت أي رسالة، ألا يكفيك هذا؟
ـ كنت هنا عندما مرّ ساعي البريد؟
ـ كنت بالحمّام.
ـ ذهبت اليوم إلى الحمّام؟ مع من؟
ـ لماذا كل هذه الأسئلة؟

التفتت نعيمة تتفحص ابنة عمها لتتحقق ما إذا كانت تهزل أم تجدّ بأسئلتها. لاحظت على وجهها شحوباً غريباً وقلقاً بادياً في كل ملامحها. وسألتها بدورها:

ـ مالك مضطربة هكذا؟

ـ لست مضطربة. إنما أنتظر رسالة تهمّني. من كان هنا عندما مرّ ساعي البريد؟

ـ منى، على ما أظن.
ـ وحدها؟
ـ الظاهر... لكن لماذا كل هذه الأسئلة؟
ـ ألم تعطك أي رسالة؟
ـ أنت مريضة بهذه الرسالة! لو جاءتك رسالة لأعطيتها لك.
ـ لكنها تجيئني باسمك.
ـ أعرف. ليست هذه المرة الأولى...
ـ أين هي منى؟
ـ بالمطبخ مع زبيدة.

ذهبت دليلة إلى المطبخ مباشرة، فسألت مني عن البريد فأخبرتها هذه بأن الساعي لم يمرّ أو مرّ ولم يأت برسائل. فقالت لها زبيدة ساخرة:

- تدخلين هكذا لا سلام ولا كلام، تسألين عن البريد، وعن الأكل... أليس كثيراً هذا؟

فأجابتها دليلة بقسوة:

- لم يغلط رضا عندما كتب على باب غرفتك: كلبة واعرة!

فردت زبيدة بغضب:

- عليك وعليه اللعنة، أيتها الوقحة!

ولكن دليلة كانت قد خرجت وعادت إلى نعيمة توصيها على الرسائل وتسألها إلى أين هي ذاهبة:

- قولي، إلى أين تذهبين؟
- إلى اجتماع عن الميثاق.
- أنت!
- ولم لا؟ أأدهشك هذا؟
- مع رضا؟
- مع رضا. هل هناك مانع؟
- لو علم أبي لغضب عليك.
- لأني خرجت مع رضا.؟
- لأنك تحضرين اجتماعاً عن الميثاق وبالحي.
- ليغضب!

ـ أنصحك على كل حال. لا تخبري أمي بأنك ذاهبة إلى اجتماع، ولا مني. . .

ـ وأنت إلى أين أنت ذاهبة؟

ـ مع نصيرة. مع نصيرة ـ صوناكوم.

ـ عجيب! متى تصادقتما؟

ـ اليوم.

ـ لماذا لم تدخل؟

ـ لأننا على عجل. إلى اللقاء.

صعدت إلى غرفتها التي تتقاسمها مع أختها الصغرى هالة فوجدتها تستمع إلى بعض الأسطوانات، فقالت لها محذرة:

ـ إياك أن تفعلي ما فعلته المرة السابقة. . .

ـ ماذا فعلت المرة السابقة؟

ـ دوّرت الأسطوانة على 45 وهي 33 أنسيت؟

ـ غير صحيح. لست أنا التي أفسدتها. . . أنت!

ـ كيف أنا؟ تكذبين علي الآن!

ـ لأنك لم تتذكّري، كنت. . .

ـ ماذا كنت؟ (بقوة)

ـ كنت في القمر!

لم تجد دليلة إلا الابتسام أمامها كردّ فعل لتعبير أختها المفاجىء الذي تحاشت به أن تقول لها: كنت سكرى. . . وقالت:

ـ إذا حذّرتك فأعني المستقبل. فهمت؟

تسرولت ثم أخذت غلالة رقيقة فوضعتها في حقيبتها اليدوية، ولبست فستاناً أزرق بلا أكمام من «الجين» الرفيع. ثم وقفت أمام المرآة فسرحت شعرها ومسحت وجهها مسحاً خفيفاً ببوردة غطت ما علاه من شحوب. وأخذت قلم الكحل فأمرّته على جفنيها، ثم قلم الشفاه الغليظ الذي كان لونه وردياً ببياض فجرّته على شفتيها المغلقتين. وأخرجت لسانها الذي كان أسود مما دخنت من سقائر وشربت من ويسكي، فأمرّته على شفتيها تدهنهما بالمادة الصبغية التي تركها عليهما قلم الماكياج. أخذت بعد ذلك قطعة من قطن مسحت بها ما زاد على القدر من الماكياج ورمتها إلى الأرض. ثم أخذت زجاجة عطر بمرشّ فضغطت على المضخّة صوب رقبتها وخلف أذنيها ونظرت إلى مرآة الخزانة تسألها:

ـ ماذا ترين؟ الماكياج ليس كثيراً؟

فأجابتها هالة دون أن تنظر إليها:

ـ ليس ملائماً...

ـ ماذا ليس ملائماً؟ الماكياج؟ أم الألوان؟

ـ الكل!

ـ ومن سألك رأيك؟

ـ أنت...

ـ اسمعي عبد الحليم حافظ، ودعي الأمور الأخرى

لأهلها . . .

ـ لـو كنت مكـانــك لمـا استعملت ذاك الأحمـــر المبيض وأنـا بيضاء!

ـ لست مكاني!

ذهبت بعد ذلك إلى غرفة أمها فأخبرتها بـأنها تنام عنـد نصيرة ولم تدع لها الفرصة لتضع أسئلتها العادية. . . وخرجت!

* * *

- 6 -

هذا أول اجتماع تشارك فيه نعيمة حول الميثاق الوطني، في وسط غير طلابي. لقد أثارت المناقشات التي وقعت في كثير من جهات الوطن، وقدم التليفزيون خلاصات ضافية عنها، رغبتها الشديدة في المشاركة. كانت تحب أن تطلع في عين المكان على مجرى المناقشات في وسط شعبي بين فئات اجتماعية مختلفة. لقد رأت من بين ما رأت في التليفزيون بعض النساء وخاصة الفتيات يصرحن أمام الرجال بتصريحات جد جريئة. وهي كامرأة لم تتعود على سماعها بهذا الشكل! كما رأت وسمعت كثيراً من النقد اللاذع للمسؤولين، سواء المحلّيون أو من هم على مستوى الوطن. وهو أمر عظيم وشديد الأهمية في بلد ضحّى بالكثير من أجل الحياة الديموقراطية والتعبير الحر! إن عليها إذن كطالبة أن تتعرف على الحقائق الكثيرة الواقعة التي غطى ظهورها الخوف والانتهازية والديماغوجية. وعليها كفتاة أن تمارس، ولو بالمشاهدة، تجربة المشاركة إلى جانب الرجل في القضايا الوطنية، كما عليها أن تثبت وجودها لهذا الرجل الذي انتزع منها حتى إنسانيتها في بعض الأحيان. وهي كريفية يتحتّم

عليهـا أكثر أن تحصـل على أكـبر مجموعـة من التجـارب في كـل الميادين . . .

ولعـل أهم ما أدهش نعيمـة ، وأدهش كل مـلاحظ هو هـذه الحـرية في التعبـير التي أعطت فجـأة صورة أخـرى لجزائـر ظنهـا الكثير ماتت! لقـد كان النقـد العلني والاتهام لأنـاسٍ كانـوا من الخشيـة بحيث كان ذكـر أسمائهم يلقي الـرعب في القلوب شيئاً ملحوظاً يومياً لأن حـرية التعبـير كانت حقـاً مضمونـاً للجميع ، فـمارسه الشعب دون خشيـة ولا التواء وأظهـر شجاعتـه وأهليتـه للحياة الديموقراطية ، وخيّب بذلك كل أولئك الذين تـوقعوا شراً من إعـطاء هذه الحـريـة في بلد لم يستـوف بعـد كـل مؤسسـاتـه الدستورية ، بل ما زال في مهب الأرياح!

والشيء الذي تأكدت منه نعيمة وتأكد منه كل جزائـري بهذه المناسبة هـو أن الأنظمـة التي تخشى أو تحارب حـرية التعبـير هي أنظمة ديكتاتورية ، لا خير فيهـا لأي وطن . لأن حريـة التعبير لم تكن في يوم من الأيام شراً عـلى وطن . كما ثبت لـدى الناس أن مثل هذا الأسلوب في معالجة القضايا المطروحة على الوطن يعتـبر طريق الثورة الثقافية الصحيحة .

إن المنـاقشات خـلال هـذه الأسـابيـع الأولى من شهـر مـاي بشمـولها وعمقهـا وديموقـراطيتها جعلت الكثـيرين يـظنّـون بـأن الجزائر مقبلة على تحول جذري وخوض ثورة ثقافية حقيقية! . . .

لكن نعيمة استولت على اهتمامها نقطة أخرى، هي تعرف الناس بعضهم على بعض: التقدمي اكتشف الرجعي المرابي، والاشتراكي عرف المداهن بالاشتراكية والمتحرر عرف المتزمت الذي كان يتوارى بالتسامح... باختصار، الكل عرف الكل واتضح للجميع أن الجميع لا ينتمي إلى طبقة واحدة!

وفي الواقع لم تكن نعيمة هي صاحبة هذه الملاحظة إنما هي ملاحظة شاعت في الأوساط الطلابية خلال مناقشة الميثاق...

ذهبت نعيمة إلى هذا الاجتماع الذي لا يبعد كثيراً عن دار عمها والذي يقع بإحدى مدارس الحي، بهذه الأفكار وهذا الاستعداد، في حين كان رضا بعيداً عن كل تحمّس أو تطرّف. هو رجل يزن الأشياء بميزانها، لا يتشاءم ولا يتفاءل، يراقب الأحداث ويحاول التدخل لجعلها في صالح الفكرة التي يعتنقها بكل الوسائل.

بالقرب من المدرسة وقف أستاذ سابق في التعليم الثانوي لرضا وهو رجل محافظ إلى درجة أن غلوه في المحافظة خيّل إليه أنه تقدمي متطرف! انه يعتبر نفسه من القلائل الذين بقوا في هذا الوطن يدافعون عن قيمه ولغته وتاريخه. لما رأى رضا مقبلاً اعترضه مبدياً سروره وهو يقول:

ـ أنت كنت تلميذي سابقاً، أليس كذلك؟

ـ نعم.

ـ أنت ابن الشيخ علاوة إن لم تخني الذاكرة؟

ـ لم تخنك.

ابتسمت نعيمة لرد رضا وبرودته. أضاف الأستاذ:

ـ عائلة طيبة، عائلة طيبة متدينة! أبوك من الخيار. رجل صالح. لم يجب رضا بشيء وانتظر بهدوء ما يريد منه الرجل.

ـ وهذه البنت التي معك؟

ـ هي ابنة عمي.

ـ ما شاء الله، ما شاء الله! لعلني أحرجتك باعتراضي هذا وأسئلتي؟ إنني سمحت لنفسي بذلك كأستاذ سابق «وكأب» روحي... أليس كذلك؟

قالت نعيمة في نفسها: «ما أركّه!» أما رضا فأجابه بالبرودة السابقة نفسها:

ـ ليس كذلك!

أدهش جواب رضا أستاذه السابق، وسأله:

ـ ماذا تقول؟

ـ قلت ليس كذلك!

ـ ليس كذلك، ماذا؟

ـ ماذا تريد مني؟

ـ لا أريد شيئاً يا بني، لا أريد شيئاً... إنما كأب روحي وأخ في الدين، أحببت أن أنصح لأبنائنا... إن أوباش الحي كلهم يحضرون... وهذه البنت التي معك... أليس كذلك؟

ـ ليس كذلك!

ضحكت نعيمة. لم تستطع التحكم في نفسها، أما رضا فلم يغير شعرة من برودته ولا من لهجته، وأخذها من يدها ومشيا تاركين الرجل الناصح مبهوتاً لا يدري بالضبط ماذا سمع!

قالت نعيمة لرضا وقد ابتعدا عن الرجل:

ـ يستحق الصفعة...

ـ هذا النوع من الناس، مثل «جنرالنا» كما تسميه دليلة، يعيشون في عصر لا يعرفونه، ويدافعون عن عصور لا يعرفونها.

ـ تعبير جميل!

لكنها بعدما فكرت فيما قاله رضا من كلمات استعذبتها في البداية، شعرت بعدم اقتناعها به، وقالت:

ـ ألا تظن أنهم يدافعون عن مصالحهم ليس إلا؟

ـ هل ما قلته يناقض هذا؟ انهم يوهمون الشعب أن ماضي العرب لم يكن إلا عدلاً وأخوة وسلاماً وأنهم لا يريدون سوى إحياء تلك القيم والأمجاد...

ـ ألا تظن أنهم مخلصون في زعمهم؟

ـ إذا كانوا مخلصين فمعنى هذا بكل بساطة أنهم يجهلون التاريخ الذي يتحدثون عنه. ويجهلون بالتالي هذا الماضي الذي يقدّسونه ويدعون الناس إلى تقديسه!

ـ وأنت ألا تعتقد أن ماضي الأمة العربية كان مجيدا!؟

ـ فرق بين المجد والعدل. كل الديكتاتوريات في العالم كانت تبحث عن المجد لكن على حساب العدل... ثم من قال لك

إن ماضي الأمة العربية كان كله مجداً. ؟

لم تجب عن تساؤل ابن عمها، ومضت تفكر فيما سمعته من تضارب حول هذه النقطة، منذ أن التحقت بالجامعة. . .

رأت نعيمة وهما داخلان إلى المدرسة التي يعقد فيها الاجتماع ساحة واسعة أقيمت فيها منصة، ونصبت مقاعد الأقسام كما نصبت مكبرات للصوت في عدة جهات. ولكنها لاحظت عدداً قليلاً من الناس يشغل بعض المقاعد، على خلاف ما كانت تتوقع. أما النساء فلم تر إلا أربعا جالسات على دكاء أحد الأقسام. قالت معلقة:

ـ ظننت أننا نجد الحي كله هنا!

ـ أتينا مبكرين. . . كم الساعة الآن؟

ـ السابعة إلا عشرين دقيقة!

ـ الاجتماع مقرر في الساعة السابعة. ثم هناك بعض المخربين الذين يصدون الناس عن حضور الاجتماعات.

ـ لماذا؟ أليس الدفاع عن قضية يستدعي بالضبط المشاركة في النقاش؟

فأجابها وهما يتخذان مقعداً بالقرب من المنصة:

ـ التغيب أيضاً له تأثيره. . . أما بالنسبة إلينا فنحن نعمل على أن يشارك أكبر عدد ممكن، لأن ما ندافع عنه هو مصلحة الجماهير الكادحة! . . .

اشتمت نعيمة من كلام ابن عمها انتماء معيناً. فهذه الضمائر التي يستعملها في حديثه وهذا النوع من التعابير يؤكد ذلك: بالنسبة إلينا نعمل على أن يشارك... مصلحة الجماهير... الخ. لقد سمعت مثل هذا الكلام في اجتماع عقدته لجنة التطوع للثورة الزراعية! فكرت أن تسأله ثم عدلت عن ذلك. وقدرت أنه لا الوقت ولا المكان يناسب ذلك. ثم إن سؤاله عن انتمائه السياسي بصورة مباشرة لا يلائم لا اللباقة ولا اللياقة. عليها أنت تتعرف عليه من خلال مثل هذه الكلمات العابرة التي لا تخفي نفسها...

استغربت نعيمة أن لم تتعرف عليه طوال هذه المدة التي قضتها بالجزائر لكنها استدركت تقول في نفسها إن الفرصة لم تتح لها لأن رضا قليل الكلام وقليل المقام بالبيت. ثم ماذا تقول عنها بنات عمها وزوجة عمها ومنى... هي لم تعرفه قبل اليوم. إنه لا تربطه بأهله إلا صلة التعايش. ثم إن ميدان السياسة شيء جديد بالنسبة إليها. لولا مخالطتها لبعض الطلبة التقدميين التي فتحت أمامها آفاقاً جديدة للحياة، لبقيت تحيا ولو في الجامعة في أفقها القروي المسدود. لقد جرها هؤلاء الطلبة جراً إلى السياسة، ووجدت في ذلك من بعد إمكانية تحقيق بعض أمانيها وأحلامها...

أخذ الناس يتقاطرون على المدرسة، ولم تحن الساعة السابعة حتى كان جل المقاعد مشغولاً. ورأت نعيمة امرأة متلحفة مقبلة عليها، فلم تعرفها فقالت لها:

ـ نسيت بسرعة. . . كنا منذ حين مع بعض. أنا ذهبية الدلاكة، أنسيت الحمّام؟

ـ آ، هذي أنت! لم أعرفك، أقسم لك. أتيت إلى الاجتماع أنت كذلك؟.

ـ ولم لا؟ ألست امرأة؟ جئت وأجيء. . . وسترين كيف أفضحهم.

ـ من تفضحين؟

ـ البورجوازيين والبورجوازيات!

ـ أي بورجوازيات؟

ـ باية ـ السمينة، امرأة القهواجي، امرأة عمك. . . أتظنين أشفق عليهن؟ لا، لن أشفق على أحد. هذا يوم الفقراء أمثالنا!

ضحكت نعيمة، وقالت لها:

ـ باية السمينة أيضاً بورجوازية؟

ـ أليست هي صاحبة الحمّام؟ هي وامرأة عمك والأخريات، كلهن سواء. . . الحاصل أَدَعك الآن، أنا أجلس في الجهة الأخرى مع جارتي هناك.

انصرفت المرأة العاملة. وبقيت نعيمة متعجبة من هذا الجو الذي خلقه الميثاق فأصبح جميع الناس يرون فيه متنفساً لهمومهم. وانتظرت أن يعلق رضا على ما دار بينها وبين المرأة من كلام، لكن رضا لاذ بالصمت، كأنه لم يسمع ولم ير. ففضلت أن لا تحدثه عنها وتركته في صمته. وكان حينئذ قد اتجه

إلى المنصة خمسة أشخاص من بينهم امرأة، فقال رضا:

ـ ذاك الرجل الأول البطن هو شيخ البلدية، الذي وراءه مسؤول القسمة، أما المرأة فهي عضوة فرع الاتحاد النسائي المحلي. الاثنان الآخران لا أعرفهما.

ـ هل يوجد بهذا الحي فرع للاتحاد النسائي؟ لم أكن أعلم ذلك.

تقدم مسؤول القسمة إلى الميكرفون، وقال بعد أن حيا الحاضرين:

ـ أشكركم أيها الأخوة باسم الحزب على هذه المشاركة الجماعية التي تزداد يوماً بعد يوم. بدأنا في قلة من الناس هذه السلسلة من الاجتماعات لشرح المشروع التمهيدي للميثاق الوطني. واليوم ها نحن نرى هذا الجمع الغفير الذي جاء ليبرهن على ولائه لحزب جبهة التحرير وللسلطة الثورية... إن هذا الاقبال ليعد دليلاً على وعي المواطنين، وعلى إدراكهم للمرحلة الحاسمة التي يجتازها الوطن.

علقت نعيمة همساً:

ـ ترى متى نصل إلى المرحلة التي ليست حاسمة في حياتنا؟

فأجابها رضا:

ـ المراحل التي ليست حاسمة في حياتنا هي تاريخنا الطويل قبل ثورة نوفمبر!

لم يرق نعيمة هذا الرد الذي كأنه يستبلهها. وواصل الخطيب

كـلامه: لا أطيـل عليكم كثيراً أيهـا الأخوة، اليـوم الكلمة لكم ليست لي أنا. الكلمة للشعب (علت التصفيقات) فالرجاء منكم إذن أن تستمعوا إلى الأخ سي الطيب يواصل شرح نص المشروع أمامكم، لكي يتمكن كل واحد منكم من فهم الموضوع وليبدي رأيه بعد ذلك عن بصيرة. شكراً.

صفق الحـاضرون، وقرب سي الـطيب الميكرفـون إليـه بيـده اليسرى بينما كانت اليمنى تفتـح ملفاً أمـامه. نحم نحمـاً خفيفاً يسرح حلقه، وأخرج منديلاً مسح به أنفه، وشرع في الشرح:

نواصل أيها الأخوة شرح الباب الثالث وهـو الثورة الثقـافية. وفي هذا المساء نتكلم عن اللغة الوطنيـة من جديـد، لأن بعض الإخوان بالأمس لم يفهمـوا جيداً المـوضوع، الأمـر الذي جعـل النقاش في واد والموضوع في واد آخر.

يقـول المشروع: إن اللغـة العـربيـة عنصر أسـاسي للهـويـة الثقافية للشعب الجزائري. ولا يمكن فصل شخصيتنا عن اللغـة الوطنية التي تعبر عنها. ولهذا فان تعميم استعـمال اللغة الـوطنية واتقـانها كوسيلة عمليـة خـلاقـة يشكل إحـدى كبريـات المهـام للمجتمع الجزائري، للتعبير عن كل مظاهر الثقافة وعن العقيدة الاشتراكية...

وأخذ الرجل يشرح بالدارجة مستعمـلاً خليطاً من العبـارات العربية والفـرنسية المحـرفة، ليقـرب من إفهام النـاس المضمون الأسـاسي للنص. لكن نعيمة أحـزنها وهي تتخيـل سي الـطيب

كشخصية خرافية، أو كراوية يروي على الشعب خرافات وأساطير، لا ميثاقاً وطنياً عقائدياً ينظم حياتهم ويقرر مصيرهم! والذي أحزنها أكثر محاولاته المتعددة لإضحاك الناس بضرب الأمثال واستعمال ما جاء على لسانه من عبارات، مما حوّل الاجتماع إلى مجلس أنس أو سهرة لقتل الوقت، أكثر منه مجلس جد يتقرر فيه وفي أمثاله مصير شعب كامل، وقالت هامسة:

ـ عيسى بن هشام في مقامات الهمذاني، أليس هذا محزناً؟

ـ عيسى بن هشام؟

ـ ألم تقرأ الهمذاني؟

ـ إنك مخطئة. ما دام فرد واحد أمّياً في الجزائر فسنحتاج دائماً إلى عيسى بن هشام لتبليغ الفكرة الاشتراكية! انظري كيف يتضاحكون..

ـ بالضبط لأنهم يتضاحكون... لم يعد اجتماع ميثاق وطني. صار مجلس فكاهة!

ـ ألم يرقك ضحك الناس؟

ـ طبعاً لم يرقني. هل هذا محل ضحك؟

ـ إذن لم تفهمي شيئاً عن الاشتراكية...

ـ ماذا تعني؟

ـ ألم تشاركي في التطوع الأسبوعي مع الطلبة؟

ـ شاركت، لكن ما القرينة؟

ـ ألم تغنّوا وأنتم خارجون إلى التطوع؟

ـ غنّينا وصفّقنا، بل ورقصنا في الشاحنات. . . أتقيس الذهاب إلى التطوع باجتماع سياسي؟

ـ لم تكونوا إذن جادين في تطوعكم، لأنكم كنتم تغنون وترقصون؟

ـ لماذا لم نكن جادين؟ ذاك مقام وهذا مقام آخر.

ـ كنتم جادين لا شك في ذلك. عندما يكون الانسان جاداً لا يكون حزيناً لأن الحياة الجادة لا تتلاقى مع الحزن والعبوس. إن الاشتراكية أمل وسرور مستمر، ليست بكاء ولا حزناً. لذلك فإن ضحك هؤلاء لا ينقص من جدّهم. إنه تجاوب بين هؤلاء العمال الذين يشكلون الكثرة في هذا الاجتماع وبين شارح النص. لا تنسي أننا في الرابعة عشرة من العمر. فلو لم نشرح مثل هذه النصوص الهامة فكيف تريدين من الناس أن يناصروا الاشتراكية أو يؤيدوها؟ إننا لو كنا نخوض ثورة ثقافية حقيقية لشرحنا للشعب يومياً وفي كل مكان، كل الأيديولوجيات العالمية. فالاشتراكية علمية، والعلم لا يبنيه الجهل. . .

فكرت نعيمة أن ابن عمها يريد أن يلقي عليها درساً في مكان لا يتسع له. ولكنها لم ترد جرح شعوره فتركته يبدي رأيه بما شاء من تفاصيل، فلم يكن الذي يجري في الاجتماع يهمها، لأن سي «الطيب» كان مستمراً في شرحه. فواصل رضا قائلاً:

ـ إن الشعب الجاهل لا يبني اشتراكية ولا اقتصاداً صحيحاً. إنما يبني الجوع والخراب، إذا كان الجوع والخراب يبنيان!

واصلت نعيمة الاستماع، وحاولت أن لا تظهر بمظهر المتضايقة منه فسألها:

ـ ألا توافقين على ما ذكرت؟

ـ أقول لك صراحة ينبغي لي وقت لهضم هذه الأفكار! أنا من الريف وذهني لا يسير بالسرعة التي يسير بها ذهنك.

ـ لا تسخري.

ـ لا أسخر، ذلك هو الحق.

وحاولت نعيمة أن تراقب الشارح ومستمعيه بوجهة نظر ابن عمها، فلاحظت فعلاً تجاوباً بين «عيسى بن هشام» كما سمته وبين الحاضرين. وأدارت في رأسها مرات كلام رضا فوجدته في نهاية الأمر مصيباً. ليس هناك من بديل للشرح. كل شيء له أبجديته. وأبجدية الثورة هي فهمها. وبدون فهم فالشعب يعيش متنعماً في قصور من الوهم تفوق قصور ألف ليلة وليلة.

انتهى سي الطيب من شرح النص فطلب الكلمة أحد الحاضرين، وكان يبدو من سحنته أنه عامل، طال به أمد العمل فصيّر وجهه تجعيدات وخطوطاً في كل اتجاه. فقال:

ـ أنا أترك الحديث عن اللغة للذين يعرفون. أنا أريد أن أتكلم عن موضوع آخر... أنا عامل بالمرسى. مضى عليّ في هذا العمل ثلاثون سنة إلا ثلاثة أشهر! لي خمسة أولاد، لا أتحدث عنهم ولا عن عملهم. ذلك أمر لا يهم أحداً هنا. أما بخصوص الثورة التحريرية فلم أخن ولم «أتعاون»...

والـدليل؟ هـو وجودي هنـا! (ضحـك بعض الحـاضرين) لكني أقول لكم عن أيام الثورة شيئاً واحداً: أنا أحد الذين نجـوا من حادث المرسى الذي سمعتم عنه الكثير. . .

فقاطعه أحد المسؤولين عن الاجتماع:

ـ من فضلك ادخـل في الموضـوع. هنـاك كثير من الاخـوان ينتظرون أخذ الكلمة.

فرد الرجل قائلاً:

ـ هل قلت شيئاً خارجاً عن المـوضوع؟ دعني أتم حـديثي ثم انظر إذا كنت خرجت عن الموضوع! قلت إن هذه المدة الـطويلة التي قضيتهـا عامـلاً بالمـرسى جعلتني أعرف البـواخر وحمـولاتهـا بمجرد إشرافها على المرسى. أعرف باخـرة الموز، وبـاخرة اللوز، وبـاخـرة الـزبيب، وبـاخـرة الأجبـان وبـاخـرة العـين وبـاخـرة اللحوم. . . ومنذ الاستقلال إلى اليوم دخلت خيرات لا تحصى، ومـا زالت تدخـل. . . لكن عنـدمـا أنتهي من عمـلي وأخـرج، وأقول في نفسي اليوم أشتري لأولادي ما جاءت به تلك البـاخرة أو تلك فلا أجد شيئاً! في البداية ظننتني وحدي الذي لم يسعفني الحظ، وحين أسأل رفاقي العمال بالنهار والجيران بالمسـاء أجدهم مثـلي، لم يـروا شيئـاً! ثم علمت أن الشعب كله مثلنـا. يعلم ولكن لم ينل شيئاً! ثم علمت أن الذي تذهب إليه تلك الخيرات هو الذي لا يعلم مثلنا بمجيئها، تذهب إليه تدقّ الباب وتدخل في سترها. . . (تصفيقات) ثم علمت أن تلك الخيرات إذا كانت

أكثر من حاجة الذين لا يعلمون بها تباع جملة لأصحاب الجملة! (تصفيقات) أغضب وأصرخ وأصيح: هذا منكر! هذا حرام! هذا لا يليق ببلد ضحّى ليعيش أبناؤه متساوين، هذا لا يليق ببلد يقول إنه اشتراكي... فتنهاني زوجتي: «يا رجل، أنت تريد أن تدع أولادك ضائعين في الطرقات؟ اسكت!» أتساءل لماذا فقط؟ لأننا في شهر الحرية وشهر العمال... والسلام.

عاد الرجل إلى مكانه وارتفعت همهمة الحاضرين، هذا يناصر وهذا يعارض، وإذا برجل يقوم في تؤدة وجلال كخطيب الجمعة. وحين يصل إلى الميكرفون يخرج ورقة من جيبه، ينظر فيها لحظات، ثم يلتفت يميناً وشمالاً فيبتسم لبعض من يعرفهم، ثم يجرب الميكرفون بضربات خفيفة عليه، ويقول:

ـ أنا أقترح أن تعدل الفترة المتعلقة بلغتنا كما يلي: بعد قول المشروع إن الخيار بين اللغة العربية واللغة الأجنبية أمر غير وارد البتة ولا رجعة في ذلك... بعد ذلك يلغى كل الباقي المتعلق باللغة إلى فصل التربية، ويضاف هذا: وبناء على ذلك فانه بعد التصويت على مشروع الميثاق الوطني واعتماده دستورياً من طرف الشعب، يصبح استعمال اللغة العربية إجبارياً في كل المؤسسات والقطاعات العامة والخاصة، سواء منها الاقتصادية والثقافية والادارية أو التربوية بجميع فروعها والسلام.

يصفق بعض الحاضرين تصفيقاً حاداً، ويقوم الأستاذ الذي اعترض رضا في الطريق وشخص آخر يلاقيان الرجل الذي كان

كما يظهر من مشيته في حالة اغتباط ونشوة عالية. ويجلسون ويتبادلون التهاني!

على أثر ذلك قام رجل آخر يطلب الكلمة وهو في حالة المستعجل الذي يخشى أن يقع التصديق على ما قاله من تقدمه ويفوته ما يريد، فقال:

- إذا تقرر استعمال العربية بعد اعتماد الميثاق، فما هو مصير أبنائنا الذين لا يعرفون العربية؟ طبعاً كلنا نحب لغتنا، ما في ذلك شك، ولكن هؤلاء الذين لم يتعلموا سوى الفرنسية كيف نفعل لهم؟

قام الرجل الذي كان يتكلم من قبل ليرد عليه، فرأى أحد المسؤولين عن الاجتماع أن لا تُعطى له الكلمة، لكن مسؤولاً آخر بجانبه لاحظ له أن الغاية من الاجتماع هي بالضبط الوصول إلى إثارة النقاش، النقاش الحاد حول كل النقط... ذلك وحده الذي يجلب الناس لحضور الاجتماعات. فأعطيت الكلمة من جديد للرجل فقال:

- لقد حيل بيننا وبين لغتنا مائة واثنتين وثلاثين سنة، بدون أن أعدّ سنوات الاستقلال إلى الآن، فلماذا لم يسأل أحد عن حالنا نحن الذين لا نحسن سوى العربية؟

قام رجل في الطرف الآخر وردّ عليه من مكانه دون أن يطلب الكلمة: لم يسأل أحد؟ تقول هذا أنت المثقف... فلماذا قامت ثورة نوفمبر إذن؟ لقد سأل شعب كامل عن تلك الحالة؟

وأي سؤال! إن الرجل سأل عن وضعية موجودة بالفعل... هناك جزائريون لظروف معينة، لم يتعلموا العربية، فلو طبق اقتراحك من الغد، فماذا يفعلون؟

ـ ما عليهم سوى تعلم العربية، إذا أرادوا أن يعيشوا في بلد عربيّ!

وعلا تصفيق أنصار هذا الأخير... وتدخّل المسؤول موضحاً أن الميثاق لا يتحدث عن إدخال العربية في كل الميادين طفرة واحدة، بل لا بد من مراعاة ظروف النجاح وشروطه. على أن تعلم العربية ليس واجباً فقط، ولكنه أمر تقتضيه كرامة المواطنة... ثم إن الجزائر لا تستغني عن كل طاقاتها الحية، مهما كان نوع اللغة التي يحسنها المواطن. ان عشرات المتعاونين من الأصدقاء والإخوان في الجزائر وهم لا يحسنون العربية، ومع ذلك لم تستغن الجزائر عن مساعداتهم وتعاونهم فضلاً عن أبنائها».

لكن أحد المتسائلين عن مصير أصحاب الفرنسية لم يقتنع بالجزء الأخير من كلام المسؤول فرد عليه:

ـ المتعاونون لهم اختصاصات معينة، لذلك لا تستغني عنهم الجزائر في الظروف الحالية، أما المواطنون الذين نحن نتحدث عنهم ففيهم من لا اختصاص له ولا ثقافة عالية وهم الأغلبية.

لم تقف القضية عند هذا الحد، إذ قام رجل آخر في حوالي الأربعين من العمر فطلب الكلمة فقال:

ـ كل عاقل يؤيد طريقة المعالجة التي يرتئيها مشروع الميثاق لقضية اللغة. إنما يبدو لي أن هناك تشديداً في الالحاح على عدم استعمال اللغة العربية كما هي. إن هذه التحذيرات المتتالية تشجع أعداء العربية في استغلال الموقف ومحاولة إبقائها دائماً في وضعها المتأخر. صحيح أن اللغة العربية تعيش بمنطق وبنيات البصرة والكوفة، وأنها لم تتقدم تقدماً حقيقياً منذ القرن الثاني عشر الميلادي. وهذا لا يعني أن اللغة العربية في حد ذاتها غير قابلة للتطور والتقدم. فقد أثبتت في عهودها الزاهرة، ابتداء من عهد المأمون على الخصوص، قدرتها العجيبة على تمثّل ثقافات وعلوم اليونان والفرس والهند والروم... وإنما ما أعنيه هو أنه لا يمكن أن تتقدم لغة وأمتها متأخرة. فتقدم اللغة وتطورها مرهون بتقدم وتطور الأمة العربية نفسها. ونحن اليوم في العالم العربي، نحيا في حضارة لم نشارك في صنعها منذ ثمانية قرون، إن استعمالنا للغة العربية أو عدم الاستعمال لا يخرجنا من هذا الاغتراب والاستلاب الذي نحن فيه. إننا نحيا في محيط أجنبي عن لغتنا وتصورنا للكون والإنسان.. فالطريق الصحيح إذن للعربية هو التعلّم الصحيح الذي يعتمد المناهج البيداغوجية الحديثة، مع العناية الكبرى إن لم أقل الكلية بالعلوم وتطبيقاتها التكنولوجية، وجعلها على رأس المواد التعليمية. إن حضارة عصرنا مخيفة ورهيبة بالنسبة للشعوب التي في مستوانا، لأنها حضارة تعتمد أساساً على العلم والتكنولوجيا، أي التطبيقات العلمية. فكل ساعة نضيعها تضاعف من إبعادنا

عن عصرنا، لأن العلوم تتقدم تقدماً مذهلاً. سواء من حيث السرعة أو الكم والكيف. وإذا لم نفعل فإننا ندور في حلقة مفرغة إلى الأبد. رأيي باختصار، هو أن نفرض بشكل جدي تعلم العربية، لا كمادة مقررة في الامتحانات... أما استعمالها فينبغي أن لا يكون تعميمياً ولا طفروياً. لا بد من ضبط خطة تأخذ بعين الاعتبار زمان ومكان التطبيق، كما يرتئي المشروع، أعني المراحل والقطاعات. ولعله من حسن حظ الجزائر أن تكون في متناولها لغة متطورة، تعبر عن أفكارها وتصوراتها هي...

قام الرجل الأول معترضاً بشدة:

ـ ماذا تعني؟ تعني أن الجزائر محظوظة إذ يتكلم أبناؤها الفرنسية؟

لم يخرج الرجل عن هدوئه، ولا أثارته هذه الطريقة الهجومية التي استعملها الرجل. كأنه يعرفه أو هو على علم بهذا النوع من الناس الذين يسيئون إلى العربية في اعتقاده، من حيث لا يشعرون. ومضى يقول بكل هدوء:

ـ إنه من حسن الحظ أن يتكلم بالفرنسية في الجزائر أبناؤها الذين كافحوا من أجل تحريرها، ويناضلون اليوم من أجل بنائها إلى جانب إخوانهم المثقفين بالعربية. إنها فرصة تاريخية فذة متاحة، فإذا أحسنا استغلالها كما أحسن استغلال لغتنا وحضارتنا في ظرف تاريخي معروف فاننا لا نعيد إلى العربية مكانتها فقط،

بل نصل بها إلى مستوى حضاري معاصر لم تصل بها إليه جهود قرون وقرون. ذلك لأننا نطورها من الداخل تطويراً يجعلها باستمرار في حالة مخاض وولادة جديدة. هذا الاستغلال يتمثل في إنشاء بنيات للتواصل والتفاعل بين اللغتين طوال هذه المرحلة الانتقالية. إننا من غير شك سنكلف أنفسنا أعباء جديدة بشرية، مالية، مادية... ولكننا في نهاية المطاف ننتهي بأنفسنا وجدانياً وقومياً وحضارياً إلى المستوى الحضاري المعاصر الصحيح لا المزيف. إن مثل هذا التواصل والتفاعل بين اللغتين يضمن انسجام تقدمنا، ويضمن في الوقت نفسه الانسجام بين مختلف الطاقات البشرية المتوفرة لدينا، ويوفر كل الظروف اللازمة للتقدم بلغتنا إلى مستوى الابداع في العلم والتكنولوجيا.

قام شخص بعيد يذكر الناس بأن العربية هي لغة القرآن. فقال الرجل بابتسام:

ـ وهل نحن قلنا لغة أبي جهل؟

ضحك رضا وصفق مع بعض من صفقوا خفيفاً. أما نعيمة فوقفت دون أن تشعر تصفق بحدة. جذبها رضا من فستانها يدعوها للجلوس. أخذ يتبلور الاجتماع بين أنصار العربية عاطفياً وأنصارها فكرياً، وأعدائها. وقام رجل يناصر تطبيق العربية في الحال:

ـ إنه وهم تريدون إلقاءه في ذهن الشعب بأن اللغة العربية غير قادرة على استيعاب الحضارة المعاصرة. ولو شئت لضربت

عشرات الأمثلة التي تكذب هذا الزعم. إن العربية قادرة على تسيير شؤون الدولة وقطاعاتها المختلفة. لا أستشهد بمصر وسوريا ولا بغيرهما من الأقطار العربية البعيدة عن الجزائر جغرافياً، أستشهد فقط بليبيا... لقد عرّبت كل شيء. فلماذا لم تجد هذا العناء وهذه العراقيل والمشاكل وهي تسيّر أمورها بالعربية؟ إن إبقاء العربية في عزلة عن الحياة العامة لا يطوّرها وإنما يميتها ميتة تدريجية محققة.

فرد الرجل باتزان، محاولاً أن لا يقع في الشرك الذي نصبه له الرجل بأن يجعله مثلاً يهاجم تأخر البلاد العربية وبذلك يفقد تدخله كل أهمية وكل قيمة... فقال:

ـ لا تخف. إنني أحبّ ليبيا بالأقل كما تحبها أنت، وأحب كل البلدان العربية الشقيقة لكن أود أن ألاحظ أن ليبيا، أو أي بلد عربي آخر، لم تعرف وضعية الجزائر، وليس المثقفون فيها باللغة الأجنبية هم الأغلبية...

فقال الرجل:

في هذه البلدان أيضاً عدد كبير من المثقفين باللغات الأجنبية.

فواصل الرجل حديثه:

ـ وضعية الجزائر إذن شاذة لظروف تاريخية معروفة. فلو كنا كالبلدان الأخرى المثقف فيها مثقف بلغته، حتى ولو عرف لغات أخرى لما كانت هناك مشكلة بالمرة. لكننا من أول استقلالنا

كالفيتنام مثلاً، استعملنا العربية. لكننا لسوء الحظ لسنا كأي بلد من البلدان التي كانت مستعمرة... هل للجزائر أن توقف كل مؤسساتها حتى تعد العدد الكافي من المتعلمين بالعربية لتسييرها؟ ان مثل هذا التفكير لا يرد على ذهن عاقل. انني أتخيل أن الذين يطالبون بالتعريب الفوري يمكن أيضاً أن يطالبوا بأن ترسل الجزائر سفناً فضائية مثل الاتحاد السوفييتي وأمريكا! ولم لا؟ إذا كان لنا الخيار أن نعمل ما نحب أو لا نعمل؟

لاحظ رضا لنعيمة أن الرجل أخذ يحيا. فنهض أستاذ رضا السابق ليقول:

ـ إنه أفضل لنا أن نبقى متأخرين في لغتنا على أن نكون متقدمين في لغة الغير!

فرد عليه الرجل مبتسماً:

ـ ليسمح لي الأستاذ أن أذكره ببعض الحقائق، لقد كانت لغة الجزائر قبل سنة 1830 هي العربية. وكنا أحراراً مستقلين. ولكن كنا متأخرين. فاحتلت أرضنا، ولم يجد كفاحنا ولا شجاعتنا، لأننا كنا نواجه العدو بشجاعة قلوبنا، في حين كانت الشجاعة في أوروبا قد تحولت من القلوب إلى المصانع... احتلت أرضنا كما قلت وسلبت منا حريتنا، وحُرّمت لغتنا تحريماً كلياً. إن الشعب المتأخر لا يفقد فقط لغته، بل يفقد حتى كيانه. ان ما قاله الأستاذ يستلزم أن نعيش على الكرة الأرضية وحدنا. وعندئذ تفقد كل الكلمات مدلولاتها. فلا يصبح للتأخر

ولا للتقدم معنى! ان التفكير بهذه الصورة خطير في نفسه وأشد خطراً إذا كان من أستاذ. وأريد، ما دمتُ وصلت إلى هذا الحد، أن أقول: ان الصراع الحقيقي في الجزائر اليوم، ليس بين أنصار العربية وغيرهم، ان الصراع الحقيقي هو بين الرجعية والتقدمية، بين الاقطاعيين والبورجوازيين ومن والاهم وبين الاشتراكيين. ثم إن الذي يدّعي أنه يخدم مصلحة الجزائر وحده دون الآخرين هو ديكتاتور. فالسلوك الديكتاتوري وحده هو الذي يبرّر الأنانية بهذا الحجم!

علت ضجة كبرى بين الحاضرين، هذا يؤيد وهذا يعارض. ولم يتمكن المسؤولون عن الاجتماع من إعادة الجو إلى ما كان عليه إلا بصعوبة.

علقت نعيمة على تدخل الرجل بحماس:

ـ لقد حطم الرجعيين!

فأجابها رضا كالمتأسف:

ـ لم يحطم شيئاً، الجزء الأخير من كلامه لا دخل له في الموضوع..

تعجبت نعيمة من تفكير ابن عمها وقالت:

ـ كيف، ألا ترضيك مهاجمة الرجعيين؟

ـ الدفاع عن القضايا الهامة لا يحتاج إلى البهلوانيات ولا إلى الخلط بين المواضيع.

ـ لم أفهمك، ألم يعجبك ما قاله بخصوص العربية؟

ـ إن التحليل الموضوعي للمشاكل المطروحة يقتضي التجرد والضبط. ليس صحيحاً قوله أن لا وجود لمن يعادي العربية. هناك فعلاً فئة تتصور العربية على أنها لغة الجهل والرمال، لا تتسع للحياة الحضارية المعاصرة ويتصورون أن كل مثقف بالعربية ما هو إلا محفظ قرآن في أحد الكتاتيب، ما هو إلا «طالب» كما يسمونه!

ـ أنا أعرف أستاذاً في الجامعة أشد تخلفاً مني حضارياً!

تبسم رضا وقال:

ـ أنك حسنة الحظ من غير شك إذا كنت تعرفين أستاذاً واحداً. . . ان ذلك بالضبط هو ما نخشاه: أن يكون الحكم على المثقفين بالعربية وعلى العربية نفسها منطلقاً من ملاحظة التخلف الحضاري والفكري لبعض المثقفين عندنا بالعربية!

ـ مثلي!

ـ الحديث لا يتعلق بك ولا بكل من هو في سنك. بالنسبة إلى النشء الجديد القضية غير مطروحة بهذه الصورة. . .

وبينما هما كذلك إذا بشخص متوسط العمر يلبس قميصاً بلا أكمام، يمسك بنظارة شمس كان رافعاً أصبعه منذ حين، قام ليعبر بدوره عن رأيه:

ـ ربما وافقت الأخ الذي كان قبلي إلى حد ما، ولكني أتساءل فقط: أليست مواصلة التعليم بالفرنسية هي نوع من الابقاء لهيمنة الأجنبية، وتثبيت لشخصية المحتل الثقافية، بطريقة لم

يتفطن إليها حتى غلاة الاستعمار؟ إن اللغة هي المقوم الأول للشخصية الثقافية، فإذا كان استعمال الفرنسية في الادارة تبرره المصالح المستعجلة والعاجلة، فان استعمالها في التربية والتعليم لا يشكل حالة مرحلية وإنما يشكل حالة تراكمية للثقافة الأجنبية عندنا، ويشكل من جهة أخرى استمراراً ومواصلة لضرب الثقافة العربية ومحوها بصورة أنجع من المحو الاستعماري. لأن ذلك اعتمد القهر والتحريم والطمس لمعالم الجزائر التاريخية والسياسية والثقافية. أما استعمالنا نحن للفرنسية فهو يهدف لإحياء هذه المعالم وتثبيتها في أذهان أبنائنا! فينتج عن ذلك إحدى الحالات التالية: إما التبعية الثقافية المطلقة مع ما يترتب عليها من اغتراب ومركبات. واما الانفصام في الشخصية ومعاداة أهم عناصر الشخصية القومية والثقافية، وهو اللغة. وأصير أنا المثقف بالفرنسية الذي نشأت في الاستقلال أعتبر ماضيّ مجيداً وأمتي عظيمة، ولكن لغتي لم تكن في المستوى لتضع إصبعي على مواطن المجد ومواقف العظمة... وهناك حالة أخرى وهي ضرب كلتا الثقافتين العربية والفرنسية معاً ومحاولة البحث عن بديل... وهذه الحالات كلها لا يستحقها شعب ضحى كثيراً من أجل بناء إنسان جديد ومجتمع جديد! وألاحظ في النهاية بأني أقول هذا وأنا لست من أعداء الفرنسية ولا أي لغة أخرى، بل أكن لكل اللغات ما تستحقه من احترام. إنما أريد قبل أن أكون غيري أن أكون أنا أولاً.

قام الرجل الذي كان يتكلّم مرة أخرى ليوضح رأيه في

الموضوع وقال:

ـ أرجو الكلمة لآخر مرة، لا لأجادل ولا حتى لأجيب، وإنما لأبدي ملاحظة: لا أرى بين ما قلته وبين ما قاله الأخ خلافاً في المرمى. إنما المرحلية في حياتنا الثقافية لا بد منها. لسنا نتوفر على كل الأطر وفي كل الميادين. ان السوق الوحيدة التي نستورد منها المعلم والأستاذ، وليسمح لي بهذا التعبير، هي البلدان العربية الشقيقة. وهي، إذا أردنا أن نكون واقعيين متجردين من العاطفيات وكل ديماغوجية، ليست بأبعد منا شأواً في المستوى الحضاري العام ولا المستوى الثقافي. إن المراجع التي يعود إليها الطلبة في نهاية الأمر، لو تعلموا كل المواد بالعربية هي إما مترجمة عن لغة أجنبية فيدرسونها في تلك الترجمات، واما أنها في لغتها الأصلية فيجدون أنفسهم مضطرين لتعلم لغة أجنبية أو أكثر للقيام ببحوثهم ودراساتهم. فالاغتراب موجود على كل حال. لأننا شعب متخلف علمياً... هذه هي الحقيقة. ثم أكرر كلامي بخصوص العربية: أنا أدعو إلى إجبارية اللغة العربية في كل مراحل التعليم. وهكذا تنسجم مرحلية اللغة الأجنبية مع الشخصية الثقافية. بكلمة: اني أنظر إلى الموضوع في إطار التصور العام للمجتمع الجزائري المقبل كما يرتئيه الميثاق.

لاحظ رضا قائلاً:

ـ لحسن حظ العربية أن لا يدافع عنها سوى الأغبياء!

ـ ألم يقل نفس ما قاله الآخر؟

ـ اقرئي غداً في الجرائد كل ما قيل، وحاولي أن تستخلصي رأياً.

ـ لكن هل صحيح ما قلته بأن هناك من يكره العربية؟

قبل أن يجيبها رضا قامت عاملة الحمّام، فقالت:

ـ أنا جئت لأعرف متى تؤمم الحمّامات؟

ضحك الحاضرون لكن المرأة لم يمنعها ذلك من مواصلة حديثها بكل حزم:

ـ . . . لأنه من غير المعقول أن تؤمم الأراضي ولا تؤمم الحمامات. إنهم أغنياء يستغلون العمال مثل الاقطاعيين الآخرين.

وعادت إلى مجلسها. فقام رجل يطلب الكلمة فقال:

ـ أنا ليس لي ما أقوله عن اللغة. نحن أفراد الشعب نتكلم لغتنا العربية الدارجة كما هي ونتفاهم. ليس لنا مشكلة في هذا الموضوع. لكن أريد أن أسأل لماذا لا تحاسب الدولة أولئك الذين كانوا عند الاستقلال لا يملكون شيئاً وأصبحوا اليوم يبنون الفيلات بمئات الملايين، ويملكون أنواعاً من السيارات، ويأتيهم من الخارج كل ما يحتاجون؟ إذا كنا نبني الاشتراكية فينبغي أن يحاسب الناس بلا فرق. هذا ما أردت أن أقول والسلام عليكم.

فصاح أحد: لم نأت إلى هنا لاتّهام الناس، جئنا للميثاق. . . فرد عليه أحد المسيّرين للاجتماع:

ـ كل من أراد أن يقول شيئاً له ذلك. حرية التعبير مضمونة في هذا الشهر للجميع. لكن من فضلكم من يريد أن يتكلم يرفع إصبعه، ويتكلم عندما تعطى له الكلمة. وإلا صارت فوضى إذا كان كل واحد يتكلم كما يشاء. بارك الله فيكم.

ابتسم رضا وهو يسمع كلام المسيّر، فسألته نعيمة:

ـ ما يضحكك؟

ـ لا شيء.

ـ عندما تكلم عن حرية التعبير! إنه غبي...

ـ غبي أو ذكي...

فعاد الرجل المتهم إلى الكلام وهو يقول:

ـ عندي قائمة بأسماء من أشرت إليهم من الذين كانوا عند الاستقلال لا يملكون شيئاً. وأنا مستعد لإعطائها للحكومة، ولكن هنا أمام الشعب!

علت الهتافات والتصفيقات من عدة جهات. كما علت صراخات واحتجاجات وشتائم من ناحية أخرى. ففكر رضا أن الجو لم يعد صالحاً للنقاش المجدي، وأن التدخلات الهامة انتهت. فقال لنعيمة:

ـ ماذا تريدين، أنبقى أم ننصرف؟ إن الجو لم يعد ملائماً...

ـ كما تشاء. على كل إن هذا الاجتماع كان هاماً بالنسبة إليّ، دلني على شيء لم أكن أعرفه...

ـ ما هو هذا الشيء؟
ـ إن الناس لا يخافون. . .
ـ طبعاً لا يخافون!
ـ لم أكن أعرف هذا.
ـ لا يخافون أكثر مما سمعت وشاهدت. . . إنما يمهلون. أننصرف؟
ـ إذا شئت.

وخرجا من الاجتماع، وكانت نعيمة في حالة من الانبهار تفوق الوصف! إنها شعرت أن الجزائر مقبلة على تحوّل لم يكن في الحسبان!

* * *

- 7 -

المساء جمع الأسرة في الصالون كما تعود أن يجمعها منذ شهر سبتمبر 1962 وهو الشهر الذي انتقل فيه الشيخ علاوة بأسرته إلى هذه الفيلا التي كان يسميها صاحبها الأوربي «الربيع».

كان هذا الصالون يشتمل على قاعتين واحدة للجلوس وأخرى للأكل، لكن الشيخ علاوة فضل أن يجعل قاعة الأكل في حجرة مستقلة، وأمر بضم القاعة المخصصة للأكل إلى الصالون.

لم تكن العائلة بهذا العدد الذي هي عليه اليوم. عُمر الابن الأكبر كان قد عين مديرا لاحدى الثانويات بقسنطينة. مراد كان قد ذهب إلى باريس للدراسة. كانت تلك سنته الأولى بالطب. اليامنة زفت عروساً منذ شهر. فلم تكن تضم الفيلا «الربيع» من أفراد الأسرة إلا الشيخ علاوة وزوجته العجوز كلثوم، والبنات: زبيدة البنت الكبرى التي كانت في الرابعة والعشرين، ودليلة التي كانت تبلغ ثماني سنوات، وهالة سنتين. ورضا أربع عشرة سنة.

وزع الشيخ علاوة حجرات الفيلا على أفراد أسرته كما يلي:

حجرة له هو وزوجته والبنت الصغرى هالة. حجرة لرضا، حجرة لزبيدة ودليلة، حجرة تركت شاغرة لعمر إذا رجع من قسنطينة. على أنها في غيابه تستعمل للطوارىء.

أثاث الصالون لم يكن من فن واحد، الموائد الخشبية المنقوشة من تلمسان، المتكآت من سوريا، وكذلك المناضد العالية المطعمة بالعاج التي توضع بين المتكآت. السرر الخشبية المنقوشة كانت من فن مغربي. الصناديق التي وضعت بالجهات الأربع للصالون لتعطي بعداً للمقاعد عن بعضها من فن جزائري. فوق كل صندوق علق بالحائط سيفان متقاطعان من السيوف القديمة، فيها الجزائري وفيها الأوربي. كما علقت في أماكن أخرى من حيطان الصالون صور بألوان فاتحة مستوحاة من الأساطير العربية. فوق السرير الذي يجلس عليه الشيخ علاوة علقت صورة تمثل الإمام على بن أبي طالب جالساً وإلى اليمين وقف الحسن وإلى اليسار الحسين. فوق السرير الذي تجلس عليه العجوز كلثوم علقت صورة تمثل إبراهيم الخليل وهو يستعد لذبح ابنه بينما أقبل عليه ملك بكبش فداء. فوق مقعد عمر علقت صورة تمثل فارساً عربياً في مبارزة مع جندي من جيش الروم، قطعت ساقه فحملها باليسرى وسيفه باليمنى وهو في حالة هجوم على الجندي الرومي!

سألت نعيمة ذات يوم رضا عن هذه الصورة وعن صورة أخرى بالصالون تمثل رجلاً عربياً من الماضي السحيق يضرب

وسادة بسيف خشبي، وكانت حينئذ ما تزال جديدة لم يمض على مجيئها إلى الجزائر شهر، فأجابها رضا بأنه لا يعرف بالضبط القصص المستمدة منها هذه الصور، وأنها من غير شك نوع من الفلكلور الشعبي في الرسم، فسمع الشيخ علاوة ذلك فأغضبه وقال: إذن أثاث هذا الصالون عبارة عن فلكلور؟ أن جهل الماضي من طرف هذا الجيل يجعل كل تراثنا فلكلوراً! ولقد حاول رضا أن يقنعه بأن الفلكلور بمعناه الصحيح هو الفنون الشعبية، وليس في ذلك ما يغضب... لكن الشيخ علاوة فهم تعليق رضا بالمعنى الشائع الآن بين الناس الذي لا يخلو من استخفاف وسخرية. وأخبر نعيمة بقضية الصور، فقال لها: إنها صور مستمدة من التاريخ، تاريخ أمتنا المجيد ليس فلكلوراً. صورة البطل الذي يهاجم الجندي الرومي بسيفه ورجله المقطوعة تحكي بشيء من التحريف قصة حكيم بن جبلة العبدي الذي نقض قومه العهد الذي أمضوه مع الزبير وطلحة، فخرج لهم طلحة في قوم من أصحابه فقتل منهم أكثر من سبعين رجلاً. وكان حكيم أبلى بلاء حسنا، عظّم الرواة والقصاص من شأنه فقالوا إن رجلاً من أصحاب طلحة ضربه ضربة قطعت رجله، فحبا حكيم حتى أخذ رجله المقطوعة فرمى بها من ضربه فصرعه، وجعل يقول راجزا:

«يا نفس لا تراعي ان قطعوا كراعي ان معي ذراعي.» هذه هي قصة الصورة، أما الثانية التي تمثل الرجل الذي يضرب بسيفه الخشبي الوسادة، فهو أن معاوية بن أبي

سفيان أرسل بشر بن أرطأة، وهو رجل قاسي القلب جافي الطبع من قريش، إلى بلاد العرب، وأوصاه أن يقسُو على أهل البادية من شيعة عليّ بن أبي طالب، حتى يملأ قلوبهم ذعرا. فأنفذ أمر معاوية مسرفاً إلى أقسى غايات الإسراف، حتى ذبح ابني عبد الله بن عباس، وكانا صبيين! ولما تقدمت به السن جُنّ فجعل يهذي بالسيف لا يطمئن إلا إذا أعمله فأكثر، فاتخذوا له سيفاً من خشب ووسائد يقربونها إليه...

ويضيف الشيخ علاوة ضاحكاً: هذا هو «دون كيشوط» العرب، ولكنه حقيقي. إن كل ما ترونه عند الغرب أخذوه عنا!

فوق مقعد البنات علقت صورة تمثل سيدي عبد الرحمن الثعالبي وإلى جانبه سبع! وكل هذه الصور الأسطورية من الرسم الجزائري القديم.

إن الشيخ علاوة يفضل هذه الصور على اللوحات الزيتية المعتبرة. لأنها كما يقول، مستوحاة من ماضينا!

والواقع أنها في هذا الصالون وجدت مكانها الصحيح. فلم تبد ناشزة ولا سخيفة. وكان الذي صنع أطرها الخشبية المنقوشة هو: صالح أبو نعيمة المجاهد، نقشها عندما كان مولعاً بهذا الفن قبل ثورة نوفمبر.

قبالة الباب علّق مصحف حائطي، بينما بثّت في أماكن من الصّالون تحف وآيات وطرر.

باختصار، كان ما بهذا الصالون منسجماً مع غيره وهو ما دعا رضا للكتابة على بابه: متحف!

إن الشيخ علاوة وكذلك إلى حدّ ما عجوزه، كانا يريان في تأثيث الصالون بهذه النماذج الفنية العربية في أغلبها تجسيماً رمزياً لبعض معالم الماضي. أما الأولاد فكانوا يرون فيها ندرة وسذاجة لا تخلو من فن. باستثناء رضا الذي يرى في الصالون متحفاً بلا تحف، ودليلة التي لا تهمها إطلاقاً الطريقة التي تؤثث بها الغرف والصالون، ما دامت تجد مكاناً للجلوس أو النوم. وباستثناء زبيدة كذلك التي كان طول مكثها بالبيت قد جعل كل شيء فيه بالنسبة إليها يمثل «سجنا».

جلس الشيخ علاوة في مكانه من الصالون بلباسه «الرسمي» كعادته. هو بغرفته فقط الذي يسمح لنفسه أن يلبس اللباس الخفيف الداخلي: عباءة وعرقية من كتان. أما بغير هذا المكان فهو دائماً في حالة رسمية! والصالون في نظره لا يختلف عن الأماكن الرسمية الأخرى ولا سيما أنه يعتقد أن السيطرة على أولاده تستلزم هذا النوع من المظاهر. أليست المظاهر في النهاية هي الوجه الخارجي للحياة!

هكذا يتساءل دائماً عندما يتكلم عن المظاهر بحضوره. إنه يعزّ من بين سائر أبنائه عمر لأنه أيضاً رجل مظاهر. ويقول: إنه في المحافظة على المظاهر مثلي، أما في الإرادة فمراد هو الذي يشبهني. وإذا سئل عن رضا فيجيب: ما الشجرة التي لا يجوح بعض ثمرها؟

ولباس الشيخ علاوة الرسمي يتمثل في بدلة عربية مطروزة من النوع الرفيع الثمين لما يقتضيه التطريز من وقت وخبرة. وله عدة بدلات للشتاء وللصيف، وعمامة صفراء حريرية يشدها على طربوش، على طريقة لباس علماء الدين الجزائريين، وعباءة حريرية أو «قمراوية» أو من قماش جيد على كل حال. والعباءة التي يلبسها الليلة هي قمراية تونسية من النوع الجيد.

طبعاً لم يكن أحد يدري بحاله اليوم، ولا ما جرى له. حتى زوجته العجوز قرّر أن لا يخبرها بقضية الرسالة المرسلة إلى نعيمة. فضّل أن يتريث وينظر في الموضوع بفكره، لا بعاطفته، فهو في نظره من أخطر المشاكل التي واجهته حتى الآن. لو علم أخوه المجاهد بما وقع، لما سلك إلى الحل ألف طريق، لكان الطريق الوحيد هو قتل نعيمة بعد أن يعرف الجاني ليقتله بدوره..

هكذا يتصور الشيخ علاوة على كل حال رد فعل أخيه. ومعنى هذا في نهاية الأمر أن أخاه العزيز سيصبح في نظر القانون مجرماً ومسجوناً، وستصبح عائلة بن خليل كلها ملطخة بالعار، عار الزنا، وعار السجن! إذن لا بد من التريث حتى يتضح الطريق السويّ الذي يؤدي إلى حل المشكلة، دون مساس بشرف العائلة.

ولم يغب عن أفراد أسرته حاله المتجهم. إذ من عادته أن يتحدث ويضحك وينتقد. بكلمة، هو المنشّط الدائم للسمر العائلي.

كانت يداه تعبثان بمسبحة، تعدّان حباتها عداً عشوائياً، يودّ أن يتكلم ولكن لا يدري كيف يبدأ.

مضت فترة من الصمت جعلت البعض من أبنائه يفكرون في الانصراف من الصالون، وإذا به يتكلم مخاطباً زوجته:

ـ مع من تذهبين بعد غد إلى دار بن عبد الجليل؟

ـ هل دعونا حتى تسألني هذا السؤال؟

ـ تسألين هل دعونا وأنا أخبرتك منذ أسبوع!

ـ أخبرتني منذ أسبوع! متى؟

ـ هل نسيت، أم جرى لك ما أنساك؟

ـ لم تخبرني ولم أنس، ولم يجر لي شيء! أنت الذي لست في حالك... التقيت بالعروس وأهلها وعمّتها، واستحييت بنفسي كيف أفعل؟ لو كنت تحمّمت لخرجت في الحين ولما عرضت نفسي للتساؤل... سألتني عمة العروس إذا كنت أحضر «التصديرة» فأجبتها بالتردد!

ـ أخبرتك منذ أسبوع بأن بنت سي عبد الكبير ستزف عروساً يوم الأحد المقبل، وأن حفلة تقديم جهازها للمدعوات يتم يوم السبت بعد الظهر. واليوم فقط كلمني سي عبد الكبير بنفسه ليدعوني إلى حضور حفل غداً، يقيمه خصيصاً لأصدقائه. مني على علم بذلك.

ـ قلت لك، لم تخبرني والسلام.

ـ أتكذبينني؟

ـ لا أكذبك، ولكنك نسيت. . .

تدخل عمر ليفك الخصومة التي نشبت بين أبويه:

ـ المهم الآن، مـاذا تقررون؟ لا متى قـال لك. . إنـه أخبرك، هل تذهبين؟ ومع من؟

ـ لـو قال لي من قبـل لأعددت نفسي. النسـاء لا يـذهبن إلى حفلات الزفاف هكذا. . .

فرد الشيخ علاوة بحدة:

ـ وكيف يـذهبن؟ هل أنت ذاهبـة إلى الحج؟ انـك ذاهبة إلى القبة. . .

ـ النّاس ليسوا سواء. هذه عائلة معروفة لها مدعوّون من كل الجهات. اليوم في الحمّام فقط جرى حفل لم تعرفه الحمّامـات منذ كم من سنة!

فكرت برهة من الوقت ثم سألت:

ـ ماذا أحمل لهم في يدي؟

ـ لم يجبها أحد، ثم تكلم الطبيب:

ـ خذي لهم باقة من الورد والسلام.

يكتب رضـا كلمة مـزاحٍ إلى نعيمة ويعـطيها لـزبيدة لتقـدّمها لها، فتقرأها: انتبهي جيداً إلى ما يجري، إنـه أكثر من الاجتـماع الذي كنا فيه. . .

يبدي الشيخ علاوة رأيه:

ـ الزهور لا تكفي، يلزم شيء آخر. خبزة حلواء مثلا. . .

ـ ليذهب غداً منكم أحد يوصي أحد الخبازين على إعداد خبزة خاصة. لا آخذ الحلواء الجاهزة.

فأجاب الشيخ علاوة:

ـ هو ذاك. دار بن عبد الجليل ليسوا كسائر الناس.

فاستكثر عمر الزهور والحلواء معاً، فأعرب قائلاً:

ـ الورد والحلواء معاً، أليس هذا كثيراً؟

فأجاب الشيخ علاوة:

ـ ليس كثيراً، كان الواجب يقتضينا أن نشتري هدية للعروس...

فأنكرت العجوز كلثوم الفكرة:

ـ لماذا نشتري هدية للعروس؟ ليس بيننا وبينهم حتى الآن نسب ولا تواصل حقيقي.

فردّ الشيخ علاوة:

ـ أبوها صديقي، من أخلص وأنصح الأصدقاء. ولولا ذلك لما دعاني مع خاصة الخاصة لحضور الأمسية التي يقيمها غداً!

فأراد رضا أن يكهرب الجو بمزاحه الجادّ:

ـ دعاك لتقرأ الفاتحة، لا لصداقتك.

فرد عليه الشيخ علاوة بعنف وغضب:

ـ أنت لا تتكلم، لا أريد أن أسمع صوتك... أنت بدأت أعرف من أنت... ويومك ليس ببعيد!

سكت رضا ولم يردّ بحرف واحد. هو لا يعني الكلام بقدر ما يريد كهربة الجو ليس إلا. وقد حصل ما أراد.

وعاد الصمت من جديد، لكن العجوز كلثوم لم تعبر بعد عن كل رأيها في الموضوع، فقالت وقد حمدت لرضا سكوته بقدر ما تضايقت من تدخله:

ـ صداقة الرجال لا تستلزم الإهداء في مثل هذه الأمور. النساء هن اللواتي يتهادين.

فقال عمر:

ـ يتقارضن!

فردت أمه:

ـ يتقارضن أو يتهادين، تلك هي العوائد. اليوم تأخذ وغداً ترد... آخذ لهم الزهور والحلواء.

وسألها الشيخ علاوة:

ـ أنت ومن تذهبين؟

ـ أذهب أنا وزبيدة.

فتكلمت زبيدة كالمحتجّة:

ـ أذهب إلى العرس بدون حتى أن أذهب إلى الحلاّقة وبفستان القرون الوسطى!

فتساءل الشيخ علاوة في دهشة وتعجب:

ـ فستان القرون الوسطى؟ هل عندك فستان واحد؟ ما لديك من ملابس لا يحملها بعير!

فكر رضا وهو يسمع لفظة «بعير» أن أباه يعيش حقيقة بعقل ولغة العصور الماضية. أما نعيمة فأضحكتها عبارة عمها. بينما زبيدة راحت غير هيّابة، تحاجج أباها:

ـ ملابسي تليق للمسرح، لا لأذهب بها إلى الأعراس!

فأجابها الشيخ علاوة وهو متعجب منها:

ـ أنت أيضاً تعلمت اللجاج؟ لماذا إذن لا تذهبين تصفّقين مع أولئك اللائي يهرّجن في حلبات الميثاق؟

فتكلمت العجوز تؤيد بنتها:

ـ لها الحق، إن الموضة كل يوم تتغير. لباس المرأة ليس كلباس الرجل.. وهي ليست عجوزاً لتلبس أي فستان! إن العجائز أنفسهن صرن لا يلبسن اللباس التقليدي، أو الفساتين التي لبسنها في مناسبات سابقة!

فرد الشيخ علاوة وهو يزداد عجباً كما لو أنه يكتشف أفراد أسرته لأول مرة:

ـ ماذا جرى في هذا البيت؟ أنت أيضاً... لعلك تريدين أن أكتب إلى إحدى دور الموضات ليفصلن لكن فساتين؟ ماذا جرى في هذا البيت؟

فأجابته العجوز كلثوم:

ـ ماذا جرى لك أنت الليلة؟ أتريد أن تحرم علينا النطق؟ إذا كان كذلك فلماذا نحن جالسون هنا معك؟ إذا كنت أنت لا

تعرف ما يجري في الدنيا، فالناس ليسوا مثلك! تعيرنا بالتفصيل لنا في دار من دور الموضة... ولم لا؟ إذا كنت تريد مخالطة بن عبد الجليل وأمثاله عليك أن تكون مثلهم في كل شيء! أتريد أن أخبرك: إن بنتهم هذه التي تزوجت لا يعزّها أبوها مثل أختيها فتيحة ووهيبة ومع ذلك فصلوا لها فساتينها في دار من أكبر دور الموضة الفرنسية في باريس... نعم، بنتك غداً إذا ذهبت معي إلى العرس، ماذا تلبس؟

فتعجّب الشيخ علاوة مما يسمع، ولكنه أحسّ بأنه في مستوى أقل من صديقه عبد الكبير، لما أخبرته زوجته عن تفصيل جهاز العروس في باريس! لو كان هو لما فكر في ذلك. إن هذه الحياة التي يطمح إليها لا يعرف حتى مستلزماتها! زوجته التي لا تقرأ تفكر أحسن منه! وقال متمتماً: لا حول ولا قوة إلا بالله! ثم سأل بنته كما لو أنه يريد بذلك أن يعتذر لها عن جهله بما يجري في هذه الدنيا التي يريدها ولا يعرف كيف يصل إليها:

ـ وفستان السنة الماضية الذي اشتريته لك بألف وخمسمائة دينار، أين هو؟.

ـ فستان السنة الماضية أذهب به إلى العرس هذه السنة؟

ـ ولم لا؟

ـ أنت لا تعرف هذه الأمور...

ـ اسمعوا، إنها تجهّلني! أنا لا أعرف! إننا حقاً في آخر الزمان...

فأجابه رضا في نفسه: انك في لا زمان!

تدخل عمر مرة أخرى لفضّ المشكل، واقترح:

ـ خذي فستاناً من فساتين منى!

فردت زبيدة بقوة:

ـ أمشي عارية ولا ألبس لباس غيري!

فتكلّمت منى تحتّج بدورها على زوجها:

ـ من أين لي الفساتين التي تصلح للعرس؟ هل اشتريت لي فستاناً واحداً له قيمة منذ زواجي؟

ـ جاء دورك أنت أيضاً! والفستان الذي اشتريته لك من باريس؟

ـ بدراهمي اشتريته لي. وهو لا يصلح حتى للحمّام!

غاظ العجوز كلثوم أن تتحدث الكّنة بحضورها وحضور أولادها، فأخذتها بشيء من العنف:

ـ ألا تستحين، تتكلمين هذا الكلام؟ نهيتك من قبل، وحذرتك من اللجاج مع زوجك بحضورنا!

ـ ماذا قلت؟

ـ ماذا قلت؟ ألست في عقلك؟ ثم ماذا تعنين بقولك إن الفستان الذي اشتراه لك لا يصلح حتى للحمّام؟ إذا لم يعجبك قولي لأهلك يشتروا لك!

ـ لو كنت عند أهلي لما احتجت لأحد.

ـ ماذا فعل لك أهلك عندما كنت عندهم؟ أنسيت ما أتي به معك يوم أن دخلت عروساً؟

غضب الشيخ علاوة، وغضب عمر وغضب حتى مراد... وتدخلوا جميعاً لنهي العجوز كلثوم عن هذا التجريح الذي لا يليق أصلاً. وصاح عمر في زوجته آمراً إياها أن تذهب إلى غرفتها وأولادها:

ـ قلت لك كم من مرة لا تتركي أولادك وتأتي إلى هنا!

فأجابته محتجة:

ـ إذا كنت أجنبية فلِمَ أبقى في هذا البيت؟

تدخل الشيخ علاوة من جديد راجياً منها أن لا تعير أي انتباه لما يقال:

ـ انهم يهذون، هل تعاندين الهاذي؟ اسكتي ابنتي حفظك الله!

والتفت إلى الآخرين:

ـ لها الحق في هذا البيت أكثر منكم جميعاً. البيت بيتي أنا وأنا الذي أتصرف فيه.

وساد الصمت من جديد. وكان رضا يفكر في أن سهرات أهله تروّح عن النفس أكثر من أي سيرك مهما كانت برامجه! إنها مهزلة تجري كل ليلة في هذا الصالون... وخطر بباله: ماذا لو ارتفعت فجأة السقوف والجدران، وأضيء الحي إضاءة الملاعب الرياضية وكان أمام كل متكلم في هذا الصالون ميكروفون

متصل بمكبر صوت! لو وقع ذلك لجاءت الجزائر كلها تشاهد هذه الكوميديا بدون مقابل، كوميديا لأسرة لا تعرف أين تقع بالنسبة للطبقات الاجتماعية الموجودة أو التي هي في طريق التكوين!

أما نعيمة فكانت تقول في نفسها، لو تزوّجت لما قبلت أن أعيش إلا مع زوجي فقط!

ولعل الشخص الذي أقسم في نفسه أن لا يبقى مع أهله بمجرد الحصول على سكن، هو مراد الطبيب.

كان يردد في نفسه: أبداً، أبداً، لن أبقى معهم، أبداً.

وأراد الشيخ علاوة أن يعود من جديد إلى الموضوع، فأشار على زوجته أن تذهب وحدها أو مع دليلة، فقالت له:
أن تذهب وحدها أو مع دليلة، فقالت له:

ـ دليلة تذهب إلى العرس؟ متى كان ذلك؟

وكأن الشيخ علاوة تذكرها فجأة:

ـ وأين هي؟

ـ ذهبت مع صديقتها.

ـ ومن أذن لها في الذهاب إلى بيوت الناس؟

ـ أنا.

ـ ومتى صرت تأذنين أنت؟

فقام مراد محتجاً:

ـ ألا تستطيعون أن تتكلموا من غير أن تتخاصموا؟ أليس

هذا كثيراً في ليلة واحدة؟ أنا لا أبقى هنا.

فأجابه الشيخ علاوة، وكان يقول في نفسه: لو تدري ما وقع يا بني لعذرت أباك... لو تعرف أنك أنت أيضاً منغمس إلى أذنيك، وأن علائقك مع أجنبية أساءت إلينا جميعاً... وصرّح له:

ـ لا تنصرف. إننا نتحدث في أمور تهمّنا جميعاً. إن أمك لا حق لها أن تفعل ما فعلت: تدع امرأة تبيت عند الناس!

فردت العجوز كلثوم كاذبة:

ـ لو لم أعرف البيت وأهلها لما تركتها.

وفي الواقع هي لا تعرف لا البنت ولا أهلها. إنما كأم رأت من الضروري أن تغطي على بناتها، ولو لم يستشرنها. فسألها الشيخ علاوة:

ـ من أين تعرفين هذه العائلة؟

ـ هل ضروري أن تعرف أنت معارفي أنا؟

فقال لها وهو يفكر في نعيمة، ولكن بصوت منخفض لئلا يُغضب مرة أخرى مراداً:

ـ إن الوقت تبدل يا امرأة، تبدل! لو تعرفين ما يجري في هذه الدنيا...

ـ دعنا الآن من هذا الكلام، البنت في الأمان والضمان... ماذا نفعل، هل أذهب وحدي؟

تكلمت هالة:

ـ أنا يوم السبت عشية ليس لي دروس، أذهب معك.

ـ أنت لا!

ـ أنا إذا ذهبت معك أذهب في ملابس المدرسة!

أمر الشيخ علاوة أن تسكت أو تخرج:

ـ أنت أيضاً! ماذا جرى الليلة؟ إن تكلمت مرة أخرى خرجت!

فعادت العجوز كلثوم من جديد إلى الكلام ملمّحة إلى أنها تنتظر من حضورها هذا العرس أشياء هامة:

ـ أنا لولا أنه صديقك، ولولا أنني التقيت مع عمة العروس، وتحدثنا في مواضيع تهمّنا وتهمّهم، لما ذهبت!

فهم الشيخ علاوة أنها تعني خطبة وهيبة لمراد، فقال:

ـ الحضور لا بد منه. انها أسرة محترمة، وسعيد هو من ارتبطت أسبابه بأسبابها!

فالتفتت العجوز إلى زبيدة تشير عليها:

ـ أنت تذهبين معي، لا بد من ذلك. ألبسي قفطانك القسنطيني، إنه يسترك، إذا لم تريدي لبس فستانك...

ـ في الصيف ألبس القطيفة؟

ـ القفاطين تلبس في كل وقت!

فكر مراد بالرغم من عدم معرفته بما يلبس وما لا يلبس في الجزائر: أن أمه لا ذوق لها.

وفي النهاية أذعنت زبيدة وقد اشتمّت من كلام أمها ما قد يكون يعنيها هي، وقالت:

ـ بعد غد أفكر فيما ألبس. لكن من يعطيني أجرة الحلاّقة؟

فسأل الشيخ علاوة، وقد عاد إليه هدوءه وأمله في تحقيق ما كان يصبو إليه دائماً من زواج الطبيب ببنت سي عبد الكبير:

ـ كم يلزم لهذه الحلاّقة؟

فقالت زبيدة.

ـ مائة دينار!

فتكلم عمر مستنكراً:

ـ منذ متى صارت أجرة الحلاّقة في الجزائر بمائة دينار؟

فردّت عليه زبيدة:

ـ منذ أن صار الأمر لا يهمّك!

أراد عمر أن يشتمها على سوء أدبها لكن الشيخ علاوة منعه وهو يقول:

ـ لست أنت الذي يدفع، كلنا نعرف أنك لا تملك مصروف جيبك! (هازئا).

لم يدر عمر بالضبط ماذا يعني أبوه، وفكر أن السكوت أولى. فسألت العجوز:

ـ من يمشي معنا منكم يوم السبت؟

فاقترح الشيخ علاوة أن يذهب مراد، لكن هذا زعم أنه على موعد، وقال:

ـ أنا أرجعكما للبيت عندما ينتهي الحفل إذا شئتما، أما الذهاب معكما فلا يمكن، لأني على موعد. . .

فقال الشيخ علاوة:

ـ عمر يوصلكما.

ـ عشية السبت لي اجتماع بالوزارة.

ـ بالوزارة؟ لكن عشية السبت لا يشتغل أحد!

ـ لي اجتماع مع الأمين العام.

تساءل الشيخ علاوة في نفسه: لا شك أنه اجتماع يتصل بالمؤسسة التي يديرها؟ كان عمر ذات مرة أشار إلى أنه طرد أعضاء الفرع النقابي بالمؤسسة، واستولى على مكاتبهم. لأنهم في زعمه مشوشون. وخطرت بذهن الشيخ علاوة مرة أخرى رسالة البنك، فخشي أن يكون الاجتماع يتصل باختلاس أو تحويل لبعض أموال المؤسسة وتؤول الأمور إلى وخيم العواقب.

وسأله:

ـ لا شك لأمر مستعجل؟

فأجاب عمر بلا مبالاة واعتداد بالنفس:

ـ حول العمال بالمؤسسة. يهددون بشن إضراب يوم الاثنين، ولكنهم لن يضربوا. هم أجبن من أن ينفذوا تهديداتهم.

ـ وإذا أضربوا؟

ـ سأصدر قراراً بتجنيدهم في عملهم. فإذا لم يستجيبوا أستدعي الشرطة. . . لا أقبل في مؤسستي أيّ مشوش!

لاحظ رضا كيف نسب عمر المؤسسة إليه، كما لو أنها ملكه! وفكر أن عدم التدخل أفضل. لأن الكلام في مثل هذه المواضيع مع أفراد أسرته لا ينتهي إلى نتيجة. .

لكنه اندهش من غباء أخيه الذي لم يدرك خطورة موقفه مع العمال! وكان يعلم أن عمّال هذه المؤسسة مصمّمون على المطالبة بتغيير الإدارة مهما كلّفهم ذلك. يؤيّدهم في مسعاهم كل من الفرع النقابي وخلية قدماء المجاهدين بالمؤسسة.

وأحب الشيخ علاوة أن يغري مراد بالذهاب إلى دار بن الجليل، فقال يخاطبه:

ـ لو ذهبت أنت معهم، ما دام أخوك لا يستطيع. . . إن هذه العائلة من العائلات العريقة في الجزائر. سي عبد الكبير هذا رجل معروف في كل الأوساط، لا لثرائه فقط، بل لقيمته وكريم محتده. وله ابن مهذّب رقيق الشمائل، وبنات أصيلات مثقّفات.

فأضافت الأم تؤيد زوجها:

ـ وهيبة أجمل فتاة في الجزائر بلا مبالغة!

اشتمّ رضا من هذا الكلام أن أبويه يمهّدان لخطبة بنت عبد الجليل إلى مراد. ولاحظت نعيمة وكذلك زبيدة من جهتها ما

يرمي إليه الشيخ والعجوز.

اقترح مراد أن يوصلهما عمر قبل أن يذهب إلى الاجتماع، ويذهب هو لارجاعهما في المساء. وهو الاقتراح الأول نفسه. فقال عمر:

ـ قلت لك أنا لي اجتماع.

ـ أعرف. توصلهما قبل الذهاب...

ـ طيّب. لكن في الساعة الثانية والنصف. لا قبل ولا بعد!

فقالت العجوز:

ـ كنا نفضل أن تذهب في الساعة الثالثة. لكن لا بأس، نذهب في الثانية والنصف.

وكان عمر طوال السهرة لا ينفكّ يلاحق نعمية بنظراته المبتسمة أحياناً، إلى درجة أنه أثار انتباه مني ورضا. وكان يعتقد أن رتبته في العائلة من حيث السنّ تجعله بمنأى عن كل ظنّة. وسأل أمه ليعطي لنظراته نحو نعيمة محتوى معيّناً، فقال:

ـ من عادتك لا تذهبين يوم الخميس للحمّام؟

ـ لم أكن أنوي الذهاب. إنما نعمية ألحّت عليّ أن أرافقها، لأنها اليوم لا دروس لها.

ـ آ... ذهبت مع نعيمة!

ـ ذهبت أنا ونعيمة وزبيدة.

ـ لو أخبرتني لجئت أنتظركن عند الخروج. لأن العودة من

الحـمّام في الغالب تعـرّض صاحبهـا إلى البرد أو الـزكام إذا لم يق نفسه جيّداً، ولا سيما نعيمة. . . التي ربما لم تكن متعودة. . .

أدارت نعيمة رأسها إلى جهة معاكسـة لجهته، معـربة بـذلك عن تذمّرها من انشغالـه بها. وكـان فعلاً لا يفتـأ يضايقهـا بكل الوسائل المتاحة له، بالنظر، باللمس المفتعل فيـه عدم الانتبـاه، بالمزاحمة في ممرات البيت. . . إلى درجة أنها صارت تتجنّبه بسبب وبدون سبب!

لاحظ رضـا من جهتـه تضـايق نعيمـة واستمـرار أخيـه في ملاحقتها بالنظرات الفاجرة، والتلويحات المعربة عما كـان فيه من هوس.

أما الشيخ علاوة فقد كاد يقفز عند ذكر اسم نعيمة. إنه يـود أن ينساها، حتى يتفرغ لقضيتها. لكنه سيطر على انفعاله. وراح ينظر إليها بنصف عين متمنّياً لها أي مصيبة مفاجئة تريحه منها.

واصل عمر حديثه عن الحمّام، مضيفاً إشارات أخرى إلى مـا سبق. . . لكي تفهم نعيمـة جيداً أنـه يعنيها هـي. لم يفكـر في إخوتـه لأنـه يعتقد أنـه لا يمكن أن يكون محـل شك من أحـد. وقال:

ـ حمّام العرب جيّـد للذي يتحمّل الحـرارة، والدلـك، والجوّ الثقيل.

تضايقت زوجته من ذلك أكثر من نعيمة وقالت له:

ـ إذا كان الحمّام يعجبك فلماذا لا تذهب إليه؟

فهم ما تعنيه، ولكنه فضل أن لا يعير أهمية لمقالها، ورد عليها مبتسماً وهو يود لو سحقها:

ـ تظنين أنني مثلك، أعمل ما أريد في الوقت الذي أريد؟ إن حياتي موزّعة بين العمّال ومشاكلهم والاجتماعات، اجتماع لتحضير مشروع الميزانية، اجتماع عن الميثاق، الاجتماع الأسبوعي مع المسؤولين بالمؤسسة. . . .

لكن رضا أدرك محاولة تخلصه من المأزق فأراد أن يرجعه إليه، ولم يكن يحترمه قيد أنملة:

ـ لو طالبتك أمي بالمجيء إلى الحمّام، عن أي اجتماع كنت تعتذر؟

غضب عمر غضباً شديداً، ولكنه افتعل الهدوء، لينتقم كما يريد. وكان الشيخ علاوة حينئذ يستعدّ للتدخل، لأن كلام رضا يغضبه دائماً، سواء كان على حق أو على باطل. وكان تدخّل رضا هذه المرة غير موفّق. من عادته التأني والإصابة في المرمى. . . لكن هذه المرة لسبب ما، تعجّل في الكلام، وأتاح الفرصة للنيل منه بدون مبرر. فقال عمر محاولاً إثارة أبيه عليه:

ـ أتظن أن هذا العبث يجديك؟ أم تعتقد أنك دائماً صغير؟ أخذت البكالوريا في التاسعة عشرة بدل الثامنة عشرة، لعبثك. فقلنا ما زال صغيراً. ثم أخذت ليسانس الأدب في خمس سنوات بدل ثلاث، لأنك انتقلت من العبث إلى عبث أشد، تنظم

التطوّع للثورة الزارعية. فقلنا عندما يكتشف الحقائق ويعرف ما يجري في البلاد يرعوي. وأنت الآن تزعم لنا إعداد ديبلوم الدراسات المعمقة في الأدب! ولست أدري ما معنى الدراسات المعمقة في الأدب؟ ولك أكثر من ثلاث سنوات... وصرت، كما قيل لي، زعيماً للتخريب في الجامعة مع المخربين، باسم التقدمية والماركسية والفوضوية... ألا تعتقد أنه حان الوقت لأن تفيق؟ إنك دنّست عرض عائلة شريفة. أنت إلى الآن عالة عليها!.

كان ردّ فعل أفراد العائلة من سماع هذا الخطاب مختلفاً. فمراد طأطأ رأسه إلى الأرض كمن يود أن يشغل نفسه بشيء إلى أن ينتهي التنابز. نعيمة كانت تشعر بحنق على عمر، وتودّ لو استطاعت أن تفضحه أمام الجميع. فتقول لهم: هذا الذي تعتقدون أنه رجل عاقل، يأتي في الدرجة الثانية بعد عمّي، إنه لا ينفكّ يعترض طريقي بشتى الوسائل، لا يستحي من عمره ولا من أولاده ولا من زوجته ولا من أي شيء... ولكنها لا تستطيع! متى كانت تحتقره، ولكنها لا مناص لها من الإذعان لما يقول ويريد، لأن أولادها أربعة وهم الحقيقة الزوجية الوحيدة التي تحسّ بها... العجوز كلثوم، لا تبحث عن الظالم من بين أولادها. هي تودّ الوئام قبل كل شيء. لكن ما قاله عمر لم يلاق رضاها. هي تعرف أن رضا لا يحبّه أبوه ولا إخوته... زبيدة تكره عمر سواء كان على حق أم على غيره، لأنها منذ الطفولة وجدته محظوظاً مع والديه أكثر منها، لا لسبب، إلا لأنها بنت!

أما الشيخ علاوة فهو ينصره بالحق وبالباطل. وخاصة إذا كان النزاع بينه وبين رضا، أو إحدى البنات. ولذلك اغتنم الفرصة ليحذّر رضا ونعيمة في الوقت نفسه، ولو بصورة غير مباشرة، فقال:

ـ في نهاية هذه السنة الدراسية، ولربما قبل، أطهّر هذا البيت من كل دنس...

لم يفهم أحد ما يعني. وسكت لحظة ليرى تأثير مقاله على نعيمة بالخصوص. لكن هذه، كما لاحظ، لم يبد عليها كبير اهتمام لما قال. فأضاف:

ـ أطهّر هذا البيت من كل دنس، ومن كل انحراف عن الجادة. هذا بيت لا يظل سقفه ملحداً ومؤمناً، ولا طاهراً ومدنّساً، المرأة والرجل في ذلك سيان!

فأجابه رضا مبتسماً في شيء من الأسف:

ـ أثّر عليك، أليس كذلك؟ المؤسف أنك لا تعرف أبناءك!

فرد الشيخ علاوة بسرعة، كما لو خشي تلاشي الدفعة الانفعالية التي كان فيها:

ـ أعرفكم... أعرفكم جيداً. لست شيخاً يفكر في موته كما تتوهمون. أفكر في كل شيء وأعرف كل شيء، ولن أموت! لا ينبغي أن ينتظر أحد وفاتي عما قريب! لا تخفى عليّ في هذا البيت خافية. أعرف كل ما يجري فيه وخارجه من ساكنيه... ليكن مفهوماً أنني لا أتسامح...

فتكلم مراد وقد أضجره إلى درجة كبيرة ما يجري في هذه الليلة بالصالون فقال:

ـ لو نتكلم في موضوع آخر، أليس أليق؟

لكن زبيدة لم ترد تضييع الفرصة للتنديد بعمر، فقالت:

ـ عمر يريد أن يكون لنا أباً وأبونا حيّ!

فردّ عليها بعنف:

ـ اخرسي أنت!

نصحتها أمها بالسكوت وعدم التدخل، بين الرجال.

وكانت نعيمة طوال هذه السهرة تحاول تصنيف عائلة عمّها، فوجدت أن رضا بمفرده الذي يشكل الجانب المشرق فيها، الذي ينظر إلى المستقبل أكثر مما ينظر إلى شيء آخر. ولعل دليلة أيضاً قد تتبعه في طريقه. لكن دليلة تشكل بمفردها قضية، لا تعرف عنها نعيمة شيئاً... أما زبيدة فثورتها سلبية، هي نوع من الحقد على عنوسها. وأما الباقي من أفراد الأسرة فهم في نهاية المطاف يتلاقون في النظرة الوراثية للأمور التي يسبّبها الخوف من التطور، والخوف من تضييع عاجل المصالح!

وبالنسبة لعمر فلم تكن تجد في نفسها له سوى المقت المقيت. إنها لو استطاعت لوقفت جهاراً الليلة إلى جانب رضا.

إن ما كان يحزّ في نفسها، في حقيقة الأمر، ولو أنه لم يتبلور بدرجة كافية، هو أنها لم تحاول طوال هذه المدة التي قضتها في

هذه الدار التعرّف على رضا. لو لم يحك لها أحد زملائها عن تفتّح رضا للفكر المستقبلي لعاملته بالأقل في نفسها كما تعامل أبناء عمّها الآخرين. هي علمت منذ مدة أنه أحد الذين يسهرون على تنظيم التطوّع الطلابي، ولكنها خشيت أن يكون ذلك منه رياء، أو أن لا يفتح نفسه بسهولة للحديث إليها... ثم إن طبيعة الأسرة لا تسمح بأن تكون لها به صلة... كل الصلات بين المرأة والرجل لدى العجوز كلثوم ولدى الشيخ علاوة، ولدى منى، ولدى حتى زبيدة، لا تُفسَّر الا مشبوهة. هم كلهم أظنّاء! إن خروجها معه هذه الليلة لحضور اجتماع الميثاق لم يمرّ بدون تعليق نفسيّ لدى النساء. أما لو سمع به عمر أو الشيخ علاوة لكان هو موضوع اجتماع الصالون...

بعد فترة الصمت التي سادت من جديد دقّ في هذه المرة جرس الهاتف ليعيد الحيوية إلى الأسرة.

ذهبت زبيدة لتردّ، ونادت مراداً:

ـ اليامنة تريد أن تكلمك ـ ابنها مريض!

ـ وماذا أفعل لها أنا؟

فألحت عليه الأم:

ـ قم يا مراد كلِّم أختك، قم. إن ابنها مريض.

قام مراد إلى الهاتف كالمكره وسأل:

ـ ماذا وقع له؟

فأجابه صوت اليامنة:

ـ لست أدري، عنده الحمىّ، وكرشه جارية. . . لم يصب بإسهال أبداً قبل اليوم! لست أدري ماذا أفعل له؟

ـ كم بلغت درجة الحمىّ عنده؟

ـ تقرب من تسع وثلاثين! إنه في حالة خطرة!

ـ تسع وثلاثون بالنسبة للصبيان ليست شيئاً كبيراً. لعله ينبت؟

ـ منبت الثنايا منتفخ، ولكن لا أظن كل هذا الإسهال وهذه الحمىّ بسبب ذلك

ـ لا شك أن ما به الإنبات.

ـ وماذا أفعل له يا مراد؟

ـ وماذا تفعلين له. . . أنا لست طبيب أطفال، لا أعرف شيئاً في أمراض الأطفال.

فقالت له أمه من بعيد:

ـ مراد! تقول لأختك هذا الكلام؟

ـ وماذا أقول لها؟ لا، لست معك أنت. أتكلم مع أمي. اسمعي، اليامنة اسمعي إليّ. . . خفّفي من ملابسه وبردّي رأسه بالماء أو الخلّ. هل عندك شميعات لحمىّ الأطفال؟

ـ لا.

ـ من الطبيب الذي يتابعه؟

ـ يتبدلون، كل مرة واحد. . .

ـ في «بارني» أليس كذلك؟

ـ نعم، في عيادة الأطفال.

ـ سمعت أن متابعة الأطفال هناك جيدة. غداً احمليه إلى الطبيب. هل له دفتر المتابعة؟

ـ نعم.

ـ إذن خذيه غداً صباحاً للطبيب يفحصه. على كل حال لا تتحيّري.

ـ كيف لا أتحيّر يا مراد!

ـ اسمعي، خففي ملابسه، وأعطيه الماء يشرب في كل وقت.

ـ لكنه مريض، مريض...

ـ زوجك أين هو؟

ـ هنا بالبيت.

ـ لماذا لا تنقلونه إذن إلى قسم الاستعجالات للأطفال؟.. انكم لا تسكنون بعيداً عن المستشفى.

ـ نذهب إلى المستشفى وحدنا ونبقى ننتظر إلى الصباح...

ـ لماذا تنتظرون إلى الصباح؟ تنتظرون دوركم والسلام. فقالت الأم مترجّية:

ـ لماذا لا تذهب معهم يا مراد؟ هي وزوجها لا يعرفان شيئاً. والمستشفى بدون معرفة لا يقضي صاحبه أي شغل.

فقال لأخته بقوة:

ـ حضري نفسك، إنني آت.

وضع السماعة بغضب، وقال لأمه:

ـ بدون معرفة... بدون معرفة... هذا السلوك هو الذي جعل كل شيء بالمعرفة! الأطباء يعملون عملهم لا يهمّهم الغنيّ والفقير. تهمّهم حالة المريض...

ـ لكن يا بني هذه أختك، ولو عرفت ما تفعل لما أزعجتك. ابنها مريض... وأخوها طبيب، ماذا تفعل، إن لم تستشره هو أولاً؟

ـ أنا جرّاح، لست طبيباً. فرق بين الجرّاح والطبيب المعالج. فرق كبير. في الصباح لما جاء رجل الإسعاف يبحث عني وقال إن أباك أوصى بأن تسهر أنت على علاج الجريح، ذهبت. بالرغم من أن قسم الاستعجالات له أطباؤه... الجراحة عملي، ولو أنني لا أعمل بقسم الاستعجالات....

فقال الشيخ علاوة وقد فهم تعريض ابنه بما يسبّبه له أهله من مضايقات في زعمه:

ـ الشخص الذي أوصيت عليه لم تكن إصابته عادية. حاول أن ينقذ امرأة من نشّال بالحافلة، فطعنه بخنجر أحد هؤلاء الأشقياء الذين مرروا حياة الناس.

وكان الشيخ علاوة يشعر بالخيبة من ردّ فعل ابنه. وقال في نفسه لو أن التي طلبت مساعدته هي «ديدي» لما استفصح واستعقل إلى هذا الحد... فقال مراد:

ـ أعرف القصة. . . حكوا لي كل شيء. أقصد أن التدخل والوساطة في مثل هذه الأمور ليست دائماً سهلة. أتوسط اليوم لدى شخص. غداً ينبغي أن أردّ الدين. . ونصير حينئذ لا نحيا في الطبّ المجاني، ولكن في طب الصداقات والوساطات. ونصير نعالج الموسوسين بدل المرضى الحقيقيين الذين ليس لهم معارف. . .

خرج مراد على مضض لمرافقة أخته وابنها إلى مستشفى حسين داي الجامعي وخرج رضا ذاهباً إلى غرفته.

فعلق عمر على ما قاله مراد متهكّماً:

ـ هذا البيت سكّانه كلهم مناضلون! لولا الوساطات لما صار هو نفسه طبيباً! من ذا أعطاه الدراهم في فرنسا عندما كان يقرأ؟ هل طبّه المجاني الذي أرسل له نفقاته بالعملة الصعبة طوال إقامته بالخارج؟

لم يتكلم الشيخ علاوة. كان يشعر بحزن جديد يضاف إلى ما هو فيه. . . إنه لم يفكر لحظة أن مراداً سيقصر إلى هذا الحدّ مع أقاربه. نادته أخته بالليل، فتضايق أمام والديه. . . وقال الشيخ علاوة في نفسه: «الأنبياء والمرسلون بدأوا بالأقارب. . . الله قدّم القريب ولو في السكن. . . ماذا يعدّ نفسه هو؟ لو كانت اليامنة هي الطبيبة وكان هو أبا الطفل المريض وطلب مساعدتها وقالت له ما قال لها. . . ماذا يقول؟ لا. ما هكذا تُورَد الإبل يا سعد»!

وقام من مكانه متوجهاً إلى غرفته، معلناً بذلك عن انتهاء

السهرة. وقام الآخرون وهم غير راضين عن السهرة هذه الليلة، ما عدا العجوز كلثوم التي بقيت بالصالون تنتظر رجوع مراد لتعرف ما تمّ بخصوص ابن بنتها المريض.

وقالت لزبيدة ونعيمة وهما خارجتان:

ـ واحدة منكما تنام مع هالة.

فرفضت زبيدة.

* * *

كانت نعيمة وهي بفراش دليلة تستعيد في نفسها يومها الحافل بالاكتشافات الجديدة عن مجتمع المدينة: عرفت الحمّام الذي سمعت عنه قصصاً لا تحصى. حضرت اجتماعاً عمومياً حول الميثاق ضمّ مختلف الفئات... لكن ما كان يلاصق نفسها أكثر من كل شيء آخر هو رضا! إنها تشعر نحوه بشيء غريب، أكثر من الاحترام! وازنت من حيث لا تشعر بينه وبين عمر فوجدت الفرق بينهما كبيراً. عمر لا ينفكّ يضايقها وهو متزوّج وهو كبير من حيث السن، بينما رضا الأعزب الذي ما زال في مرحلة الشباب، لم يبد أي حركة مثيرة طوال المدة التي كانت جالسة فيها إلى جانبه. كان بإمكانه الكثير، ومع ذلك لم يدع حتى جسمه يمسّ جسمها!

واكتشفت من ناحية أخرى لأول مرة أن أسرة عمّها غير متجانسة لا أخلاقياً ولا فكرياً. إن الصراع واضح بين أفرادها... وخاصة بين رضا وعمر! أما مراد فهو عنصر آخر

لفّق تلفيفاً في جسم هذه الأسرة. حكى لها رضا عنه أنه ذات مرة سئل عن إحساسه وهو يرى «امسترونغ» يضع رجله على سطح القمر لأول مرة فقال: «ينبغي أن ننتظر عودته إلى الأرض لنرى مقدار تحمّل جسمه لظروف السفر في الفضاء!».

كانت نعيمة تستعيد في نفسها هذه الأفكار وإذا بهالة تتكلم:

ـ أتعرفين لماذا لم ترد زبيدة أن تنام معي؟

ـ لماذا؟

ـ لأنها تكرهني.

ـ لماذا تكرهك؟

ـ تكرهني كما تكره كل النساء.

ـ من قال لك إنها تكره كل النساء؟

ـ أنا أعرف ذلك. هي تحسب أن النساء كلّهن يتزوجن قبلها!

ـ لا، أنت غالطة. زبيدة لا تكرهك. إنما تعودت على مكانها فلم ترد تغييره، هذا كل ما في الأمر.

ـ وأنت لماذا اذن جئت معي، وغيّرتِ مكانك؟

ـ أنا مكاني هنا أو مع زبيدة، إن هو إلا مؤقت.

ـ لا، هي تكرهني، أعرف ذلك. لكن أنا لن أبقى مثلها... أنا أتوقف عن الدراسة في الثامنة عشرة ولو لم أنجح في البكالوريا.

ـ ولماذا؟

ـ لأتزوج.

ـ تتزوّجين؟ تفكرين من الآن في الزواج. وأنت ما زلت...

ـ وأنا ما زلت ماذا؟ بأي شيء تفضلني النساء اللواتي يتزوجن؟

ـ أقصد أن الزواج هو آخر ما ينبغي أن تفكري فيه.

ـ هو أول ما أفكر فيه. أتريدين أن أبقى عانساً كزبيدة؟ إن المرأة التي تطيل الإقامة في دار أهلها كزنبيل القمامة!...

ـ كل النساء يرغبن في الزواج في وقت من الأوقات، لكن ليس بأيديهن...

ـ لا تتزوج إلا المرأة التي لا تريد الزواج.

ـ أنت غالطة. وإذا لم يخطبك أحد؟

ـ لا يخطبني أحد! لو شئت لتزوجت من غد! أنت لا تعرفين كم عدد الرجال الذين ينتظروننا أمام الثانوية في وقت الدخول وفي وقت الخروج! وأولئك الذين يلاحقوننا بسياراتهم...

ـ أنت تبالغين. هنالك من يأتي إلى المدرسة مع أخته أو ابنته أو قريبة له... أما أصحاب السيارات فكثيراً ما يستعملون المنبه لعرقلة أو تنبيه أحد المارة، والنساء يعتقدن أنهنّ معنيّات بذلك.

ـ أنت الغالطة، لا تعرفين الرجال!

تعجبت نعيمة من كلام هالة... وقالت في نفسها: إن دار

عمي قائمة على بركان. ثم قالت لها هالة دون أن تضيف شيئاً آخر:

ـ تصبحين على خير!

فكرت نعيمة في أجزاء من كلام هالة، وعادت إلى ذهنها كلمة: بأي شيء تفضلني النساء اللواتي يتزوجن. فتحسست بأصابعها نهديها بدون وعي منها، ثم نزعتها بسرعة، كما لو أنها عملت عملاً لا يليق!

ومضى بها تداعي الخواطر من واحدة إلى أخرى حتى أوصلها إلى النوم.

* * *

- 8 -

فتحت دليلة عينيهـا فوجـدت النور يمـلأ الغرفـة، فـظنت أن الصباح قـد انغمس كلية في النهـار. وأحست بثقـل في رأسهـا يقرب من الصداع. نظرت إلى سرير نصيرة فرأتها نائمة فانقلبت على ظهرها وأغمضت عينيها تحـاول الإيحاء إلى وعيهـا بالتـلاشي لتدخل في النوم من جديد. لم يكن إلا نَفَسها يتحرك ببطء فيعلو بطنها حتى يكاد يتساوى مع صدرها، ثم ينخفض. وكانت تبدو في غلالتها كاعباً كأنها في طور المراهقة.

لم تلبث إلا لحـظات في تلك الوضعيـة الساكنـة ثم قفزت من الفراش، واتجهت إلى النافـذة ففتحت مصراعيها، وإذا بهـا ترى الصبح في تنفسه الأول! لقـد كانت هـذه الغرفـة مقابلة لمطلع الشمس من وراء أفق جبال جرجراء. لا عمارة تقابلها ولا حاجز يحـول بينها وبـين الأفق البعيد. مـوقع الـدار على شفـا انحـدار عمودي يجعل من المستحيل إنشاء بناية تبلغ مستواه.

تنفست أنساماً مبللة بالرطـوبة التي تضرب الـرقم القياسي في هذه الجهة من المدينة.

اتكـأت على داربـزون النـافـذة الحـديـدي وراحت تنـظر إلى المرسى من تحتها في نهاية شمال المدينة.

أبو عبدو البغل
https://facebook.com/groups/abuab/

كانت سفن كثيرة واقفة خارجة المرسى، ليس فيها ما يدل على الحياة سوى الأدخنة التي تخرج منها في تثاقل شديد. فكرت دليلة أن هذه السفن لا شك تنتظر إفراغ شحناتها. وإذا بصيحة وداع تنطلق من إحدى البواخر المغادرة للمرسى في اتجاه الشمال، تلوّث سكون المدينة الغافية. تساءلت:

ـ ترى إلى أين تتجه هذه الباخرة؟

وخطر ببالها أنها لو سافرت لما ركبت البحر، لأن البواخر بطيئة الحركة وإنما طائرة أو صاروخاً يجعلها في لحظة لا تنتمي إلى عالم كل من تعرفهم!

وإذا بنصيرة تحيّيها وتقول:

ـ هل نهضت؟

ـ ظننت أن الساعة هي التاسعة أو العاشرة لشدة الضوء بالغرفة. عندي أنا حين تكون الساعة العاشرة يكون الضوء مثل الآن في غرفتك! لأن نافذة غرفتي مغطاة بأغصان شجرة زعرور، تجعل النور لا يصل إليها إلا بقدر.

ـ هذه الغرفة في الصيف تشتدّ فيها الحرارة صباحاً حتى تصير في منتصف النهار جحيماً. هي جميلة في العشية والليل.

ـ بالليل جميلة جداً! شعرت البارحة وأنا أرى الجزائر من هنا كأني أسبح في فضاء من نور! جميلة جداً الجزائر من هذه الغرفة... وجميلة في الحقيقة من كل مكان، إنما فوضى السكان...

ـ أتظنّين؟

ـ هل تشكّين في ذلك؟

ـ السكّان كلمة عامة لا تعبّر بدقّة عن الواقع.

ـ وما هي الكلمة الدقيقة التي تعبّر أحسن في نظرك؟

ـ المتساكنون بالجزائر!

ابتسمت دليلة من تفكير صاحبتها وتساءلت:

ـ ألسنا شعباً واحداً؟

ـ هذه أيضاً كلمة عامة. ما معنى الشعب؟

ـ الشعب هو المجموعة البشرية التي تسكن وطناً واحداً في حدود جغرافية معيّنة، لها لغة واحدة وتاريخ واحد ومصير واحد... أليس كذلك؟

ـ لا. أنا أتصوّر غير ذلك. الشعب هو الأغلبية المسخّرة لخدمة الأقلّية!

ـ أهاه! متى تحوّلت هذا التحوّل؟

ـ لم أتحوّل، تطوّرت...

فكرت دليلة فترة من الوقت فيما قالته نصيرة وهي تتأمل البواخر الواقفة التي يكتظّ بها المرسى ثم قالت:

ـ في الواقع أفراد أسرة واحدة يعيشون أحياناً عيشة المتساكنين الأعداء، لكن أنا أرى الجزائر من زاوية أخرى...

ـ من أي زاوية؟

ـ أنا أرى مجتمعنا أساساً مجتمع رجال. فالنساء فيه محكوم عليهنّ بالوقر في بيوتهن. فإذا ما خرجن فللحمّام، أو لبعض الأسواق والدكاكين.

ـ صحيح ، لكن علينا تغيير هذا الواقع .
ـ بماذا نغيّره؟ بقتل الآباء؟ أو الإخوة؟ أو الأزواج؟ أو الأحباب؟
ـ ليس الرجال كلهم سواء . أعداء المرأة في أي مجتمع هم أعداء الطبقات الكادحة .
ـ قد يكون ذلك وقد لا يكون . المجتمعات الرأسمالية ليست حليفة للطبقات الكادحة ولكنها ليست عدواً للمرأة على كل حال .
ـ أستطيع أن أبيّن لك كيف . . .
ـ لا ، ليس الآن . أنا أفكر في شيء آخر تماماً .
ـ ما هو؟
ـ تعالي إلى هنا .
قامت نصيرة والتحقت بها إلى النافذة، فلاحظت دليلة جمال جسم نصيرة وهي تبدو كالعارية في غلالتها . فقالت في نفسها : «إنها جميلة» ثم قالت لها جهاراً :
ـ لك جسم مثير!
ـ من أجل هذا ناديتني إلى هنا؟
ـ لا ، لاحظت هذا وأنت مقبلة عليّ . . . لا تخافي، لست أحد الكريموات!
ـ أيضاً تفكرين فيه!
ـ دعينا من هذا الآن . انظري إلى البواخر . . .
ـ انني أراها واقفة . . . هل ترين أنت غير ذلك؟
ـ ألا تشبه شيئاً؟

ـ لست أدري . . . لا أرى فيهـا أكثر من بـواخر تنتـظر إفراغ شحناتها. ماذا ترين فيها أنت؟

ـ أنا أشبهها بنسائنا، والحبالى منهن على الخصوص!

ـ ما هو وجه الشبه؟ (بابتسام)

ـ وجه الشبه هو إفراغ الحمولة!

ـ ولكن . . . .

ـ (تقاطعها) انتظري لحظة. . . فكّرت في هذا الشبه ثم قلت في نفسي إن البـواخـر تتنقّـل بـارادة ربـابنتهـا والنســاء بـارادة الـرجال. . . في مجتمعنـا على الأقـل. . . ثم قلت في نفسي، ان النساء هن اللائي يحبلن، لكن بقاءهن بالبيت لا يجعلهن عرضة للنظر في كل مكـان وهن حبالى. ثم قلت، لـو كان الـرّجل هـو الذي يحبل بدل المرأة فكيف تصير الجزائر؟

ضحكت نصيرة ضحكاً عالياً وقالت:

ـ إن لك أحياناً بعض التعابير. . .

ـ لا تضحكي. . . استمعي إليّ. فكـري في ضيق شـوارع الجزائر والتواآتها وصعودها وهبوطها، فكري في الديموغرافية التي نحن فيهـا. . . ثم في خضمّ كل ذلـك تخيّـلي الـرجـال من سن الرابعة عشرة إلى سن السبعين، لأن الرجال على ما يظهر يلدون حتى في سنّ السبعـين! تخيليهم حابلين، هـذا في ثلاثـة أشهـر، وذلك في خمسة، والآخر في الثامن الخ. . . لأنه قبل ثلاثة أشهـر لا يظهر الحمـل على مـا أظن (تفكر في نفسهـا). . . ثم من كل ذلـك، حاولي أن تتخيـلي مشهداً عـاماً في أي نهج أو شـارع أو

ساحة من الجزائر. . . إنك يقينا لترين مشهداً فذاً لم يخطر على فكر بشر! لأن الرجال لا يستطيعون البقاء بالبيت!. . .

ـ إن أفكارك غريبة! انك ترين الحياة جدّ سوداء!

ـ هل ترينها أنت بيضاء؟

ـ لكن لا إلى هذا الحد!

ـ أقول لك شيئاً آخر. . . نحن الآن، أنا وأنت من الناحية البيولوجية في سنّ تجعلنا في حاجة إلى إشباع رغباتنا الجنسية. هل نستطيع أن نبحث معاً عن رجل، نشبع منه رغباتنا ثم نرميه؟ طبعاً لا. بينما الرجال يستطيعون أن يشتركوا عشرة في امرأة واحدة!

ـ إنك تخوّفينني بهذه الأفكار!

ـ لا تخافي. أنا أتكلم. لأني أبحث عن حقيقتي، عن أشياء لا أستطيع أن أقولها لك الآن. . .

ـ ومع ذلك فإن حالتك غريبة!

ـ لأني اكتشفت أننا نعيش في سراب!

ـ لكن أنت لست الجزائر، ولا الجزائريات! لماذا هذا كلّه؟

ـ ما دمت جزائرية فأنا الجزائر وأنا كل الجزائريات! لكن لا تتحيّري كثيراً. إن غرفتك ذات موقع جميل. والجمال لا يوحي بالسرور فقط، بل يوحي أيضاً بأشياء أخرى. . .

ـ دليلة! ماذا جرى لك؟

ـ أودّ أن أجامع رجلاً بدون أن أخشى الحمل!

بلغت من نصيرة الدهشة أقصاها، وهي تسمع إلى دليلة

وأفكارها الغامضة الغريبة. وقالت تجاريها:

ـ ليس الجزائريون هم الذين اكتشفوا الأدوية الواقية من الحمل، ولا الألبسة الجنسية الواقية، ولكن ليس ممنوعاً على الجزائرية أن تستعمل الدواء، أو تتّقي الحمل بوسائله وألبسته!

فكرت دليلة أن صاحبتها على علم بالأقل بمثل هذه الأمور. وقالت:

ـ ما أريد ليس الدواء، ولا الواقي من أي نوع كان. أريد أن أكون كالرجل، لا أحبل وأعمل العملية بصورتها الطبيعية!

ـ لا تستطيعين تغيير الجنس البشري، ولا الكون!

ـ لكني أستطيع تغيير الفكر البشري!

ـ ذلك ممكن. لكن ينبغي...

ـ أعرف الأغنية... الكفاح الطويل. بالنسب إلى المرأة كل شيء طويل...

ـ ليس للمرأة فقط، كل الناس. المجتمعات لا تتغيّر بعصا سحرية يغيّرها الكفاح المستمر الطويل!

ـ أنت تتكلمين سياسة، وأنا كفتاة تحيا في أسرة تدعى أسرة الشيخ علاوة بن خليل الذي يريد أن يكون ولو في آخر حياته معتبراً كأي بورجوازي آخر...

ـ (بابتسام) هل يريد أبوك أن يكون بورجوازياً؟

ـ أبي صديق لأبي كريمو!

ـ احكي لي قصتك مع كريمو. أظنه هو عالم السراب الذي تعنين!

ـ ربما. ولكن ليس هو العالم، وإنما هو الطريق... أنا أتصور البشرية يتجاذبها قطبان رئيسيان، قطب السراب وقطب الحقيقة، أحدهما في الشمال والآخر في الجنوب.

ـ الأولى أن تقولي، قطب اليمين وقطب اليسار!

ـ والإنسانية انطلقت من قطب اليمين متجهة إلى قطب اليسار في طريق مليء بالدماء... لكن قطب اليمين جاذبيته عنيفة، بحيث لا يفلت منه إلا الذي قطع بينه وبين الحبل كل رابطة، في كل خطوة يخطوها.

ـ الأفضل أن تقولي، الا الذي لغم كل خطوة قطعها...

ـ نعم، تعبيرك أجمل... أنت تدرسين العلوم الإنسانية، بل درستها، وأنا أدرس الحقوق.

ـ لم أدرس كل العلوم الإنسانية، درست منها جزءاً ضئيلاً هو التاريخ!

ـ مع أنك اقترحت تلغيم كل خطوة تتّصل بالماضي!

ـ تلغيم كل خطوة مع اليمين، لا مع الماضي!

ـ أليس اليمين هو الماضي؟

ـ لا، ليس هو الماضي.

كأن دليلة افتكرت شيئاً فجأة فسألت:

ـ كم الساعة الآن؟

ـ تكلّمي، ما زال الوقت أمامك. الساعة السابعة إلا ثلثاً...

ـ نتكلم هذا الكلام في هذا الوقت المبكر!

ـ ولِمَ لا؟ هل للكلام أوقات معيّنة؟

ـ قبل السابعة نتكلم عن اليمين وعن اليسار! كما لو أن حياتنا معلّقة بهما!

ـ معلقة بهما. أتشكّين في ذلك؟

ـ لست أدري. الذي يهمّني الآن هو كأس ويسكي لو وجدت إليها سبيلاً، ورجل...

ـ تفكرين في كأس الويسكي وفي الرجل في هذا الوقت المبكر؟

ـ لست أدري، إن أفكاري مختلطة. أفكر في كل شيء... لكن قولي، هل تعتقدين أن المرأة بلا ويسكي ولا «شي غيفاره» تستطيع أن تكون ثائرة؟

ـ الثورة ليست سكراً ولا وسيلة إلى إشباع الجنس.

ـ تتكلمين مثل أبي عندما يتكلم عن الدين! كم عمرك؟

ـ لماذا؟ أربعة وعشرون عاماً.

ـ تتكلمين كالمرأة التي كان أول رجل عرفته زوجها، ثم ولدت الأولاد!

ـ (بابتسام) لا يمكن أن أكون أباك، وأكون أم أولاد في الوقت نفسه... اختاري على الأقل واحداً منهما!

ـ أمّ الأولاد التي لم تعرف إلا زوجها وأبي الذي لم يعرف إلا الماضي شيء واحد!

ـ قلت البشرية يتجاذبها قطبان... أيّ قطب يجذبك أنت؟

ـ أنا... بعدما انصرف الناس عن اليمين، ارتميت في

أحضانه مغمضة العينين! لكن تذكّري ما أقوله لك الآن. سأحطّم من الآن فصاعداً كل كريموات الجزائر!

تنهّدت نصيرة وقالت:

ـ كريموات الجزائر ليسوا شيئاً. ينبغي أن نحطم الظروف التي أدت إلى وجودهم...

فكرت دليلة لحظات ثم سألتها:

ـ قولي، كيف وقعت في شرك كريمو مع أن تفكيرك وسلوكك وحياتك لا يمكن أن تحبّب رجلاً مثله إليك؟

نظرت نصيرة إليها ملياً تتفحص وجهها ونظرها. ولاحظت أن نظرات دليلة غريبة بشكل مذهل، لم تكن تعرفها من قبل! كأن فيها مغناطيساً، أو أنها بعمقها وجاذبيتها تنبعث من أعماق الزمن. وسألتها بدورها:

ـ وأنت كيف وقعت في شركه؟

ـ أنا؟ الأمر بسيط... كل شيء في حياتي يجعلني أميل إلى هذه الطبقة. أبي منذ بدأت أعرف الدنيا وأنا أسمعه يمجّد ويثني ويمدح الأثرياء. عندما نقول له عن تلك الحاجة مثلاً... إنها ليست جميلة، يقول: أنتم خير من فلان أو فلان؟ كل ثريٍّ يشكل في نظره مرجع؟ للسموّ والتربية الحسنة... لو جاء مثلاً أبو كريمو وسأله أن يفرغ له دوراً للسكنى معنا لفعل! لست أدري إن كان ذلك من الحرمان الذي عاناه في صغره، أم من ثقافته، أم من البيئة التي عاش فيها وخالط أهلها؟ والآن، وبعدما اكتشفت أن ذلك كله سراب، ها أنذي في طريقي...

ـ إلى القطب اليساري . . . إلينا؟

ـ لماذا؟ هل أنت من اليسار؟

ـ أنا كلي يسار. لو استطعت أن أغيّر اسم ذراعي ويدي اليمنى لفعلت! أنا من طبقة فقيرة عمّالية. أبي ميكانيكي . .

تنهدت دليلة وشفتاها تبتسمان، وهي تنظر إلى الأرض تحاول أن تبحث وراء الخطوط المتشابكة التي تشكلها رسوم الآجر، عن هذه الخيوط الخفية التي تجمع بين الناس من حيث لا يشعرون. وقالت :

ـ أنا أيضاً لست من طبقة أثرياء.

ـ لكن أباك من مناضلي الرجعية الكبار. إن كان لي أن أعبر عن رأيي بصراحة!

ـ طبعاً. تستطيعين أن تقولي فيه أكثر. إنما لا أعتقد أن الرجعي ثريّ بالضرورة. القضية قضية عقيدة قبل كل شيء.

ـ لكن الثراء ركيزة هامة للرجعيّة.

ـ أفكارك تظهرك بمظهر المرأة الزاهدة التي تكره الثراء والحياة! . .

ـ أنت غالطة. أنا أكره الثراء الذي يكون على حساب الفقراء. أنا أحببت أن أحذرك، وقد وصلنا إلى هذا المستوى من التعارف، أن لا يكون انجذابك إلى اليسار بفعل الخيبة لأن الخيبة تدفع أحياناً إلى آماد بعيدة ولكنها لا تصل بصاحبها إلى الخيار المبني على القناعة.

ـ تتكلمين كما لو أننا في اجتماع!

ـ لك الحق. لندع هذا الموضوع الآن. أمي تكون قامت الآن. أتريدين أن نتناول القهوة هنا، أم معها بحجرة الأكل؟

ـ لو كان لي الخيار لوددت أن أتناول قهوة اليوم بحي القصبة.

ـ لماذا بالقصبة؟

ـ أحببت أن أتعرف عليها!

ـ ألا تعرفينها؟

ـ أعرفها، ولكن ليس بالصورة التي أريد أن أتعرف عليها الآن!

ـ سكانها الأصليون خرجوا منها وسكنها أخلاط من كل ناحية.

ـ من قال لك ذلك؟ هل زرتها في المدة الأخيرة؟

ـ لم أزرها، ولكني أعرف أنها تغيرت.

وخطر لدليلة أن تسأل نصيرة عن علاقتها بالجامعة:

ـ قلت انك في الرابعة والعشرين... وماذا تفعلين في الجامعة إذن؟ هل تعدّين بعض الشهادات العالية؟ أم ماذا؟

ـ هل الجامعة محرمة على غير الدارس؟

ـ ليست محرمة ولكنها لمن لا شغل له بها ليست مكاناً يُتردد عليه.

ـ أنا عاملة بمصلحة البحوث النقابية بالنقابة. وعملي يجعلني على اتصال بالجامعة وغير الجامعة.

ـ أتدرين، إنني معك كالذي دخل عالماً جديداً، ينتقل فيه من اكتشاف لآخر!

ـ أي اكتشاف؟

ـ كنت أظن أنك ما زلت تدرسين بالجامعة، وكنت أظن أنك بنت أحد الأثرياء ولذلك يناديك الطلبة نصيرة ـ صوناكوم. . .

ـ الطلبة ينادونني نصيرة ـ صوناكوم سخرية مني. لأني ذهبت ذات يوم إلى الجامعة في سيارة «رونو» القديمة «4 أحصن» فتوقفت بي، فأخذوا يدفعونها فأقلعت ثم توقفت عدة مرات. . . هذه هي القصة. أما ثراء أهلي، ها أنت تشاهدين حالنا. . . أنذهب إلى تناول القهوة؟

ـ قبل تناول القهوة أريد أن أغسل وجهي!

ـ أنساني الحديث ذلك تماماً!

ـ أود أن أذهب إلى دورة المياه.

ـ هي بجنب حجرة الاغتسال.

ـ أعرف. . .

ـ تعالي.

خرجتا من الغرفة، وإذا بهما تلتقيان بأبي نصيرة. وكانتا في غلالتيهما الخفيفتين، فتراجعتا إلى الوراء، لكن الرجل أنثنى راجعاً كمن نسي شيئاً، ولم يرهما تماماً.

دخلت دليلة إلى دورة المياه التي كانت نظيفة، كما لو أنها لا تستعمل فأراحها ذلك.

هي أحياناً تفضل البقاء ممسكة. . . على الدخول إلى دورة ملوّثة. . ثم التحقت بنصيرة في حجرة الاغتسال، فقالت لها:

ـ فكرت فيك وأنا بالمرحاض. . .

فقاطعتها نصيرة ضاحكة:

ـ لم تجدي مكاناً آخر للتفكير فيّ إلا هناك؟

ـ أنا، أفكاري ومشاريعي الرئيسية كلها أبتّ فيها وأنا بالمرحاض ولو كان قذراً، فضلاً عن مرحاض نظيف. . .

ـ فكرت فيّ بأيّ صدد؟

ـ هل أنت حرة في حياتك مع أهلك؟

ـ كالريح! أبي رجل يستمد ثقافته من التجربة اليومية. . .

لاحظت دليلة أن أدوات الحلاقة التي يستعملها أبو نصيرة من النوع الرخيص العاديّ جداً، ليس مثل الأدوات التي يستعملها إخوتها، وحتى أبوها. وكانت قد أخذت معها كيس أدوات الاغتسال، لكنها لما رأت الصابون ومعجون الأسنان اللذين تستعملهما نصيرة استحت من إخراج ما في كيسها. . . كان ما لديها من النوع الجيد المجلوب من الخارج.

وسألتها نصيرة:

ـ لماذا سألتني عن وضعي بين أهلي؟

ـ لأنك مثقفة بالنسبة إليهم، وتشتغلين في مكان محترم. قلت ربما كان ذلك يجعل أباك بالخصوص يغار منك من حيث لا يشعر فيقيّد حريتك، أو يعاملك معاملة غير لائقة.

ـ بـالعكس تمـامـاً، هـو يعتقـد أنني في مستـوى يجعلني أهـلا لتسيـير شؤونه هـو نفسه. إن مـركّبه، إن كـان له مـركّب، هـو الانقياد الكامل إليّ!

ـ هل أنت سعيدة؟

التفتت نصيرة إليها، وهي تسرّح شعـرها الـذي يبدو مجعّـداً صعب التسريح، وقالت بلهجة حزينة شيئاً ما:

ـ السعادة ليست شيئاً نحصل عليه ثم ننتهي منه ونبقى دائماً سعداء... هي كالحرية، كلاهما يكتسب باستمرار وتجدّد، وإلا فقدت الحياة معناها!

لاحظت دليلة عدم توفيق نصيرة في تسريح شعرهـا بالصـورة التي تلائم وجهها فقالت لها:

ـ ألا تـريـدين أن أسـاعـدك في تسريـح شعـرك؟ هـاتي الفرشاة...

وأخـذت تمشط شعرهـا خصلة بعـد أخـرى... فقـالت لهـا نصيرة:

ـ وأنت مع أهلك، هل أنت حرّة؟ وهل أنت سعيدة؟

كان وجه دليلة يبدو لها في المرآة، كما يبدو لنصيرة، مكتمـلاً، يشعّ أنوثة وحياة وإرادة. وأجابت:

ـ أنا أحيا حياتين، أو إذا شئت، أحيا بشخصيتين: شخصيـة من تصميم أهلي، وأبي على الخصوص، وشخصية من تصميمي

أنا. ولست سعيدة لا بالأولى ولا بالثانية. ولست أجد نفسي لا في هذه ولا في تلك!

ـ حتى في الشخصية التي صمّمتها أنت لنفسك؟

ـ صمّمتها تحت ظروف قهر! أنا أشرب الدخان، وفي غرفتي أجذب نفساً بعد آخر بنهم، خشية أن تدخل أمي أو أحد إخوتي، فأرمي السيقارة قبل أن أنال مرادي منها... أشرب الخمر، وإذا شربت أحاول بكل الوسائل أن أسكر لأني أعرف أنني لا يمكن أن أكون سكرى في كل مكان ومتى شئت... وإذا كانت لي علاقة جنسية برجل اضطره حتى يكره ما يسمّى بالجنس في حياته.. لأني أعرف أنّي بعد ذلك الاتصال قد أبقى شهوراً بلا اتصال... حياتي كلها إذن مضغوطة في لحظات... هي لحظات سعادتي وحريتي!

ـ تتكلمين كثيراً عن الجنس!

ـ المرأة التي لا تتكلم عن الجنس هي مريضة، أو لها عقدة!

ـ غير صحيح، إنما أنت أثّثت حياتك كلها بهذه الأمور...

ـ أثاث حياة المرأة الرئيسي هو الرجل...

وتذكرت ما قاله لها الرجل الذي حملها بالأمس في سيارته إلى بن عكنون فأضافت:

ـ بالأمس ركبت مع رجل في حوالي الأربعين، قال لي شيئاً أعتقده صحيحاً مائة بالمائة: قال: في كل لاوعي امرأة رجل، وفي كل لاوعي رجل امرأة!.

ـ من هذا الذي ركبت معه؟

ـ لا أعرفه!

ـ هل تركبين مع من لا تعرفينهم؟

ـ وأجامع أيضاً.

ـ إنك مأخوذة يقيناً! لو سمعت أمي هذا الكلام لطردتنا!

ـ لماذا؟ لأن أباك ولدك منها بالفاتحة؟ استمعي إليّ... أنت أكبر مني ثقافة... لأنك تشتغلين... ولكنك ما زلت فتاة في الرابعة عشرة. لو كنت رجلاً لأريتك العالم بصفة أخرى!

ضحكت نصيرة وكانت قد انتهت من تسريح شعرها ومن الاغتسال ولواحقه. وسألت:

ـ بأي صفة تريني العالم لو كنت رجلاً؟

ـ لا تدفعيني إلى الكلام الذي لم تتعود عليه أذناك! إنني جد رهيبة...

أتمت الفتاتان اغتسالهما وذهبتا إلى حجرة الأكل حيث كانت تنتظرهما أم نصيرة. بعد تبادل التحية جلسن. وكانت المائدة تدل على أنهما وحدهما اللّتان لم تتناولا طعام الفطور بعد.

قالت أم نصيرة تخاطب دليلة:

ـ نحن شربنا القهوة. لم أرد إيقاظكما مبكراً... لست أدري إن كنت تحبين «المعارك»؟ على كل أنا أعددت لكما «المعارك»، إذا أحببتما أكلها بالمعجون والزبدة فها هي أمامكما.

فقالت نصيرة لأمها:

ـ لعل دليلة تحب عجّة بالبيض أو مقبلات؟

ـ لا لا، لا أريد شيئاً، شكراً. أريد قهوة بلا لبن!

فقالت الأم:

ـ لا بد أن تتناولي شيئاً مع القهوة. إنها تضرّك وحدها. المثل يقول: فطور الصباح ربح!

ـ شكراً، لا أستطيع... القهوة وحدها.

فقالت نصيرة:

ـ أنا أعدّ عجة البيض وأتحداك أن تتحكمي في شهيتك وأنت تنظرين إليّ وأنا آكل!

ـ أعدّي ما شئت، لست متعوّدة على الأكل صباحاً. أشرب قهوة ليس إلا!

لم يرق الأم تصريح دليلة:

ـ اليوم يا بنيتي لا تشربي القهوة وحدها... عندما تكونين في بيت أهلك افعلي ما تشائين. أنا أعدّ لكما «مسمنات» بالعسل...

كانت دليلة تراقب أم نصيرة في حركاتها وسكناتها من غير أن تشعر. ولاحظت أنها تختلف كل الاختلاف عن أمها، لا في اللباس ولا في الحديث، ولا في أسلوب المعاملة... ان هذه المرأة حضرية بالطبيعة. تلبس سروالاً من «الجيرسي» الغامق، على قميص بلا أكمام موشى بتطريز جزائري. تشد رأسها بمنديل حريري خفيف. في رقبتها سلسلة ذهبية. وفي أذنيها قرطان على

شكل هلالين. تجر قبقاباً مزخرفاً من النمط العتيق. بيضاء الجسم إلى درجة تكاد تجعل بياضه اصطناعياً مع اللباس! فمها صغير، إذا تكلمت ابتسمت وارتسمت حول عينيها خيوط متوازية مقوسة رقيقة، تعطي لنظرها بعداً زمانياً ممتازاً! في حديثها، في لباسها، في هيأتها العامة، في ملامح وجهها تبدو امرأة رصينة حيّية متواضعة! بينما أم دليلة شيء آخر... هي عبارة عن تأليف لخصال ومميزات العظمة الريفية مع تمدّن!

أكلت دليلة من عجّة نصيرة و «مسمّنات» ومعارك أمها بالرغم منها. وكانت العجّة جيدة، أضافت نصيرة إلى البيض شيئاً من المعدونس والبصل الرقيق. كما كانت المعارك والمسمّنات لذيذة خفيفة، بالرغم من الزبدة والعسل والمعجون... ثم قدمت الأم بعض الحلويات التي أعدتها من قبل، وأرغمت دليلة على الأكل منها «للبركة» فأكلت دليلة ما يلزم ليومها ذاك والذي بعده!

لكن الشيء الذي أثّر على دليلة أكثر من الكرم والحظوة هو عدم الفضول والتطلع. لم يسألها أحد من هي ولا لماذا جاءت ولا ماذا تفعل؟ إن سلوكاً مثل هذا غريب في الجزائر، ولا سيما بين النساء.

عادت الفتاتان إلى الغرفة بعد تناول طعام الفطور وسألت دليلة صاحبتها وهما تلبسان أثوابهما:

ـ واليوم ماذا تفعلين؟

ـ أنا حرة إلى نهاية الشهر. لي خمسة عشر يوماً من عطلة السنة الماضية أخذتها الآن.

ـ هل ترافقينني إلى القصبة؟

ـ لا أستطيع، لي أعمال منزلية مع أمي. لكن إذا شئت أوصلك إلى ساحة الشهداء.

ـ تعملين جميلاً.

ـ وماذا تفعلين في القصبة؟

ـ أحببت أن أزورها. سأقول لك في المستقبل لماذا!

ـ كما تشائين. تريدين أن نذهب الآن؟ لعل الوقت غير مناسب؟ ان الساعة الآن الثامنة والنصف.

ـ لماذا غير مناسب؟ اذهب الآن لأعود للبيت قبل منتصف النهار.

ـ أليس لك دروس اليوم؟

ـ لي درس واحد، لا أذهب إليه.

ـ بما أنك لا تذهبين إلى الدرس، ابقي معي هذا الصباح نتناول طعام الغداء معاً، ثم بعد الظهر نذهب إلى القصبة، ومنها أوصلك إلى دارك إذا شئت.

ـ شكراً، لا أستطيع. ينبغي أن أعود للبيت قبل منتصف النهار.

لبست نصيرة سروالاً أزرق من «الجين» على قميص أبيض

بأكمام فسألتها دليلة:

ـ اشتريته من هنا؟ (تشير إلى السروال).

ـ ومن أين اشتريته، إن لم يكن من هنا؟

ـ قلت ربما من فرنسا...

ـ أنا ليس لي من يشتري لي من فرنسا. أعيش في الجزائر وألبس ما في الجزائر!

ـ ألا تسافرين إلى الخارج في نطاق العمل الذي تقومين به في النقابة؟

ـ أحياناً.

ـ وتعودين إلى الجزائر؟

ـ ولِمَ لا أعود؟ أتعتقدين أن الحياة في بلدان الناس سهلة؟ انه غلط...

ـ ليست المسألة مسألة سهولة أو صعوبة...

ـ مسألة ماذا إذن؟

ـ مسألة جو!

ـ غلط... لم يكن الهروب في يوم من الأيام حلاً لأي قضية. علينا أن نغيّر نحن الجو الذي نحيا فيه إذا لم يكن صالحاً، لا أن نهرب منه!

ـ هذا كلام يقال!

ـ وهو عين المنطق!

ـ متى تلاقى المنطق وحياة المرأة بالجزائر؟ تتكلّمين أحياناً كمعلمي المدارس!

ـ وأنت تتكلمين مثل ماذا؟

ـ أنا أتكلم كلام المرأة الجزائرية، المرأة التي تحيا في مجتمع السراب.

ـ في المرة السابقة قلت، مجتمع الرجال، والآن صار مجتمع السراب!

ـ لك ذاكرة جيدة... لا يغضبك كلامي على كل حال، أليس كذلك؟

ـ لو أغضبني لما بقيت معك هكذا! لكنك تميلين إلى العدوان والهجوم...

ـ مزاجي كذلك. ثم إني أسمي الأشياء بأسمائها ليس إلا. أنذهب الآن؟

ـ إذا شئت. انتظري لحظة أسأل أمّي إذا كانت تحتاج إلى شيء من الخارج، وأعود إليك.

ـ افعلي.

تغيبت نصيرة برهة وجيزة ثم عادت إلى دليلة وخرجتا بعد أن ودعت دليلة أم نصيرة، وقالت لها ضاحكة: ربما سأعود ذات يوم أسكن معكم ولو شهراً، إن موقع سكناكم جميل. فرحبت أم نصيرة بذلك. وقالت لها: لك أن تأتي في الوقت الذي تريدين.

أقلعت سيارة «الأوستين» وانحدرت إلى شارع الشهداء في هذا الزقاق الضيق الملتوي. أعجبت دليلة بمهارة نصيرة في القيادة فقالت لها:

ـ لو أحسن القيادة لاشتريت مثلها!

ـ تستطيعين أن تتعلمي، أما شراء سيارة مثلها فلا أنصحك.

ـ لماذا؟

ـ لأن قطع الغيار مفقودة. والميكانيكيون الذين يصلحون هذا النوع من السيارات قليلون جداً.

ـ وماذا يهمني ان كانوا قليلين أو كثيرين؟ أصلحها حيث تصلحين سيارتك والسلام!

ـ أصبت. لكن قطع الغيار مفقودة...

ـ أضحك معك فقط. لن أستطيع شراء دراجة. قولي، لو طلبت العمل معك في مركز الدراسات النقابية هل أُقبل؟

ـ لا أدري. إذا أردت أسأل عن ذلك.

ـ أود أن أشتغل.

ـ هل يدعك والدك تشتغلين؟

ـ يدعني أو لا يدع، ليس ذلك مهماً. المهم هو أنني قررت أن أبحث عن عمل بعد رجوعي من التطوع الطلابي.

تعجبت نصيرة مما تسمع... دليلة بنت الشيخ علاوة، عدو الثورة الزراعية تتطوّع مع الطلاب! وقالت:

ـ أنت تتطوّعين؟!

ـ ولم لا؟ أتطوّع وأعمل وأغادر دار أبي في هذا الصيف، أو ربما في هذه الأيام. الأمر موقوف على السكن. لو أجد غرفة أو شقة صغيرة لاكتريتها.

ـ إذن من أجل هذا أنت ذاهبة إلى القصبة؟

ـ نعم. قيل لي ان هناك غرفة للايجار... لو رافقتني لرأيناها معا، ثم من هناك نذهب إلى دارنا.

ـ لا أذهب إلى داركم.

ـ لماذا لا تذهبين إلى دارنا؟ وأنا لماذا جئت إذن معك؟

ـ لا أقول لك في هذه المرة.

ـ لا بد أن تقولي الآن وإلاّ نزلت في الحال.

ـ لا أحب أن أتلاقى مع شخص في داركم...

ـ مع شخص في دارنا! من هو؟ رضا أو أبي؟

ـ عمر..

اندهشت دليلة وصفرت، ثم قالت سائلة بتعجب:

ـ ومن أين تعرفين عمر أنت؟

فكرت دليلة أنها لو تعرفه لعرفته البارحة في موقف تافورة... فأجابت نصيرة:

ـ لا أعرفه جيداً، إنما التقينا في اجتماع بين إدارة المؤسسة التي يديرها والفرع النقابي بها، وأسمعني كلاماً بذيئاً. كلام رجل يعيش في عصر «القياد» لا في عهد التسيير الاشتراكي للمؤسسات! هل تعلمين أن عمال تلك المؤسسة قرروا القيام بإضراب لا نهائي حتى يقال من منصبه، ابتداء من يوم الاثنين المقبل؟ سيطرد يقيناً من المؤسسة...

ـ وماذا يهمني أن يطرد أو يقعد؟

ـ أتعرفين ماذا عمل للفرع النقابي بالمؤسسة؟ استولى على مكاتب الفرع ليلاً، ووضع كل الملفات والوثائق في أكياس ورماها بفناء المؤسسة!

لم تجبها دليلة بشيء، ففكرت أنها ربما آذتها بهذا الحديث، فقالت مستدركة:

ـ كان من حقي أن لا أقول لك كل هذا. . . عفواً!

ـ بالعكس، أحسنت إليّ أكثر مما أسأت.

ـ أخبرتك بكل ذلك لتعرفي لماذا لا أستطيع أن أذهب معك إلى داركم.

ـ لا تتحرجي، إنك بالنسبة إليّ الآن أكثر من أخت!

ـ أنت طيبة!

ساد الصمت بين الفتاتين، ولم يبق إلا محرك الأوستين ومحركات السيارات الأخرى بشارع الشهداء ترسل الشخير والنفير. قالت نصيرة وكانتا قد وصلتا إلى دار الاذاعة والتلفزيون:

ـ هذه هي الاذاعة. . . هل تعرفينها؟

ـ أنا أسميها دار «كولمبو»

ـ ليس فيها غير ذلك على كل حال. . .

ـ أعرف وإنما أسخر.

ـ ممن تسخرين؟

ـ أردت أن أقول أمزح، قلت أسخر! أتحاسبينني على هذا؟

ـ لا أحاسبك ولا أراقبك. إننا في شهر الميثاق!

ـ شهر الانفجار!

ـ شهر الانفجار لو تواصلت الحياة عندنا بهذا الشكل!

ـ دعينا من السياسة الآن. انظري إلى هذا السائق الذي أمامك... كان حينئذ سائق يغازل امرأة ماشية على الرصيف.

ـ اغتنم شدة الزحام...

ـ أحسن من أن يضيع وقته في لا شيء!

كان ضغط حركة المرور بساحة «أديس أبابا»، قد خنق المرور، وتوقفت السيارات في خطوط لا نهاية لها، كما تبدو من سيارة نصيرة. وأضافت دليلة:

ـ الجزائريون مرضى بالجنس!

ـ العالم كله مريض بالجنس!

ـ لكن بالجزائر الكبت هو الذي جعل الناس هكذا... يسيرون بلا منطق. لو هجمت النساء على الرجال لفر الرجال أمامهن كالأغنام، ولما رأيت رجلاً واحداً ينظر إلى المرأة بدون أن يخفض جفنيه!

ضحكت نصيرة، ولم تردّ على رفيقتها، لقد أعطيت الاشارة للخط الذي هي فيه لأن ينطلق. وتمكنت نصيرة من أن تجتاز بضع سيارات كانت تعرقلها وانقطع الحديث بينهما ليصير حديثاً نفسياً منفرداً، ممزوجاً بضجيج السيارات والشوارع والحياة.

* * *

- 9 -

اجتمعت ثلة من أثرياء المدينة لدى بن عبد الجليل. لقد رأى أن يدعو بعض معارفه الأشد ثراء أو نفوذاً لأمسية خاصة، سماها «أمسية أندلسية» بمناسبة زفاف ابنته دنيا، قبيل الحفل الرسمي المعين ليوم السبت. إن المناسبات التي من هذا النوع جديرة بأن لا تضيع. فالقضايا الهامة لا تعالج بنجاح إلا في غير إطارها، أو بين كأسين كما يقول الفرنسيون!

وأعدّ لها كل ما لذّ وطاب وأمتع. واختار مكاناً لهذه الأمسية باحة بالبستان أعدت خصيصاً لمثل هذه اللقاآت. بها فسقية تتوسطها فوارة ذات ثقوب عديدة يتدفق منها الماء إلى أعلى ثم ينثني على نفسه في خيوط فضية لألاءة.

جدار الدار الذي أقيمت قربه هذه الباحة زخرف بفيسفاء قديمة، في وسطها لوحة أثرية رومانية، بها صور عربات تجرّها أبقار، تناسقت ألوانها وتجانست الأشكال. في كلا الجانبين للباحة تقوم أعمدة من رخام. جيء بها من إحدى المدن الأثرية الرومانية التي تمتلىء بها أرض الجزائر. نصبت فوق الأعمدة قضبان حديدية تربطها أسلاك لتكون مهداً لورود وزهور

وياسمين. فتشابكت الأغصان بالأغصان وتعانقت عناقاً في غير حذر، أمكن للفرع هنا أن يتدلى، وللغصن هناك أن ينزل وتكوّن من ذلك سقف زهري متجانس يظل ويمتع ويتضوع عطراً كريماً!

بلطت قاعة الباحة بآجر، تزاوجت بيض مربعاته بالسود، فشكلت سجادة مترامية الأطراف.

في صدر الباحة، قرب الفسقية جلس المغني ذو الصوت الرخيم... وإلى جانبه فرقته الموسيقية المكوّنة من فنانين هم عماد ما تبقى من خيرة عازفي الموسيقى الأندلسية بالجزائر. هذا يمسك عوداً وهذا قويترة، وذاك رباباً والآخر كمنجة بينها الذي بجانبه أمسك بطارٍ حساس، أقل نقرة تثيره فيهتز كالمحموم! صاحب الطبلتين الصغيرتين يمسك بعودين رقيقين رشيقين، على أهبة للنقر بهما على الطبلتين اللتين تتحدثان عن ذكريات ماضٍ سحيق...

المدعوّون اتخذوا مجالس لهم على طول وعرض القاعة ودورانها بالفسقية. باقات الزهور التي جاء بها المدعوون اتخذت أماكنها كالنجوم، أو كالفواصل بين جمل غرامية ملتهبة. الجو كله روعة وكله شاعرية وكله أمتاع.

انتظر الناس المغني وتساءلوا ترى ماذا سيفتتح به، وماذا سيغني؟ أخذ كمنجته وأشار إلى عازف العود، وإذا باستخبار رقيق ينطلق من الأوتار موتوراً حائراً. لكن بعض من لهم خبرة

بالموسيقى الأندلسية الجزائرية لم يتحيّروا كثيراً في إدراك المقطوعة الشعرية التي ستتبع بعد لحظات هذه الأنغام. فحيّوا برؤوسهم مرحّبين بما اختار لهم المغني. . .

فيبدأ هذا بلحن هو العذوبة في أصفى معانيها، ومع اللحن تتركب الكلمات الشعرية شيئاً فشيئاً. . . ويفهم من لا يعرف الأغنية أنها:

كم بعثنا مع النسيم سلاما
للحبيب الجميل حيث أقاما
وسمعنا الطيور في الروض تشدو
فنقلنا عن الطيور كلاما

في طبع الزيدان.

ظن الحضور أن المغني سيستمر في الزيدان، ولكنه فاجأهم. . . لقد انتقل إلى نوبة الذيل، وراح يقدّم لهم بصوته العذب من الألحان ما ألبس عليهم أمرهم! كان ينظر إلى الأرض في خشوع وتبتل إلى ألحانه. أصابعه تتحرك على أوتار الكمنجة بحنان ولطف، تداعب عنقها، بينما كان القوس الصغير يغدو ويروح ثملاً على خصرها ومن كل ذلك تتألف الألحان العذاب الرقاق التي جعلت الشيخ علاوة يشعر بنشوة ووجد صوفي غريب!

والتقى الحضور في تلك السماوات العلى من الفن الأندلسي بالماضي روحاً لروح كما تصوره لهم أخيلتهم. وجالسوا في تلك

اللحظات القصار الخارجة عن الزمن ملوك الأندلس في أبهاء قصورهم، حيث الحور العين تتثنى بين أيديهم في رشاقة وخفة. يضاحكنهم ويداعبنهم بالكلمات الحلوة تنسى الهزائم وتنسى الدسائس التي أخذت تنخر ملكهم. ويقدمن لهم بين الكلمات كؤوساً داهقات... أنسي الحضور في أنفسهم وفي دنياهم، وحلّقوا في ملكوت نوبة الذيل في نشوة بحيث أنه لما انتهى المغني من الأداء ساد الصمت فترة. ثم قال أحد هواة الموسيقى الأندلسية للشيخ علاوة:

ـ لكل قوم «تنتنتهم» يا الشيخ!

(في آخر الأغنية مكان يزوق فيه المغني بصوته كلمات الأغنية، يسميها أهل العاصمة بالتنتنة).

فأجاب الشيخ علاوة بتنهد:

ـ هذا عالم محرم على الأشقياء...

وأضاف سراً: «لا يعكر صفو من فيه لا ميثاق ولا اشتراكية!» لكن عبد الكبير لاحظ بابتسام:

ـ نحن لا نحرم على أحد أن يدخل هذه الرحاب. إنما هم الذين حرموا على أنفسهم ما ليس بالحرام...

فقال الشيخ علاوة:

ـ حرّم عليهم شقاؤهم هذه النعمة.

والتفت إلى المغني مادحاً:

ـ إنك أتحفتنا، نقلتنا إلى ماضٍ مجيد. . .

وراح يناقشه في بعض التحريفات التي لحقت بنص القطعة.

وكان كريمو حينئذ متنقلاً بين المدعوين سائلاً هذا مستمعاً إلى الآخر، متقمصاً دور الفتى المهذّب الحيي! وأحياناً يناديه أبوه ليقدم له بعض معارفه الذين لا يعرفهم أو الذين تغيّرت حالتهم الاجتماعية ولم يكن عالماً بها.

وأخذ الحديث ينعقد بين المتجالسين، جماعات، جماعات. . . هذا اغتنم الفرصة ليتوسط له في الحصول على عطلة مرضية بالخارج وهذا يود أن يوصي على ابنه الذي التحق بالقضاء، وهذا يبحث عن الحصول على بعض الأطنان من الإسمنت ليتم البناء «المتوقف». . . وكان الإسمنت من المواضيع التي ترددت أكثر!

في حين كان الشيخ علاوة غارقاً في ميدان آخر، كان يحكي بتعديل وقائع بعض الاجتماعات التي حضرها عن الميثاق الوطني. فقال:

ـ قلت لهم إن الإسلام هو دين محمد، والاشتراكية هي دين أحد المشردين اليهود. . . لو عاش ماركس في عهد دولة إسرائيل لكان أحد روكفيلرات العالم اليوم!

فهوّن عليه محدّثه الأمر:

ـ لا تتحيّر يا الشيخ، الميثاق لا يخيفنا. الحكومة تنوي به الخير للشعب والشعب لا يصوّت عليه كما هو. . . والسلام!

ـ الشعب يصوّت على كل شيء. . .

ـ إذا صوّت عليه، فنحن في العالم الثالث. . . كم رأينا من ميثاق!

فقال الشيخ علاوة معرباً عن إخلاصه للوطن:

ـ نحن نسعى لبناء جزائر لا يعلن ماضيها حاضرها. والغريب أن شباب اليوم يعتقدون أننا جئنا للحياة هكذا طفرة، بلا طفولة ولا شباب! إننا نقول ما نقول عن تجربة وعلم. العرب أصحاب كبرياء لا يبيعون دينهم بأي دين. . .! ما معنى أن يذهب الطلبة للحقول! والفلاحون ما يعملون؟

فأجابه الرجل ضاحكاً:

ـ يأتون للجامعات!

علا الضحك وراق الجو فرقّت القلوب وتواددت وترقرقت دموع التفاهم والتحالف في المآقي. . . وبرّد الشيخ علاوة غلّته وغليله. فقال كل ما لم يهتد إلى قوله في اجتماعات الميثاق. وأنسي قضية الرسائل، ولو إلى حين. وفي الحقيقة كانت هي النقطة السوداء التي غطّت ما سواها، وجعلت للحياة مذاقاً حزيناً لديه، إنه يتنهد أحياناً دون أن يشعر!

وأقبل عبد الكبير صاحب الوليمة فقال للشيخ علاوة:

ـ الشيخ، من تقاليد عائلتنا، أن يقرأ المفتي بصفة رمزية خطبة النكاح، ونحن اليوم أنت مفتينا وأنت الإمام. هذا صديقنا سي بو بكر القهواجي أبو العريس، وهذا صهرنا السيد

حسن نائب وكيل الجمهورية. . .

ونادى لابنه: كريمو، تعال!

أقبل كريمو في أدب جم، وصافح من التفّ حول أبيه من جديد. وقال عبد الكبير:

ـ الشيخ، العقد مكتوب، والطرفان متراضيان، وما نعمله الآن هو رمز لتمسّكنا بتقاليدنا. لكن إذا أردت أن أنادي البنت ناديتها! أنت صاحب الأمر.

فرد الشيخ علاوة بلهجة المذعن لما يؤمر به:

ـ لا لا. حاشى لله: حضورك أنت هو المهم. أنت الولي.

فطلب إليه عبد الكبير أن يتوسّط المجلس الذي أعدّ لهذا الغرض:

ـ الشيخ، تفضّل.

اتّخذ الشيخ علاوة مكانه بالمجلس المعينّ له، وطفق يقرأ خطبة النكاح المشهورة التي ألقيت في خطبة خديجة للرسول. ثم رفع كفّيه تالياً الفاتحة وتمنى في النهاية الخير والرفاء والبنين.

ولما انتهى من كل ذلك أطلقت طلقات نارية من بعض أقارب العريس وتبودلت التهاني وانطلق صوت المغني وفرقته بأغنية تقليدية تغنى في مثل هذه المناسبات. بينما ارتفعت زغردات النساء بالبيت وعلى الباب الخارجي حيث وقفت مجموعة كبيرة منهنّ يشاهدن من بعيد هذا الطقس. وصبّ الماء

بالسكر للحاضرين، ورشّوا بماء الورد. . . وشاعت الغبطة وعمّ الانشراح.

وبعد أن انتهى المغني من الأغنية التقليدية اقترح عليه بعض الحاضرين أن يغني مقطوعة مشهورة في الموسيقى الأندلسية، عنوانها:

تحيا بكم كلّ أرض تنزلون بها
كأنكم في بقاع الأرض أمطار.

وهي قطعة تنسب إلى الشاعر الأندلسي ابن خفاجة.

واقترح الشيخ علاوة أن تغنى في طبع الزيدان، فاستحسن ذلك منه. وقال أحد هواة هذه الموسيقى:

طبع الزيدان هو الذي اقتبس منه الموسيقار الفرنسي الكبير «سان سانص» قطعة لباليه المشهور: «شمشون ودليلة».

هام المغني بصوته في عالم الزيدان الذي يتطلب من النفس أن يطول مهما طال. فأمتع سامعيه الذين كانوا معه في تجاوب كامل.

في نهاية الأمسية أخلي جانب من الباحة، وضرب سماط يتكوّن من عدد من الطاولات مفروشة بالحشائش والزهور وأوراق الكروم، وجيء بالبصل الطري والخبز والمناشف. ثم أقبل حملة الخراف المشوية في موكب تشبّثت به الأبصار! كانت الخراف سبعة، شويت خصيصاً لهؤلاء الخلّان. ومثلها قدّم

للنسـاء. . . وضع بـأفواههـا ورق الخس، ونصبت على الخـوان كالقطيع المتتابع.

تقدّم المدعوّون بابتهاج إليها.

في الجـانب الأقصى للباحـة، وقف ساقٍ تحت شجـرة تغـطي بخـمائلها المكـان تحتها عـين جاريـة في حـوض صغـير. وضعت حواليه صناديق النبيذ، بعيـداً عن الأعين التي تتـأذى من شرب الخمر. بين الفينة والأخرى يتسلّل إلى هناك أحد المدعوّين!

الليــاقـة تقتضي أن لا يعصى الله جهــاراً في بيت من بيـوت الأكابر!

- 10 -

لو لم يكن الشيخ علاوة منغّصاً، بل محطّماً من الرسالة التي جاءت إلى نعيمة لحكى الليلة الغرائب عن الأمسية الأندلسية التي حضرها، والتي كان فيها محل التبجيل والتعظيم من طرف المدعوين ومن طرف عبد الجليل. لكن الرسالة اللعينة تذكّره كلما حاول أن يبتسم بأن عليه أن يتجهّم، وأن حياته لم تعد ابتساماً وإنما أصبحت وهماً وحسرة.

إنه يتعجب من حالة نعيمة الوادعة المطمئنة! ها هي ذي تجلس إلى جانب دليلة بالصالون، تهامسها وتضحك! وتساءل في نفسه: «ترى ما يضحكها؟» وفكر أنه لو كان له أن يصرّح أمام أفراد أسرته بأن هذه البنت التي تجلس بينكم لعينة، تحمل في جوفها لقيطاً، لقاموا نساءً ورجالاً ورجموها! لكنه لا يستطيع أن يصرّح لأحد. ونعيمة لا تدري. والكل لا يدري. وسألت العجوز كلثوم الشيخ علاوة:

ـ لماذا دعاكم هذه العشية وتصدير العروس غداً؟

كان الشيخ علاوة بصدد عدّ حبّات مسبحته فتوقف ليجيب بشيء من الاستنكار:

ـ إنها دار بن عبد الجليل، ليست دار أحد من الناس! هل تريدين أن يدعو خاصّته من أعيان البلد مع أي كان؟ هل أقبل أنا أن أحضر أي حفل ومع أيّ مدعوّ؟

ـ سألتك لأن العادة ليست هكذا.

ـ من أين تعرفين أنت العوائد؟ إنها أسرة من الأسر التي تسطّر للناس عوائدهم!

فكرت دليلة أن أباها «يعشق» أسرة عبد الجليل. وسألته تهكّماً:

ـ ماذا يعمل بن عبد الجليل؟

فأجابها في امتعاض:

ـ ماذا يعمل... هل هو بحاجة إلى عمل؟ إنها أعرق أسرة في الجزائر!

ـ لماذا، هل الأسر العريقة لا تعمل؟

ـ يعمل الفقراء أمثالنا! أما بن عبد الجليل فلا يعمل. الناس يخدمون عليه، الحكومة نفسها تخدم عليه!

لم يرق رضا كلام أبيه ولا سهرة الليلة بالصالون كلية فخرج. وكانت نعيمة تودّ في أعماقها لو بقي، لأنها تشعر أن حضوره كالدفء للمقرور!

وطفق الشيخ علاوة يثني على بن عبد الجليل وابنه كما لو أنهما مثال الأخلاق المستقيمة وقال:

ـ عندما طلب إليّ أن أقرأ خطبة النكاح، قال، «إنها

التقاليد، نريد المحافظة عليها... وبما أننا في الجزائر لا مفتي لنا فأنت المفتي وأنت الإمام!».

فقال له مراد مستغرباً:

ـ ولكن أنت لست قاضياً ولا مفتياً، لماذا تقرأ خطبة النكاح أو غيرها؟

ـ أنت يا ولدي طبيب، لا تعرف هذه الأمور. إنه تبجيل لي أمام الناس ولو شاء لأتى مُفْتٍ من مصر لقراءة خطبة النكاح! لو تعرف الرجل لغيّرت رأيك فيه!

فقال مراد كالمتبرّىء:

ـ أنا لا رأي لي فيه ولا في غيره.

ـ مع أن الواجب يقتضي أن تتعرّف على أعيان الناس... إن هذه العائلة يسعى الناس بمختلف الوسائل لربط صلاتهم بها.

فكّر عمر أن يؤيّد أباه فقال:

ـ هو الذي رفض مصاهرة أحد الوزراء السابقين!

فأكّد الشيخ علاوة بسرور قول ابنه:

ـ ابنته الكبرى... رفض رفضاً قاطعاً أن يصهر لرجل لا ينتمي إلى أسرة عريقة ولو أن الظروف جعلته وزيراً!

قامت دليلة فغادرت الصالون وكذلك نعيمة. فلم يريا فائدة في السهر على مدح سخيف...

وواصل الأب حديثه محاولاً التأثير على مراد:

ـ غداً عندما تذهب لإرجاع أمّك وأختك سترى حال هذه الأسرة بنفسك. كل حديث عنها لا يفي بمحامدها.

ـ وماذا يهمني فيها أن تكون عظيمة أو حقيرة؟

ـ قد يهمك من حيث لا تدري. الحياة فيها كل شيء، ولا يخسر المرء عندما يتعرّف على الأخبار.

أدرك عمر أن أباه ينوي شيئاً ما. وأن ثناءه هذا مرتبط بغاية يسعى إليها بصفة غير مباشرة، فقال:

ـ كم له من بنت سي بن عبد الجليل؟

نظرت مني إليه بكل عينيها! وتساءلت بحنق. : «لماذا يسأل كم من بنت لهذا الرجل؟».

فأجابت الأم بسرعة:

ـ له ثلاث بنات. الوسطى هي التي تزوجت، وبقيت الكبرى والصغرى. لكن وهيبة هي أجملهن.

فسأل عمر:

ـ وهيبة؟

ـ البنت الصغرى. إنها أجمل فتاة في الجزائر.

فسأل مراد:

ـ ماذا تعمل؟

فأجابه الشيخ علاوة ضاحكاً:

ـ يـا رجل! النـاس لا يسألـون عن بنات سي عبـد الكبير مـا يعملن؟ إنهن الجزائر!

فقال الطبيب بشيء من البلاهة:

ـ ولماذا لا؟ هل الجزائر لا تعمل؟

ضحك عمر وضحك الشيخ علاوة وقال:

ـ مَنْ الجزائر التي تسأل عنها؟ جزائر الطب المجاني، أو جزائر العظماء؟ الجزائر الحقيقية لا تعمل!

لكن العجـوز كلثوم رأت أن الـوقت مناسب لإخبـار شيخها وأولادها بما دار من حديث بينها وبـين أخت عبد الكبـير بالحمّام أمس، فقالت:

ـ تكلمت أنـا وعمتهـا... وفهمت من حـديثهـا أنهم لا يرفضون لنا طلباً لو تقدمنا إلى خطبتهم.

فسأل الشيخ علاوة باهتمام ليتأكد:

ـ قالت لك ذلك، أم أنت التي توهّمت؟...

ـ قالت لي إنها ستحدّث أخاها وزوجته في الموضوع إذا عزمنا نحن...

ـ إنها فرصة عظيمة، علينا أن لا نضيّعها.

وخاطب مراداً:

ـ إذا أردت الحسب والنسب والتربية الحسنة وكل شيء فـإنك لا تجد بالجزائر ولا بغير الجزائر عائلة أعظم.

فرد مراد بدهشة:

ـ وماذا يهمني أنا في عظمة هؤلاء الناس؟ أنا لا أفكر في الزواج!

فأجابه الشيخ علاوة في سرةّ بغضب: «أنت تهمك ديدي!».

لكن عمر أراد أن يظهر لأبيه مشاطرته رأيه، ولو أنه لا يهمه أصاهر مراد بن عبد الجليل أم لا. فقال:

ـ الزواج لرجل مثلك أتم دراسته وهو الآن يتحمل مسؤولياته الاجتماعية أمر مهم. والبنت كما قالت أمي صالحة (يريد أن يقول جميلة...)

فقالت الأم:

ـ البنت أعرفها، هي أجمل فتاة رأيتها في حياتي. كل الناس يتحدثون عنها!

لكن مراداً بقي متحيّراً من هذا «الهجوم» المشترك بين أبويه وأخيه، واندهش أن يكون تفكيرهم في زواجه مستولياً على نفوسهم إلى هذا الحد! وقال:

ـ لكن قضية الزواج لا تهم أحداً غيري. ثم كيف يمكن أن أفكر في الزواج من امرأة لا أعرفها؟

قدّر عمر أن الفكرة أخذت طريقها في نفس أخيه، ولو لم يشعر. فقال:

ـ إننا في مجتمع ما زال يحترم التقاليد بالرغم من كل

التحريفات التي طرأت عليه والتعرف على بنات الأصول مباشرة نادر. نحن لا نحاول التأثير عليك ولا إرغامك على الزواج بامرأة لا تعرفها. لو فرضنا أنك أحببت الزواج سواء من هذه البنت أو من بنت أخرى، فلا بد من تعرّفك عليها قبل كل شيء. فلا ينبغي أن تفكّر مطلقاً فيما لم نفكر فيه! الزواج يهم صاحبه بالدرجة الأولى. لكننا نتحدث عن الزواج ونتحدث عن غيره، هذا شأن الأسر.

أعجب الشيخ علاوة بلباقة ابنه الأكبر وقال مؤكداً:

ـ نحن كل ما نفعل هو لفت نظرك لما قد لا تعرفه. أنت كطبيب لا يمكن لك أن تعرف ما يجري في مجتمع كمجتمعنا يتحول كل يوم.

وأضافت الأم بصراحة:

ـ أنت ولدنا قبل أن تكون طبيباً، وقبل أن تكون رجلاً. هذه البنت لن تجد غيرها في الدنيا، والزواج لا بد منه، إن لم يكن اليوم فغداً. لماذا لا تغتنم الفرصة؟ إذا أردت أن تتعرف على الفتاة هذا أمر سهل ومشروع!...

فقال الشيخ علاوة قبل أن يتمكن مراد من الكلام:

ـ هذا كلام وجيه. أمك لا ترضى لك سوى الخير!

لم يدر مراد ما يقول، والتفت إلى زبيدة محاولاً أن يبدي عجبه من أهله لها لعلها لا تشاركهم في رأيهم. لكن زبيدة لم تتدخل في الموضوع، ولم ترد أن تناصر أو تعارض...

فقال كالمتأسف:

ـ أنتم تتكلمون على الزواج ولا تعرفون ما يترتب عليه...

فسأل الشيخ علاوة:

ـ في أي باب؟ من الناحية المالية نتعاون، من ناحية السكن نفرغ لك حجرتين...

فرد مراد ضاحكاً:

ـ تعتقد عندما أتزوج أبقى هنا؟ لا، لن يكون. أتزوج عندما يكون لي بيت، وأكون قادراً على كل شيء. تظنون أن الناس يقبلون مصاهرة رجل يسكن عند أهله؟

فقال الشيخ علاوة في شيء من الخيبة:

ـ نحن لا نتكلم لغة واحدة... نحن نرى أن بنتاً مثل هذه لن يمكن الحصول عليها كل يوم، أنت تتكلم على البيت! إذا أردت أن تبني دوراً ثالثاً لك وحدك من يمنعك؟

ـ يمنعني ما لا أستطيع أن أعبّر لك عنه... أنا في حاجة إلى سكن بعيد عن أهلي، لأبقى دائماً أعزّهم. أتعتقد أن سكننا هذا لو كنا جميعاً متزوجين يصلح؟...

فقالت الأم بالخيبة نفسها، لكن بذكاء:

ـ نحن لا نتكلم عن سكناك أين، نتكلم عن الزواج... نتكلم عن فتاة لن تجدها من بعد إذا ضيعت الفرصة... أما السكنى فأنت حر.

ـ أنا حر لو كانت لي سكنى!

ـ فنصح عمر للجميع:

ـ دعوه يفكّر في الموضوع. القضية تحتاج إلى تفكير وإلى وقت.

فتساءلت الأم:

ـ وأنا غداً كيف يكون موقفي؟

فهوّن عليها عمر الأمر:

ـ أنت غداً لست خاطبة... أنت مدعوّة لحفل زفاف!

تكلمت منى مبدية تحرّزها من هذه الدعوة لمخالفتها للتقاليد الجارية بالعاصمة:

ـ لم أعرف في حياتي دعوة بهذه الصورة! المعمول به في الجزائر هو أن الرجال يدعون الرجال، والنساء النساءَ. لو كنت أنا لما ذهبت لزفاف مثل هذا.

فردّ عليها عمر:

ـ أنت لا يعنيك الأمر ولا نريد أن نسمع رأيك!

لكن العجوز كلثوم استدركت:

ـ ما قالته صحيح. لكننا نحن أيضاً لنا تقاليدنا. وكل معارفنا يعرفون أن الدعوة عندنا توجّه إلى الرجال وتشمل النساء والرجال... ثم إن لي مصالح خاصة في حضور هذا الحفل!

فسأل الشيخ علاوة:

ـ هل أوصيتم على الحلواء؟

فقالت العجوز كلثوم:

ـ من أوصى؟ أنت الذي كان من المفروض أن تتصل بالحلواني؟

ـ نسيت تماماً. وكيف العمل؟

ـ فقال عمر:

ـ أنا أتصل غداً صباحاً بالحلواني. لا داعي للقلق.

ـ لكن المفروض أن يعدّها لنا خصّيصاً!

ـ ما الفرق؟ القضية قضية ثمن ليس إلا. أنا أعرف حلوانياً وهو يعد لي خبزة لائقة.

قام مراد مغادراً الصالون وتبعته زبيدة وكذلك مني. وبقي عمر والشيخ علاوة والعجوز كلثوم لمواصلة الحديث بينهم عن قضية خطبة بنت عبد الجليل. وكان عمر قد ارتأى أن أحسن طريقة لإخراج إخوته من البيت هي الزواج. لم يفكّر فيها من قبل، ولكنه في الحديث مع مراد أدرك أنها أقوم سبيل!

* * *

- 11 -

نـزعت زبيدة مـلابسها العـادية وارتـدت ملابس الـزينة التي كـانت عبارة عن فستـان حريـري خالص، أسـود اللون، بورود طـويلة السوق، قـائمـة من أسفـل عـلى خـطوط رقيقـة أفقيـة، سمقت في عناق إلى مستوى الفخذين. ألوانها مـركبة من الأحمر القاني والأبيض المائل إلى الدكنـة والأخضر المصفر. وحـوالي كل وردة ضخمة مدت أغصان رقيقة بحبيبات تشبه حبات اللوز قبل الإدراك.

أعجبت نعيمـة بالفستـان وبذوق الـرسام الـذي رسم الورود عـلى هـذا اللون الأسـود الـذي تـزاوج مـع بيـاض بشرة زبيـدة وشعرها الأسود الفاحم.

لم تكن زبيدة بالرقيقة الهزيلة، ولا بالبادنة. كـانت بين بـين. لبست سلسلة من ذهب ثخينـة عريضـة، هي إلى العقـد أقـرب منهـا إلى السلسلة، وسواراً وقـرطين وخـاتمـاً محـلّى بفـاروزات. فأضافت للألوان الأولى توشية جد جميلة..

فكّرت نعيمة أن هذه المصوغات تشكّل طاقماً واحـداً. وأنها

في مكانها من جسم زبيدة تشكّل كلاً متكاملاً. أعطى لها جاذبية لم تكن تعرفها لها!

ثم تجمّلت تجمّلاً خفيفاً لم يتجاوز الحد، الأمر الذي دفع نعيمة إلى إبداء ملاحظتها علانية:

ـ أنت على الأقل لا تتجمّلين بقناطير من الأصباغ كما تفعل بعض النساء في مثل هذه المناسبات!

ـ قبل اليوم كنت مثلهن أتجمّل بقناطير من الأصباغ كما تقولين، ولم أكن أدري أن الجمال هو احتشام الألوان وانسجامها مع الكل..

ـ إنك هكذا فعلاً جذّابة!

فأجابت زبيدة بضحك ينطوي على نغم حزين:

ـ من أجذب؟ فات الحال...

ـ لم يفت، لست عجوزاً.

ـ أتعتقدين؟ لو قدّر لي أن أتزوج لما تزوجت إلا برجل عجوز.

ـ لماذا؟

ـ من يخطبني في هذه السن؟ أنا لا أخرج. إذا خطبت أخطب من طرف الأمهات والأخوات وهنّ يقلبن المرأة كما يقلبن الخضر والفواكه بالأسواق! جاءت امرأة ذات يوم تخطبني، وكنت حينئذ نحيلة فجسّتني كما تجس الشاة وقالت: يا بنيّتي، الرجل الذي يتزوّجك لا يجد فيك شيئاً!

ـ هكذا؟

ـ أقسم لك!

أقبلت الأم تستعجل ابنتها قائلة:

ـ الساعة الثانية وخمس وعشرون دقيقة. إذا تأخرنا دقيقة واحدة أخوك يتركنا. عجّلي!

ـ أنا جاهزة.

لاحظت نعيمة أن ملابس زوجة عمّها أظهرتها كامرأة بادن أكثر مما هي عليه في الحقيقة.

أخذت زبيدة شالاً فوضعته على كتفيها العاريتين ورفعت حقيبتها اليدوية وإذا ببوق سيارة عمر ينطلق بتصفيرات تستعجلها. فتنزلان، وتذهب نعيمة إلى الشرفة المطلّة على النهج لتراهما من هناك. فتجد عمر يصيح على أخته لأنها لم تتلحّف. وأمه تستعطفه وتهوّن عليه الأمر. بينما زبيدة تستعدّ للعودة إلى البيت! وأخيراً تنتهي الخصومة فتركب المرأتان. وتقلع السيارة إقلاعاً غاضباً جعل المحرّك ينفجر بصوت مزمجر بسرعته الأولى حتى أزعج السكان. فانفتحت نافذة في الجهة المقابلة، على شاب لا يرتدي إلا تبّان سباحة، راح يتابع السيارة المنطلقة التي عرجت إلى اليمين سالكة النهج المقاطع، حتى غابت عن النظر، ثم نظر إلى نعيمة وهو يبتسم ويشير بإصبعه إلى رأسه، معبّراً لها عن جنون سائق السيارة.

دخلت نعيمة وأغلقت النافذة وصعدت إلى غرفة دليلة

فوجدتها نائمة فعادت إلى غرفتها لا تدري ماذا تفعل. وحانت منها التفاتة إلى الملابس التي نزعتها زبيدة وسخة، وكذلك أزر الفراش فقررت أن تغسلها بدل البقاء بلا عمل.

في المغسل وجدت مرجلاً نحاسياً ممتلئاً بثياب، تركت في الماء والصابون الدقيق ليسهل غسلها. فرأت أن تغسلها كلها.

كان الغسيل خليطاً من أثواب الرجال والنساء. فشرعت تغسل على مغسلة عالية، وهي واقفة، تفكر في الحديث الذي جرى بينها وبين زبيدة حول زواجها، ثم في خصامها مع أخيها لأنها لم تتلحف.. وفي حياتها هذه الجديدة بدار عمها التي ستنتهي مع انتهاء السنة الدراسية، وفي مسائل أخرى ترد على ذهنها تباعاً. ومضى عليها وهي كذلك حوالي نصف ساعة، وإذا بصوت يقول لها هامساً:

«أنت طيبة، تغسلين تبّاني...» ثم يمسكها من كاضتيها، فتقفز، وتجد الرجل قد احتضنها وهو يبتسم مشيراً لها أن لا تخاف وأن لا ترفع صوتها. فتذهل! إنه عمر... فدفعته عنها بقوة. وحذرته بصوت أبح:

ـ «ابتعد عني وإلا صرخت!» فلم يستجب، وظنّها لا تلبث أن تذعن وقال لها: «لا تخافي، أنا أحبك. لا أريد الآن منك أكثر من قبلة» وحاول من جديد ضمّها إليه فدفعته مرة أخرى بكل ما فيها من قوة. وفي تلك اللحظة بالضبط نزلت منى من الدور الثاني، لأنها سمعت سيارة زوجها، وداهمها الشك أنه

بصـدد عمل مـا. ولم يكذّبهـا حدسهـا، فقد وجـدته في محـاولته الآثمـة مع نعيمـة. وما إن رآهـا واقفة بـالممر حتى غـيّر الدور، وصفـع نعيمة، كـما لو أنها هي التي اعتـدت عليه، وهـو يقـول بقوّة:

ـ أيتها اللئيمة.. وصل بك التهوّر إلى هذا الحد!

وصفعها ثانية وثالثة، بحيث لم يدر ماذا يفعل سوى الصفع، ولسانه يردّد:

ـ أعلمـك أن لا تعودي لمثـل هذا أبـداً. أنا أخـوكِ لـو كنت تستحين.

خلصت نعيمة نفسها منه بعسر، واندفعت جـارية في الممـر، ويداها مبلّلتان بالصابون، وتنّـورتها معقـودة في حزامهـا، بحيث كـان قميصها الـداخلي بـادياً، وهي كـالمدهـوشة، لم تـدر بمـاذا ابتليت!

فاعترضتها منى شاتمة ساخطة، تقول بأعلى صوتها:

ـ عرفت منذ مدة أنكما تتعـاشقان. أيتهـا اللعينة! احتضنّـاك كالأفعى! لن أقبل بك هنا دقيقـة واحدة، وإلا غـادرت أنا هـذا البيت!

فردّت عليها نعيمة والغصّة تخنقها:

ـ لست أنا، أقسم لك... اعتدى عليّ! انظري إليّ...

لكن منى لم ترد أن تسمع شيئـاً، وراحت تكيل لهـا الشتائـم. وبالرغم من تـأكّدهـا بأن زوجهـا هو المعتـدي، إلا أنها رأت أن

وجود نعيمة بالبيت هو الـذي أثاره. ثم إنها لا تستـطيع أن تيتّم أبنـاءها بسبب حـادث مثل هـذا. . . واقتربت من بـاب غـرفـة الشيخ علاوة وهي تقول لنعيمة:

ـ ظننتنـا نائمـين! حسبت أن الجوّ خـلا لك. . . أنت لئيمـة تعشقين زوج غيرك! لن أقبلك هنا أبداً!

حاول عمر أن يهدّئها قائلاً:

ـ عودي الآن إلى غرفتك. أؤكد لك، لن تبقى معنا في هـذا البيت. عودي إلى غرفتك واسكتي.

خرج الشيخ علاوة من غرفته منزعجاً، لا يدري ماذا وقع:

ـ ماذا جرى، ماذا وقع لكم؟ ما هذا الصراخ؟

فقالت له منى متباكية:

ـ اسأل ابنة أخيك. اسألها ماذا عملت. جاءت إلينا لتخـرب بيتنا. . . إنها ارتمت في أحضان ابنك!

حـاول عمر عبثـاً أن يمنعها من هـذا التصريح. . . فـدفعتـه وهي تقول:

ـ لا، لن أستحي. هي أو أنـا. إذا أردت أن تتـزوّج بهـا طلّقني!

لم تقو نعيمة عـلى البقاء بـالمر، دخلت إلى غـرفتها في أقصى حالات الفزع والاضطراب والخجل من عمها.

لكن الشيـخ علاوة لم يفهم واضحـاً ما وقـع. خيّـل إليـه أن

الأمر يتعلّق بنعيمة وعمر، ولكنه لم يدر ماذا بالضبط؟ وسأل من جديد، وهو ينظر إلى ابنه مرة أخرى وإلى منى:

ـ ماذا وقع؟ قولي أنت؟ ماذا وقع؟

فأجابه عمر:

ـ تلك اللعينة التي اعتبرناها كأخت بيننا تعدّت كل الحدود. لم تحترم لي أخوّة ولا سنّاً. إنها جُنّت... لا أقدر أن أقول لك أكثر من هذا. ذهبت لأغسل يدي بالمغسل، لأن حجرة الاغتسال كانت مغلقة، فوجدتها هناك... إنها جُنّت! لم أكن أدري أننا آوينا بنتاً ما زالت في مستوى العجماوات...

وقالت منى:

ـ وجدتهما متعانقين!

صفعها عمر، وقال بعنف:

ـ أنت أيضاً جننت؟ عودي حالاً إلى غرفتك!

ـ لن أعود. هي أو أنا...

أدرك الشيخ علاوة مضمون الخصومة، فاستشاط غضباً، وتأكد لديه أن الرسالة التي جاءتها ليست عبثاً. وقال يطيّب نفس منى ونفس ولده:

ـ بالله العظيم، ونبيّه الكريم، لن أدعها في هذا البيت. الآن أكلّم أباها يأتي إليها. عودي إلى أولادك، بنيّتي. أنت عزيزة علينا! عودي... لن أدع هذه المتوحّشة بيننا. لتحي في غابتها أو لتذهب إلى الشيطان!

سمعت دليلة الهرج فنزلت. وقد سمعت قسم أبيها، فسألت منى فدفعها عمر:

ـ هذا أمر لا يهمك. امشي في حالك!

لكن دليلة كرّرت سؤالها ولم تعبأ بما قال أخوها:

ـ ماذا وقع! منى؟ قولي!

فأجابتها متباكية:

ـ اسألي ابنة عمك!

فردّت دليلة بقوة:

ـ كذب! تكذبون عليها!

ونظرت بغضب إلى أخيها. فهدّدها بالضرب:

ـ اغربي من أمامي وإلا أفسدت وجهك!

لكن دليلة لم يخفها تهديده، وخاطبت أباها:

ـ يكذبان عليها، يا أبي!

هجم عليها عمر وصفعها. فتدخّل الشيخ علاوة ليفكّ بينهما. وقالت دليلة تحذّر أخاها:

ـ إيّاك أن تعود إلى هذا أبداً! سأفضحك أمام زوجتك!

حاول عمر مرة أخرى أن يهجم عليها، لكن الشيخ علاوة رجاه بإلحاح أن يدع له الأمر. وصاح على دليلة:

ـ أيتها اللعينة! أتصل بك الوقاحة إلى تهديد أخيك. اذهبي

من أمامي عليك اللعنة!

تركتهم دليلة وذهبت إلى نعيمة، فوجدتها منبطحة على السرير تبكي بكاء مرّاً، وتنورتها ما تزال مشدودة في حزامها. فأدركت دليلة أنها لو كانت لها يد فيما اتهمت به لما بقيت في هذا الوضع! وتأكّدت من أن أخاها اعتدى عليها وهي منهمكة في عملها. جلست على السرير إزاءها تربّت على كتفها. لكن نعيمة كانت في لوعة مرّة. لقد شعرت أن الدنيا أطبقت عليها! لم تكن تظن أن تهوّر ابن عمّها يتجاوز المغازلة بالإيماء والتلويح إلى الفعل. وأقض نفسها أن تكون محل الفضيحة أمام عمّها وزوجة ابن عمها وكل أفراد العائلة الذين سيعلمون الواحد بعد الآخر من غير أن تكون لها يد في الموضوع لا من قريب ولا من بعيد. إنها تعرف أن براءتها مهما كانت فلن تصل بالآخرين إلى تصديقها وتكذيبه هو الذي يعتبر في المقام الأول بعد عمّها في السلّم العائلي. طبعاً، هي لا تعرف أن دليلة اكتشفت جرائره، وأنها كيفما كان الحال ستقف إلى جانبها، وكذلك رضا الذي علم بسلوك أخيه الآثم مع بعض الكاتبات. . . ومع ذلك فلم تكن مخطئة في تقديرها كل الخطأ. الفضيحة وقعت، وهي طرف فيها أحبّت أم كرهت. عمّها لن يكذّب ابنه الأكبر المتزوج ويصدّقها هي، ولو رأى عياناً ما وقع.

زوجة عمها ستكون أشد وأقسى عليها من عمها. . . لا تقبل مطلقاً أن يتهم أبناؤها من أي كان. ثم ماذا يقول أبوها عندما يطّلع على هذه الفضيحة أيصدّقها ويكذّب الآخرين؟

ولماذا يكذّبهم؟ أليسوا هم الذين قبلوا أن تقيم بينهم بالترحاب والسرور؟ أليس عمها هو الذي أقنع أباها أن تأتي إلى الجزائر لمواصلة دراستها بالجامعة؟ أبوها كان يعتزم إدخالها إلى المعهد التكنولوجي للتربية بتيزي أوزو. ماذا تقول إذن لأبيها؟ سيقتلها ظالمة أو مظلومة، سوف يجد تأويلاً لسلوك عمر، إذا وصل به الأمر إلى الشك فيه، وهو أمر مستبعد.

إن حياتها تقوّضت من الأساس. أمها توفّيت. زوجة أبيها مهما كانت رحيمة لا تستطيع التأثير على أبيها مثل الأم.

قالت لها دليلة تهدّئها:

ـ نعيمة يكفي من البكاء!

فأجابت بتلعثم والعبرات تخنقها:

ـ إني بريئة. أقسم أني بريئة!

ـ أعرف أنك بريئة. أنا متأكّدة من ذلك، ولو شهد كلهم ضدك.

ـ أنا بريئة، كنت أغسل الثياب، وإذا به يأتي إلى المغسل ويحتضنني... وأرجعَ في النهاية كل شيء عليّ حتى أبوه صدّقه!... أنا بريئة...

وقفت الكلمات في حلقها، وطوّقها اليأس من جميع أقطارها. فقالت لها دليلة وقد ترقرقت عيناها بالدموع، تواسيها في حزن:

ـ هوّني عليك يا نعيمة. أعرف أنك بريئة. الأبرياء هم

الضحايا دائماً. إننا نعيش في مجتمع الرجال.

فأعربت نعيمة ببكاء وألم:

ـ كل مستقبلي أصبح سراباً...

ـ لا تبكي يا نعيمة! لا تبكي يا أختي. إن اللعنة التي نزلت علينا لن تزول بالبكاء. يجب أن نواجه حياتنا بشجاعة. فهمت؟

ـ لكني لم أفعل شيئاً لأستحقّ هذا المصير المفجع! لم أفعل شيئاً...

ـ أعرف أنك لم تفعلي شيئاً. ثبّتي جأشك يا نعيمة. لا تدعي الذعر يفسد عليك رأيك. ينبغي أن تواجهي هذه الكارثة بذكاء وصمود.

ـ وماذا أفعل؟

ـ كوني قوية. إن ضعفك يجرّمك لا يبرّئك. كوني متيقّنة أني سأقف إلى جانبك مهما كانت الظروف، وكذلك رضا... لن يدعك.

لمع اسم رضا كالشعاع في قلبها. كان معها في الاجتماع جنباً إلى جنب، كأي رجل مع زوجته، ولم تبد منه طوال الاجتماع أي حركة مريبة!

وأضافت دليلة:

ـ سنقف جنبك كلنا، أنا، رضا، هالة، زبيدة... كلنا. إني أعرف عنه أشياء لا يعلمها أحد. إن لزم الأمر فضحته. أنا لا أخشى أحداً، ولا سيّما الآن وأنا...

لم تتم جملتها وأمسكت عن الكلام. كانت تريد أن تقول وأنا حبلى. لكنها عدلت عن ذلك. لا ينبغي أن تشكو حالها لأحد. لم تسأل الناس رأيهم عندما انزلقت في إثمها. كان الويسكي والغريزة وتمثيل كريمو دور العاشق الولهان، كل هذه تضافرت عليها في وقت من أوقات الضعف فدفعت بها إلى الرذيلة. لا تشكو لأحد ولا تطلب من أحد عوناً عن مصير كتبت بنفسها خطوطه الأولى.

استمرت نعيمة في بكائها، واختلطت في ذهنها السبل، فلم تعد تدري ما تفعل سوى البكاء. فأخذتها دليلة بحزم:

ـ يكفي من البكاء. لماذا لا يبكي هو؟ مظلومة وتبكين؟ إنك في العشرين من العمر، ومثقفة، فماذا تخشين؟ أباك؟ هو رجل كالرجال، لا تتوهمي أنه بطل الأبطال لأنه شارك في حرب التحرير. الجزائر كلها شاركت، حتى النساء. لا يخيفنّك ما يحكي عن نفسه من بطولات. قولي له بدون حياء أو تلعثم ما وقع فإن لم يصدّقك، أخذت أبوّته ورميت بها وجهه! إنك قانونياً في سن الرشد، فلا هو ولا غيره يستطيع السيطرة عليك. آباؤنا نحترمهم في حدود احترامنا لنا. لا ينبغي أن نخافهم. إنهم الماضي، ونحن المستقبل. كفّي عن البكاء. تعالي إلى المطبخ نعدّ قهوة.

ثم أخرجت علبة السقائر وقالت لها:

ـ إذا شئت أعطيتك سيقارة، وخرجنا بهما موقدتين يملأ دخانهما ممرات البيت! لنتحدَّ كل واحد! قومي.

قامت نعيمة، وأحسّت كأن خيطاً من نور أخذ يضيء الأجزاء التي أظلمها اليأس!

جرّتها دليلة من يدها جرّاً وقالت لها وقد دخلتا المطبخ:

ـ ماذا تريدين أن نشرب، شاياً أم قهوة؟

ـ أنا لا أريد شيئاً. بودّي أن أنام.

ـ بودّك أن تهربي مما أنت فيه، والهروب لا يفيدك! اشربي القهوة، وفكّري بمنطق في الخروج من هذه الورطة، بأقل كلفة ممكنة.

ـ لا أظن أني أستطيع الخروج. لا عمي يتفهّم، ولا أمك ولا أبي. إنه (عمر) في نظرهم المثل الذي يقتدى به. كل ليلة بالصالون يعاكسني ويضايقني.

ـ كنت تكشفينه. كان عليك أن لا تتسامحي معه. رجل له أربعة أولاد لا ينبغي له إلا الصفع.

ـ من أدراني أني سأصل إلى ما وصلت إليه؟

ـ لي اقتراح، إذا شئت عرضته عليك؟

ـ ما هو؟

ـ ينبغي أن يبقى سراً بيننا. اكتريت غرفة بدار عربية بالقصبة. ودفعت ثلاثة أشهر مسبقاً... إذا أحببت، تستطيعين أن تسكني معي.

ـ أسكن معك، وأبي؟

ـ أأنت في حاجة إليه طول حياتك؟ أم في حاجة إلى الموت في العشرين؟

ـ لا، لا أستطيع أن أهرب ولو قتلت.

ـ لا تهربين، وإنما تستقلّين بحياتك ليس إلا.

ـ كل شيء ولا هذا... لن أفارق الدار بهذه الصورة ولو قتلني.

فكرت دليلة أن مواصلة الحديث معها في هذا الموضوع لا طائل من ورائها. وسألتها:

ـ هل كنت هنا عندما رجع عمر من العمل؟

ـ نعم.

ـ هل فتح صندوق البريد؟

ـ لم أره. لكني رأيت ساعي البريد عندما مرّ، كنت بالنافذة، لم يأت بأي رسالة.

كانت دليلة واقفة أمام الموقد الغازي تتأمل ألسنة النار الملتهبة حول المغلاة. أما نعيمة فكانت جالسة قرب طاولة، يدها اليسرى على خدها، وقد افتقد وجهها كل ما كان يشع فيه من سحر وجاذبية وابتسام.

عاد الشيخ علاوة إلى غرفته بعد أن هدّأ من غضب كنّته وابنه. إن سلوك نعيمة أقنطه نهائياً، ولم يعد يرجو لها خيراً. إنها في نظره لا تستحق شفقة ولا عفواً. عندما قرأ الرسالة، بالرغم من انذهاله وتصدّع فكره لهول «الإثم المقترف» تريّث حتى تفوت فورة الغضب، ليرى ماذا يفعل. وخيّل إليه أنها لو أقدمت على الإجهاض لحلّت المشكلة على الأقل بالنسبة إليه... أما الآن فقد تطوّر الموضوع تطوراً خطيراً. إنه يمسّه مباشرة...

قام إلى الخزانة فأخرج الرسالة وقرأها من جديد. . . وتيقّن يقيناً لا يشوبه شك أنها تحمل في أحشائها لقيطاً: نعيمة جاءت إلى الجزائر رابطة شعرها في غديرة أرسلتها إلى الوراء، تشد رأسها بمنديل. لقد «تحضّرت»! ويا له من تحضّر! وقال في نفسه: «اللعينة! تريد تلطيخ عمر بلقيطها. ولم لا؟ كل شيء ممكن في نظرها ما دام أنها استباحت الحرام؟ تظن أنها بهذه الوسيلة يجد لها أبوها عذراً، ويرد سخطه عليّ وعلى عمر. لو اتهمت رضا لوجدت لها عذراً. . . تريد تدنيس عمر! ثم بعد أشهر تبدأ المساومة، إما أن يتزوجها ويطلّق مني أو تكشفه، تكشف أنها حبلى منه! هذا هو برنامجها بالضبط. لكنها نسيت شخصاً آخر لم تأخذه بعين الاعتبار. نسيت الشيخ علاوة الذي لا تخفى عليه خافية.».

«هي لا تدري أن الرسالة التي أرسلت إليها بين يديّ! سوف أريها أيّ رجل هو هذا العمّ!».

وفكّر أن ينزل إلى الصالون، حيث الهاتف ليبعث إلى أخيه بالمجيء إلى الجزائر.

لم يكن بالصالون أحد. أخذ الهاتف وكلّم تاجراً يعرفه، أوصى لأخيه أن يأتي للجزائر متى أمكنه القدوم.

وخرج عائداً إلى غرفته، فالتقى برضا داخلاً. لم يكلم أحدهما الآخر.

فكّر الشيخ علاوة بسخط أن داره كالفندق الذي يسكن فيه

الزبون على نفقة الحكومة... هذا رضا يسكن في بيته ويأكل من طعامه يمرّ عليه ولا يكلّمه حتى الكلام كأنه لا يعرفه!

جلس في مكانه المعتاد بالغرفة، قبالة خزانة كتبه، وأخذ مسبحته ومضى يعدّ حباتها عدّاً رتيباً منتظماً، لا يحصي عبادات وأذكاراً ولا أموالاً، إنما يستعيد بها ذكريات، تشكل رؤوس مراحل بكاملها... رأى نفسه مع أخيه صالح المجاهد في «المسيرة الطويلة»، كما يسميها عندما يتحدث عن ذهابه إلى تونس أثناء الثورة المسلحة. كانت الدوائر الاستعمارية تعدّ لإلقاء القبض عليه وعلى كل المثقّفين «المشبوهين» ولم تكن أمام الشيخ علاوة من طريق إلى مغادرة الجزائر سوى طريق الجبل، يسلكها إلى تونس. لم يكن يقدر على المشي، ولا يتحمّل مشاق الأوعار والغابات والظلام، ولربما الموت. كانت مغامرة جريئة بالنسبة إليه. ولكنها كانت على كل حال أهون من السجن أو النفي إلى بعض محتشدات الجنوب. وكان يقول بعد أن نجحت مغامرته واجتاز الأيام السوداء: «ينبغي للعاقل أن يستنزف كل ذكائه وخياله للهروب من سجن المستعمر. السجن حقيقة عمل وطني عظيم بنتائجه، لكن الهروب منه للمناضل أفيد للوطن!».

لم تكن الأرض التي سلكها هي جبال وغابات وأحراش الجزائر. إنما كانت كابوساً رهيباً مظلماً، يتربّص الموت فيه بصاحبه في كل خطوة يخطوها. كان بالليل المسير وبالنهار الاختفاء في المغارات والأدغال. لم يكن حينئذ في الجزائر مكان للعقول أن تفكر، كانت المدافع والرشاشات هي العقول

المفكرة. وفي السماء كانت الطائرات.

استمرت هذه «المسيرة» ثلاثة أشهر. وانتهت بانتصار الشيخ علاوة، بفضل مساعدة أخيه المجاهد. انتصر على الخوف!

كان عندما يمزح يقول: «أنا مسيرتي إلى تونس أثناء حرب التحرير هي تأشيرة حريّتي وضريبتها في الوقت نفسه»!

ويضيف معترفاً: «لكن انتصاري يعود الفضل فيه إلى صالح!» صالح الذي أوصى له منذ دقائق أن يأتي ليردّ إليه خيره...

وبينما هو في أفكاره تلك والحزن يقطّع نفسه تقطيعاً إذا به يسمع صلصلة الهاتف، ينزل مسرعاً فيجد أخاه، يسأله لماذا طلب مجيئه، فيخبره بأن الأمر يتعلق بنعيمة وأنه لا يمكن أن يقول له أكثر من ذلك في الهاتف. فيخبره صالح بأنه آت من الغد.

ويعود من جديد إلى غرفته، ولكنه في هذه المرة يحس بالإنهيار الكامل.

* * *

توقّع رضا منذ مدة حدوث هذه الكارثة بنعيمة. طبعاً هو لم يكن يتصوّرها بالعمق الذي تتصوّره بها هي. كان يظن أنها تتعرض إلى ما يتعرض إليه كل من يريد أن يتحول من وضع إلى آخر بنزاهة وطهارة ضمير.

كان قد فكّر ملياً فيها منذ تطوّعها للثورة الزراعية، وقدّر في

نفسه أن تحوّلها هذا السريع من فتاة ريفية ساذجة، لا تعرف حياة المدينة ولا ما فيها من صراعات إيديولوجية، إلى مثقّفة واعية تتجه إلى طريق الثورة بتلك النزاهة وبذلك الطهر. . . سيعرّضها إلى نكبات قلّما يصمد لها من لم تحنّكه التجربة.

ولما رجع إلى البيت بعد الظهر أخبرته دليلة بكل ما وقع، وسمع أباه يتحدّث مع أخيه في الهاتف فأحسّ أن النكبة جد مؤلمة بالنسبة لها. فكّر أن يقوم بشيء يخفف عليها وطأة المصيبة، بشيء لا يقدر في تلك الظروف على أكثر منه. وطلب إلى دليلة أن تنزل معه إلى غرفة نعيمة.

وجدها جالسة إلى طاولة كتابة. تشدّ رأسها بين يديها، وجهها فقد رواءه واتخذ شكلاً حزيناً لم يعرفه لها أحد من قبل.

قال لها:

ـ أنت غالطة تدعين نفسك تنهارين بهذه السهولة. ينبغي أن تقاومي. ستعودين غداً أو بعد غد، أو بعد شهر إلى القرية. لكن الرجوع إلى القرية لا يعني توقّف الحياة. لا أستطيع أن أكون أباً آخر لك، ولا تفيدك «أبوّتي» بشيء. لذلك فكّرت أن أهدي إليك قصة شعرية رمزية، أو أسطورة. . . التسمية لا تهمّ. أقرأها عليك، وأعطيك إيّاها بعد ذلك. اجلسي دليلة.

عنوان هذه القصة الشعرية: «زهرة الحقل».

وأخذ يقرأ القصة، وكان ذا صوت جدّ رخيم وجدّ مؤثّر فقال:

كان بأحد الحقول زهرة،
لا تخشى الحر،
لا تخشى الرياح،
لا تخشى العواصف.
كانت عروقها متمكّنة في الأرض.
وكانت سعيدة!
عندما تقوم كل صباح تبتسم،
للعشب حولها،
للأنسام.
تشرب من الندى أصفى قطراته،
ومن النور أجمل شعاع.
تقضي يومها في استقبال الفراشات،
والحشرات،
وكل صغير يطير!
الكل يحبها،
والكل يغازلها،
والكل منها في هيام.
وكانت بذلك سعيدة!

. . .

لم تكن تصل إليها حشرات الحضر،
ولا الفراشات.
عالمها حقلها،

والعشب الملتف بها أمنها.
غذاؤها الأنسام،
والندى،
والنور.
وشغلها،
غرام من حولها بها.
وهي بذلك في دلال،
وسعادة حال.

. . .

ذات يوم،
أفاقت من النوم،
فوجدت نحلة،
وصلت إليها في غفلة،
من العيون!
قالت لها الزهرة:
أيتها النحلة!
من جاء بك إلى حقل أمين.
بمنأى عن كل عين؟
أجابت النحلة:
سرت وراء شعاع،
فاختلط بالسحب وضاع.
وعصفت بي الرياح،

مثخنة بالجراح،
لا أمل لي في رواح.
هذه قصتي.
فهل لي من عون؟
لي صغار مقبلون،
ورفاق ينتظرون.
فقالت لها الزهرة.
وهي في أمرها في حيرة:
خذي ما يكفيك من رحيق،
واذهبي قبلما الجند يفيق،
تموتين بعيداً عن الأهل والصديق.
شكرتها النحلة،
وغنّت لها أعذب الألحان.
فأعجبت الزهرة بهذه الأغاني الحسان،
وسألتها من أي مكان؟
فقالت النحلة:
هذه أغاني حضر،
لا تعرفها الحقول ولا القمر!
فيها من كل لون ألوان.
مرة تحكي البكاء والحرمان،
مرة تشكو جور السلطان،
مرة تعيد إلى الأذهان،

قصة الثورة على الطغيان!
فازدادت الزهرة طرباً وعجباً،
وسألت سؤال المتعطّش اللّهفان:
أكل ما تذكرين يوجد في هذا الزمان؟
فقالت النحلة:
لا أغني قصص الماضي.
أنا ابنة زمان ومكان.
من بحث فيه عما كان
فقد زمانه والمكان!
بكت الزهرة وتحسّرت
وسألت:
أتوجد زهور،
ألوانها من نور،
في رقة ما غنّيت من ألحان!
أجابت النحلة:
عندنا الزهور
تسكن القصور
مع الحور
تشرب الماء والنور.
عندنا زهور،
للبساتين دثور،
للعيون حبور،

وللنفس أنس.
عندنا زهور،
عطرها بخور
وسرور.
وألوانها للغريب أنس
تعدّين ريش الطير،
ولا ألوانها.
تعدّين النجوم،
ولا أجناسها.
تعدّين حبات المطر،
ولا أشكالها.
زهور حضر،
عشّاقها في السماء،
نجوم وقمر.
وفي الأرض،
عرائس وأوانس،
وأنسام من البحر.
الأغاني تملأ الأكوان بذكرها،
أبد الدهر!
يغنيها،
تمجيداً لها،
إنسان من البشر

لا الحيوانات الأخر!

. . .

بكت الزهرة،
تخيّلت نفسها في حفرة،
بين جبال وشجر،
لا قيمة لها ولا ذكر.
عشّاقها فراشات،
وحشرات،
لا قيمة لها بين البشر!
سألتها النحلة:
ما يبكيك؟
بكل علمي أفديك.
قالت الزهرة:
أبكاني علمي، أنا في حيرة.
كنت بجهلي في غمرة،
ظننت الشمس تشرق لي،
ومن أجلي يطلع القمر!

. . .

فكّرت النحلة،
وهي من أمر الزهرة
في حيرة،

ومن كرمها في عرفان
لا ينكره إلّا الإنسان.
وبزغت في رأسها فكرة،
فيها للزهرة سلوان،
وأمل،
لسعادة بلا جهل...
قالت والشهد يقطر من فيها:
أيتها الزهرة الحرة،
رحيقك صار شهداً،
وعونك ديناً ووداً،
هل لك في الاغتراب،
عن العشاق والأحباب،
عن الحقل والأعشاب؟
فرحت الزهرة واستبشرت،
وقبلت فوراً وأخبرت:
أنا لحياة الحضر والقصور،
أسمح في الفراشات والطيور
والنجوم والبدور!
بنت النحلة حولها،
بيتاً للفراخ وللعسل،
لاصطياد صائد العسل!
الزهرة تشرب ما استطاعت من قطر،

من ندوة الليل والسحر،
من حبات المطر.
لتصنع الرحيق للنحلة الصديق.
النحلة تبني كل يوم،
بذاك الرحيق،
شهداً شهيّاً ثمن الطريق.

. . .

ذات يوم جاء صياد العسل
أبعد النحل واصطاد العسل
ورأى قرب البيت زهرة،
تملأ النفس مسرّة.
فاقتلعها بالتراب،
وبما التفّ بها من أعشاب.
وأتى المدينة يبتسم،
أولاده المرضى
لن يشكوا ألم،
هم منذ اليوم في نعم!

. . .

مشى في الحي، في حبور،
في حي القصور:
يا من يشتهي الرحيق!

والزهر للصديق!
معي شهد أنقى من القمر،
معي زهرة لم يلمسها بشر!
هي هدية العمر!
جاء شيخ يساوم،
ثم غاب.
ثم شاب،
لم يكن بالزهر عالم.
وعجوز،
عجمت كل الرموز،
تبغي الشهد وحيداً.
رفض الصياد رفضاً شديداً:
الشهد بلا زهور،
ليس من تقاليد القصور!
ثم ولت.
وإذا ببنت أطلّت،
لا تساوم.
دفعت للصياد نقدا،
ثم قالت:
هذه الزهرة فذّة،
هي لي أحلى ملذّة!

. . .

عاشت الزهرة عمرا،
لا تبكي حراً ولا قرا.
لا تخاف عصف ريح،
لا مطر.
حياة القصر أغوتها
وأنستها الحقول،
وأنستها الفراشات،
وأنستها الشمس
وأنستها القمر!

. . .

ذات صبح وهي في الشباك تنظر،
فرأت زهرة سوق،
ألقيت في قمامة!
فاشمأزّت وقالت:
إنني لا أطيق شمّ ريحك.
أبعدي عن هوائي،
ريح موتك.
أنا زهرة حقل،
لست مثلك!
ضحكت زهرة السوق بحزن،
وهي للأنفاس تلفظ:
كنت مثلك. . .

جئت من حقل بعيد،
لحياة القصر أرنو،
عشقتني فتاة،
زرعت مني حديقة.
كنت زهرة
فأصبحت زهوراً.
كنت أحيا في قصر،
أصبح القصر قصوراً!
ثم بعت وجئت،
إلى السوق لأهدى مثل غيري.
وذبلت!
فقلت:
غرور،
كل قصر غرور!
زهرة الحقل اشمأزّت،
وقالت:
أنا إن مت...
لكن لا أموت،
اذهبي عني بعيداً.
إن ريحك،
أبعد الأنسام عني.
لا أريدك!

كان للحسناء خل
أخبرت ذات يوم،
أنه بهواه يرنو
لسواها.
رمت المحبس سخطاً،
فتكسّر!
والتراب الذي فيه تبعثر!
وإذا الزهرة تهوي وتعثر!
وإذا الأرجل تمشي لا تنظر،
فتموت وهي تنظر!

. . .

جاءت النحلة تغنّي
تسأل الأزهار عنها،
أخبرت أنها ماتت،
ميتة الزهر الغريب،
وحيدة!
فبكت عليها وطارت،
للشعاع البعيد تلاحق.
ثم حطّت في مكان،
كلّه زهر جديد
كلّه صلب عتيد!
سألته:

أيها الزهر الجديد،
من تكون؟
فأجاب الزهر بصوت،
هو للقوّة لحن:
نحن زهر الحقل أحببنا القصور
دهكتنا إذ ذبلنا الأرجل.
فحلفنا: لا نموت!
من نبات صرنا سماداً،
وبذوراً لا تموت!
عدنا للحقل نغنّي،
للفراشات،
للأعشاب،
للأنسام،
نملأ الدنيا عطوراً،
لا نموت!

كان رضا يقرأ ونعيمة تبكي ودليلة تدخن سيقارة وراء الأخرى أمامه لأول مرة، ولما انتهى قدّم إليها القصة وربّت على كتفها، ثم خرج بدون أن ينبس بكلمة.

وكانت نعيمة تقول له في نفسها: رضا، أحزنك حالي... أحسست ذلك من نبرات صوتك، وأنت تقرأ لي القصة. أتعرف، إن صوتك كان ينفذ إلى أبعد ذرات الوعي في روحي؟ نعم، في كل وقفة، وددت أن أقاطعك وأقول لك: رضا!

رضـــا!... ثم أنــظر إليــك، إلى طيبــة نـفســك، إلى رقّــة أحاسيسك... أنا لا أحسن الكلام. لا أستطيع أن أصـوّر لك إحساسي. لأنك كلّ والكلمات تجزّىء. لا أعرف الحب، لذلـك لا أدري كيف أصوّر ما أجـده في قلبي نحوك. ذكـرك يملأ قلبي عـطراً ونوراً وسروراً. عنـدما دخلت غـرفتي غمـرتني نشـوة، لم أعــرف في حيــاتي مثلهــا. وأحسست كــل ذرّات نفسي هبّت لتحتضنك، بكل ما فيها من حنـان، بكل مـا تتسع لـه من ودّ. نسيت همّي، نسيت عمّي، نسيت هــذه الأيــام الســوداء التي أقبلت عليّ في غير انتـظار. رضا، لمـاذا قرأت القصـة بصوتـك؟ ألتبقى في نفسي متّصلة بحضـــورك؟ أعـاهــدك لن أنســاهــا. أعاهدك، لن أنساك! الآن لا أخاف المـوت. ألست أنا البـذرة؟ لن أموت!

وشهقت شهقات عالية أفزعت دليلة التي كـانت غاضبـة على نفسها وعلى الزمان والمكان، فقالت لها:

ـ لا تبكي! كأنك لم تفقهي شيئاً؟ لا ينبغي أن نبكي.

وقامت وقد فرغت علبة سقائرها وقالت لنعيمة:

ـ أذهب إلى غـرفتي لأرى مـا إذا كـانت هنـاك علبـة سقـائـر وأعود.

أحسّت نعيمة أن دموعـاً غزيـرة منعتها من مـواصلة حديثهـا النفسي إلى رضا. وفكرت أن الناس كلهم لهم أمهاتهم، وهي لا أم لها.

حاولت أن تتذكّر أو ترى في ذهنها صورة أمها، لكن ذاكرتها لم تعرض عليها صورة واضحة، ولا أثارت في نفسها شعوراً بفقد كائن تحبّه. إنما أثارت إحساساً بالفراغ، كما لو أنها وجدت نفسها بغتة وحدها. هي لا تعرف أمها بالمعنى العاطفي ولذلك فهي لا تحسّها بقدر ما تحس عدمها. فالأم بالنسبة إليها هي الكائن الذي تفتقده لا الذي تعرفه وفُقِد.

كفلتها عمّتها في حوالي الثالثة من العمر. لم تعرف أن لها أباً حقيقياً إلا ذات يوم من أيام مايو، مثل مايو الذي هي فيه الآن. كان ذلك عندما دخل رجل على عمّتها، يلبس لباس جندي من جيش التحرير فنظرت إليه عمتها وهي مشدوهة لا تصدق عينيها. ثم زغردت ثلاث مرات واحتضنته وهي تبكي بلا دموع، وتقول: «أخي! أخي العزيز ابن أمي... عدت إليّ حيّاً! عدت إليّ أنا ونعيمة! عدت... كم أنا سعيدة! كم هو سعيد هذا اليوم!».

تتذكّر نعيمة كيف حملها ذلك الجندي في ذراعه وقال لها: «هل تعرفين من أنا؟ أنا أبوك!» من ذلك اليوم عرفت ما هو الأب. هو رجل يدخل الدار فجأة، يلبس لباس جندي يحملها في ذراعه ويقول لها: أنا أبوك.

ثم أقبل الجيران رجالاً ونساءً يهنّئون ويحمدون له الرجوع سالماً. بين زغاريد النساء وضحكهن الذي لا ينقطع.

في ذلك اليوم ذبحت عمّتها المعزة الوحيدة التي تملكها وتحبها

هي. . . السرور لا يمشي وحده، يرافقه الحزن غالباً! كانت تلك المعزة حواء، في جبينها غرّة بيضاء. . . تتذكّر صورتها نعيمة بحضور غريب! قرّرت ذبحها بمناسبة عودة ذلك الجندي الذي حملها في ذراعها وقال لها: «أنا أبوك!».

بهذه المناسبة أيضاً عرفت أن لها أماً، لا كالأمهات، ولكن عبارة عن قبر مستطيل نصبت فوقه ثلاثة شواهد. . .

ذهبت هي وعمّتها والجندي الذي قال لها أنا أبوك إلى المقبرة. وقفوا على قبر قالت عمتها هو قبر أمها. لم يكن يمتاز بشيء من بين القبور الأخرى. لم تحس نحوه بأي عاطفة. كان بإمكانها أن تقف أمام أي قبر. . .

من هذه الذكرى إلى ذكريات الحرب. وذكريات الحرب ليست كثيرة لدى نعيمة. كل حرب التحرير تمثلها في نفسها صورة واحدة متكرّرة: تأتي الشاحنات معبّأة بالعساكر، يخرجون من بالقرية من رجال ونساء وأطفال من بيوتهم، يأمرونهم بالوقوف إلى الحائط، يفتشون، ثم يعودون من حيث أتوا. في بعض الأحيان يأخذون معهم رجلاً أو اثنين. . .

وهناك صورة أخرى تتذكرها دائماً بسرور: صورة عسكري لباسه أنظف من لباس الآخرين، يأتي دائماً في سيارة مكشوفة (جيب) مع القائد أو «الشامبيط». ينزل من السيارة. يصافح الناس. لا يأمرهم بالوقوف إلى الحائط. يتحدّث معهم، مع الأطفال، . . . حتى معها هي! يسمّي السكان هذا الضابط

الفـرنسي: «لاصاص» (S. A. S.) لكنهـا هي تسميه رجـل الشيكولاطة!

يسألها سؤالاً واحداً أبوك جـاء أم لا؟ فتجيبه: لا. يـربّت على كتفها ويعطيها الشوكولاطة، وينصرف!

نهتهـا عمّتهـا عن الحـديث مـع الضـابط، نهتهـا عن أخـذ الشيكولاطة منه. لكنها تحب الشيكولاطة... طبعاً عندمـا تقدّم بها العمر إلى مستوى إدراك مثل هـذه الأمور فهمت كـل شيء، ولكنها مع ذلك لا تجد في نفسها أيّ كره نحو ذلك الضابط!

ثم عرفت الحرب ووقائعها من حكايات أبيهـا، تسمعها كـل ليلة، حتى حفظتها كما تحفظ القطع الأدبية في المدرسة...

ثم تحدّث أبوها وعمّتها عن مغادرة القرية إلى المدينة. وتحدّثـا عن البقاء بالقـرية أيضـاً... واستمرّ الحـديث شهوراً! ثم قـرّر البقاء في القرية بمفرده. المـدينة لا تعـطيه شيئـاً. عليه أن يبحث عن السكن، عن العمل، عن الأصدقاء... وهو له كل هذا في القـرية! قـرّر البقاء. قـال ذلـك لعمّتهـا ذات ليلة: «نبقى هنـا بالقرية! كلمة واحدة! كلمة واحدة هي التي جعلت العائلة تبقى بـالقريـة. لو قـال كلمة أخـرى بدلهـا لنتج عنهـا شيء آخر... أدركت نعيمة أن أهلها بقوا في القرية لأن أباها قال: «نبقى هنـا بالقرية!».

لكن العمّة الرؤوم توافيها المنيّة! إنه يـوم مظلم حقـاً في حياة نعيمة! لأن عمّتها شيء آخر. كانت بالنسبة إليها هي كل شيء.

ثم ماتت بسرعة! لم تمرض كثيراً، أيّاماً وليالي، ثم ذهبت إلى الأبد. كانت نعيمة عندئذ في التاسعة من العمر.

ذكرى أخرى تعود إلى ذهن نعيمة في هذا الرجوع إلى الوراء: زواج أبيها... ذكرى لم تكن ذات أهمية كبرى من الناحية العاطفية، لأن هذا الزواج جاء في وقت كان فيه البيت في حاجة إلى امرأة تقوم على شؤونه. فكان إنقاذاً لها من الأعمال المنزلية المرهقة التي وليتها أياماً...

ثم جاء العم ذات يوم لحضور الحفل الذي أقامه أبوها لها بمناسبة نجاحها في الباكالوريا. وتحدث الأب والعم، وانتهى الحديث بقرار فتح الحياة أمام نعيمة، حياة الحلم والنور والمستقبل الوضّاء!

دخلت دليلة فوجدتها في الجلسة المحطمة نفسها والحزن الممض نفسه، فقالت لها:

ـ إلى متى تبقين هكذا؟ ينبغي أن تجابهي الشر بالشر. لا يخيفك عمر ولا أبي ولا ينبغي أن يخيفك أبوك. عندما تعود أمي، ربما تتفهّم الوضع وتحاول الإصلاح ولكن ذلك لن يجديك، لأن عمر لن يقبل ببقائك. وإذا قبل هو فلن تقبل مني.

ـ أتعتقدين أني أفكر في البقاء؟ الآن انتهى كل شيء بالنسبة إليّ. هذا البيت سأغادره حيّة أو ميتة عندما يأتي أبي. ولن يراني بعد ذلك أبداً.

ـ ميتة! لماذا ميتة؟ لا تفكري هكذا. أبوك أو شخص آخر سواء. لا تقبلي الأغلال من أحد. ليس يفيدك أن تكوني «سماداً» كما قال رضا... مع الجلّادين لا تبادري بتقديم نفسك ضحيّة. علينا أن نحطّم مجتمع الرجال!

ـ بالكلام!

ـ إذا واصلت التفكير بهذا المنطق أقطع معك كل صلة.

ـ هي مقطوعة، ولو أحببت وصلها. أنا غداً سأعود إلى قريتي. لن تسمعي بي أنت ولن يسمع بي غيرك.

ـ أنا أيضاً سأغادر هذه الدار، ربما قبلك... هذه الدار ينبغي أن تنفجر لتدع المكان إلى قيام دار أخرى أكثر ملاءمة للحياة.

ـ تنفجر بالكلام... ستبقى هكذا.

ـ أنا أفجرها!

ـ الكلمات ليست جميلة عندما لا تكون أفعالاً، أو شعراً...

ـ أنت لا تعرفين كل شيء.

ـ بالنسبة إليّ كل شيء صار واضحاً.

ـ أنت تعتقدين أننا نبقى ساكتين هكذا دائماً في هذه الثكنة؟ لا. لن نسكت.

لم تجبها نعيمة بشيء، كأنها صارت من عالم آخر، لا يهمّها مطلقاً ما يجري في هذا العالم. كانت تحسّ بإرهاق وصداع. سألتها دليلة:

ـ ألا تريدين أن نخرج؟

ـ أريد أن أنام. لو استطعت لأغمضت عيني حتى عن النور.

ـ لا يفيدك شيئاً إغماض عينيك. على كل أنا خارجة. لأني لو بقيت هنا إلى المساء لانفجرت.

- 12 -

استقبل مراد من طرف آل بن عبد الجليل استقبالاً كله حفاوة وتبجيل. وأجلس مع ثلة من أصدقاء العائلة، حيث أقيمت في اليوم السابق الأمسية الأندلسية. كانت موسيقى «الجاز» تنقلها إلى باحة الحديقة مكبّرات صوت. وبالرغم من صبغتها الصاخبة فلم تكن تنطلق إلا بالقدر الذي يضفي على الجو أنساً وبهجة.

اندهش مراد من ثراء أسرة بن عبد الجليل البادي في «الفيلا» الفخمة، في الحديقة الغناء، في الباحة، في لوحتها الأثرية الرومانية، في الفيسفاء المحيطة بها، في الأواني الفضية والخزفية الممتازة التي قدمت فيها المشروبات والحلواء. في الملابس الرفيعة التي تلبسها نساء هذه العائلة اللائي كن ينتقلن بين المدعوين والمدعوات، بلا حجاب ولا تحرّز.

عادت إلى ذاكرة مراد ما قالته زبيدة بالصالون، عندما أخبرت بالذهاب إلى هذا العرس... وتأكد لديه أنها كانت على حق. كيف تستطيع أن تقف باعتزاز أمام هؤلاء النساء؟ لكن الشيء الذي أثار إعجابه أكثر من غيره هو هذه الحرية التي تتمتع بها

النساء، بنات وأمهات. . . صافحته فتحية بحرارة وقالت له:

ـ قيل لي إنك طبيب جراح، وأنا أنوي إجراء عملية جراحية. . .

فأعطته فرصته للحديث والتعبير عن قيمته بلباقة ـ فسألها باهتمام:

ـ عملية جراحية؟

ـ عندي المرارة. . .

فعلّق أخوها كريمو ضاحكاً:

ـ كلنا عندنا مرارات!

فقالت بدون تلعثم:

ـ لكن مرارتي أنا ذات أهمية، لأنها مكتظة بالحجارة!

فقال لها مراد مطمئناً:

ـ عملية استئصال المرارة ليست صعبة. في الجزائر قلّ من لا يشكو من هذا الداء. على كل في اليوم الذين تقرّرين فيه إجراء العملية اتصلي بي.

وكان يظن أنه بعرضه ذاك وضع نفسه مرة واحدة، في مستوى أعلى! ابتسم عبد الكبير من عرض مراد، وقال لابنته ساخراً:

ـ ها أنت ذي اطمأننت نهائياً على العملية. . . . سي مراد يتولى القضية أحسن لك من نصائح الأستاذ منوّر!

على ذكر منور الذي هو أكبر أساتذة الجراحة، فهم مراد أنه

تسرّع في إبداء أهميته. وقال:

ـ الأستاذ منوّر أستاذ الجميع!

فسأله عبد الكبير ضاحكاً.

ـ هل تعرفه؟

ـ ومن ذا لا يعرفه؟ إنه أستاذ كل الجرّاحين!

ـ لقد تأخر، سيتعشى معنا الليلة..

لم يدرِ مراد كيف يواصل الحديث. ولاحظ كريمو تحرّجه واستصغاره لنفسه فأراد أن يخفف عليه، ويكسب ودّه، من غير أن يدري لماذا؟ فقال:

ـ لا تعتقد أن كل أخواتي مريضات!

فأجاب مراد مبتسماً:

ـ بالعكس، بالعكس.

وكان يودّ في أعماقه لو تعرّف على وهيبة، البنت التي رفعتها أمه عن كل مثل فسأله كريمو:

ـ هل تعرف وهيبة؟

خفق قلب مراد، وأجاب بتلعثم، لأنه كان يفكر فيها في تلك اللحظة:

ـ لا... لم يكن لي شرف.....

فقاطعه كريمو قائلاً:

ـ بلا شرف ولا يحزنون... هي تلك الجالسة هناك.

وأشار إلى فتاة كانت تتحدث مع رجل مسنّ يلبس نظارات

ويدخن سيكاراً ضخماً. فالتفت مراد إلى المكان الذي أشار إليه كريمو فرأى فتاة صهباء، كان لاحظها منذ وصوله، ولكنه لم يدر أنها وهيبة. كانت في غاية الجمال، وجهاً وجسماً وقامة. وقال في نفسه: «لم تبالغ أمي... إنها حقاً جميلة!».

ناداها كريمو فأتت وقدم لها مراداً قائلاً:

ـ هذا سي مراد بن خليل، إنه جراح.

ـ أهلاً بك ومرحباً.

مدّت إليه يدها مصافحة وأضافت:

ـ تكلّمت أنا وأمك عنك. لك أم رائعة!

شعر مراد بالخجل من وهيبة، إنها لجمالها وطلاقتها وبساطتها في الحديث جعلته لا يدري ما يقول ولا ما يفعل. وقال لها:

ـ أنا متشرّف جداً....

فقاطعه كريمو:

ـ قلت لك لا «تتشرّف»... إنها جد قاسية، فإذا اشتمّت منك ضعفاً ازدادت قسوة عليك!

فقالت هي:

ـ أرأيت يا سي مراد أخاً يغار من أخته مثل كريمو؟ يريد أن يجعلني في أعين الناس قاسية، وأنا لا أعرف معنى ما يسمى بالقساوة!

وتواصل الحديث في جوّ كله مرح ومتعة.

اقترب كريمو من مراد وأسرّ له أن هناك مشروبات كحولية

بالقرب من الحوض الصغير إذا أراد ذلك، فاعتذر مراد شاكراً.

وبعد فترة من الوقت جدّ ممتعة وجدّ مفيدة، مع وهيبة، أعرب عن نيّته في مغادرة مستضيفيه، لأن أمه وأخته ينبغي أن تعودا إلى البيت. فلم يطلق سراحه ولا سراح أمه وأخته.

دعوا إلى تناول طعام العشاء الذي أذهله لما قُدّم فيه من ألوان وأصناف مما لم يعرف مثله في حياته. وأحسّ نفسه يصغر أمام هؤلاء الناس، وتحقّق لأول مرة أن الجزائر التي يحيا فيها في هذه الليلة لا يعرفها أكثر الناس.

بعد ذلك وضعت موسيقى راقصة، أخذ بعض الشبان من أصدقاء كريمو يرقصون وجُرَّ مراد إلى الرقص مع وهيبة...

باختصار، لم يعد مراد إلى البيت بأمه وأخته وحدهما، عاد بكلمات كلها لطف ورقة من وهيبة، وكلها تقرّب وتودّد من عبد الكبير، وكلها امتنان من كريمو الذي صار صديقه! عاد بحلم ومشاريع مستقبلية هي أعزّ أحلام الشيخ علاوة!

أما العجوز كلثوم فليست الحظوة التي لقيتها من أفراد أسرة بن عبد الخليل وحدها التي امتنّت لها، امتنّت كذلك لرجوعها إلى دارها بزوج لزبيدة... لقد أعجبت عجوز من المدعوّات بزبيدة، ووجدت فيها ضالّتها المنشودة لابنها الذي يبلغ الثامنة والأربعين. هو مدير ثانوية فقد زوجته منذ ثلاث سنوات. تركت له ولدين أحدهما في الرابعة عشرة والثاني في العاشرة. في

هذه السنّ لا يكلف وجودهما زبيدة لا تعباً ولا مشاكـل. دعيت أم هذا الأرمل لعـرس بنت بن عبد الجليـل، لأن أبناء بن عبـد الجليل قرأوا في الثانوية التي يديرها.

والفضل في هذا الترابط بين أم المدير الأرمل والعجوز كلثـوم يعـود إلى عمـة العـروس. فهي التي مهّـدت للتعـارف وسهّلت الوصول إلى الخطبة والاتفاق المبدئي بين المرأتين. كما مهّدت من جهة أخرى لإمكانية زواج مراد بوهيبة.

أما زبيدة فلم تسرّ بهـذا الزواج المقبـل كما كـانت تتمنى، لكنها أحسّت على كل حال بأفق جديد يفتح أمامها. هو من غـير شك أفضل لها ألف مرة من جو الحياة الأبويـة الخانقـة الذي تحيـا فيه والذي كاد أن يصير حياة أبدية لها!

في الـطريق أشـارت العجـوز كلثـوم إلى اغتبـاطهـا بـالمجيء للحفـل، وأثنت على آل العـروس، لكنهـا لم تشر إلى مـا جـرى بشأن زواج مراد بوهيبة، ولا إلى خطبة زبيدة المقبلة. . .

فضلت أن تتحدث عن ذلك بالصالون في إطار عام. لتظهـر لـزوجها الشيـخ علاوة مـدى النجاح الـذي أحرزتـه بمفـردهـا. وبذلك تخفف من زعمه الدائم بأنه الأساس في كل شيء ولكـل شيء!

تخلّف مـراد ليدخـل السيـارة إلى المستـودع ودخلت العجـوز كلثوم وزبيدة إلى البيت، فإذا الظلام المـظلم مخيّم على الصـالون وعلى الممرات! هـذه أول مرة كـما فكرت العجـوز كلثوم، يغلق

فيها الصالون في هذا الوقت المبكر! وقالت لزبيدة:

ـ ماذا وقع؟ أليسوا هنا؟ والشيخ... كيف لم ينتظرنا؟

ـ لا شك أن رضا أو دليلة تخاصم أحدهما مع أبي أو عمر!

ـ ممكن، ممكن جداً. عندما لا أكون بالبيت يطغى شيبة الخصومة! سوف أريه عاقبة طغيانه! افتحي الصالون.

ـ أنا أذهب أولاً إلى غرفتي لتغيير ملابسي.

ـ أنا أفتحه إذن، وأذهب لإيقاظه من نومه (الشيخ علاوة) وإيقاظهم كلهم... يريد أن ننام الليلة!

كانت تعتقد فعلاً أن هذه الليلة من الليالي المشهودة التي ينبغي أن يطرد فيها النوم طرداً. فلأول مرة منذ أكثر من اثنتي عشرة سنة تبدي امرأة خاطبة لزبيدة جدية ولياقة خالية من التهريج والثرثرة. لم تكذب، لم تفخر، لم تتظاهر بأي مظهر يجعل من تتحدث إليها تتضايق منها. سألت عن عمر البنت، عن تعليمها، عن عدد إخوتها وأخواتها، عن أعمالهم، عن زبيدة لماذا لم تتزوج إلى الآن. تحدثت عن ابنها، عن انتكابه بفقد زوجته، عن عمله، عن حالته المادية، عن ما ينتظر من المرأة التي يتزوج بها أن تقوم به. وكل ما قالته لا يخرج عن المتعارف بين الناس. وذكرت أنها، إذا تم كل شيء كما ترتئي، لن تقيم حفلاً كبيراً، وإنما تدعو من الأحباب الأشد التصاقاً بالعائلتين، مع الأقارب. وكل هذا أيضاً معقول. قالت كذلك إنها ترجو أن يتم كل شيء دفعة واحدة، ربحاً للوقت وللنفقات التي لا مبرر لها. وأنها ستأتي خاطبة هي وابنها وبعض أقاربهم

بعد الانتخابات مباشرة. كما ترجو أن يتم الزفاف في منتصف شهر جويليه. وكل ذلك سرّ العجوز كلثوم ولقي منها رضى وموافقة.

وفيما يتعلق بوهيبة ومراد فإن آل بن عبد الجليل، كما ذكرت أم البنت، إذا أعطوا بنتهم لمن ترتضيه زوجاً لها، فإن الزفاف لن يكون إلا في السنة المقبلة، أو التي تليها. لأن فتحية تروّج إشاعة بخصوص زواجها بضابط في الطيران. فإذا تحقّق ذلك فإن زواجها يتقدّم زواج وهيبة حتماً.

هذه هي الأشياء الهامة التي عادت بها من هذا العرس. فكيف إذن تسمح لأي كان أن يجعل هذه الليلة الميمونة مظلمة؟

أشعلت أضواء الممرات والدروج، ونادت وهي صاعدة إلى الدور الأول:

ـ منى! يا منى!

لم يجبها أحد. خرجت زبيدة مسرعة، قبل إتمام تغيير ملابسها تقول لها:

ـ لا تنادي عليها. اسكتي.
ـ لماذا أسكت؟ ماذا وقع؟
ـ إنها تخاصمت مع نعيمة.
ـ لماذا تتخاصم مع نعيمة، هل جاءتها ضرّة؟
ـ لا تقولي هذا الكلام، خفّضي صوتك.
ـ لماذا أخفض صوتي؟ ماذا وقع يا طفلة؟ قولي، أسرعي!

دخلت العجوز كلثوم إلى غرفة زبيدة فوجدت نعيمة في حالة سيئة للغاية. صار وجهها أخضر داكناً يشبه وجوه المحتضرين! سألتها وهي تجلس بالقرب منها:

- قولي يا بنيتي، ماذا جرى لك؟ قولي كل شيء.

لم تجبها نعيمة. فكرّرت سؤالها بإلحاح:

- تكلمي، قولي ماذا جرى لك؟ ماذا وقع بينكما؟ أعرفها اللعينة، تريد إخراجنا من البيت كلنا لتبقى فيه هي وأمها. سوف أريها الكلبة... لولا أولادها لما قبلت أن تبقى هنا ليلة واحدة. لم تستح، لم تقل إن حماتي غائبة فلا أثير نزاعاً في غيابها! اللعينة... على ماذا خاصمتك؟ على إعداد العشاء أم على ماذا؟

لم تجب نعيمة واستمرت في صمتها. فقالت لها زبيدة:

- تكلمي، لماذا هذا الصمت؟ هل أنت في دار أبيها؟ إنك في دار عمك، في دارك. هي الأجنبية لا أنت. تكلمي. لا شك أنها افترت عليك بعض الفريات التي تحسنها... اتّهمتك بالجري وراء زوجها!

غضبت الأم وهي تسمع ابنتها تتكلم كلاماً لا يخطر على بال عاقل:

- اسكتي يا طفلة! استحي! من يجرؤ على ذكر هذا الكلام وأنا حيّة؟

- إذن مالها؟ قولي، مالك يا نعيمة؟

لاذت نعيمة بالصمت، لم تنظر لأحد ولا فاهت بكلمة، كأن ما هما فيه لا يعنيها كلية.

فقالت العجوز كلثوم:

ـ قولي، ماذا وقع بينكما؟ وإلّا لن أحدثك منذ اليوم!

فأجابت نعمية بلهجة محايدة:

ـ غداً أعود إلى أهلي، لن تحدثيني لا أنت ولا غيرك...

ـ تعودين إلى أهلك؟ ما معنى هذا الكلام؟

وقالت لها زبيدة:

ـ لن تعودي، تبقين معنا، وليخرج قلبها (منى).

لاذت نعيمة بالصمت من جديد. رأت العجوز كلثوم أن لا فائدة في سؤالها ما دامت لا تجيب. قامت وذهبت إلى غرفة الشيخ علاوة الذي ينتظرها. والتقت بمراد في طريقها، فسألها:

ـ ماذا جرى الليلة؟ لا أحد بالصالون...

ـ لست أدري. أظن أن نعيمة تخاصمت هي ومنى.

ـ نعيمة أيضاً؟ ولماذا تخاصمها؟

ـ حدِّثْ أنت امرأة ذات شناءة، وقل لها لماذا تخاصمين فتاة مسكينة!

دخل مراد إلى غرفته ممتعضاً، يقول في نفسه: إن دار أهله لم تعد تلائمه. ودخلت العجوز إلى غرفة الشيخ علاوة فوجدته جالساً، فسألته:

ـ لماذا أنت هنا؟

ـ وأين تريدين أن أكون؟

ـ لماذا لم تقعد في الصالون كعادتك؟

ـ مع من أقعد في الصالون، وحدي؟

ـ لماذا تقعد وحدك؟ هل خلا البيت؟ ماذا وقع؟ أين أبناؤك؟

ـ اذهبي غيّري ملابسك أولاً، ولنا الوقت للحديث.

ـ إذن، انزل إلى الصالون أنا آتية. . الكل ينـزلون. لن أدع أحداً ينام!

. . .

كانت العجوز كلثوم تعني بقولها: لن أدع أحداً ينام، أن ما حملته من أنباء يكفي لإطلاع النهار. ولم تكن تعلم أن ما وقع وراءها من الخطورة بحيث يجعلها هي لا تنام ليالي عديدة. . .

لكن منى ما إن سمعت برجوع حماتها حتى أثارت ضجة. حاول زوجها إسكاتها فأقسمت بكل الأيمان أنها لن تدع الموضوع ينام، بل تثيره من جديد أمام حماتها وأسلافها وكل من لم يعلم. لن تسكت، لن تعفو:

ـ لا أدع أفعى تتربّص بحركاتي لتنهشني من الوراء!

توسّل لها زوجها بكل ما استطاع أن تسكت، وقال لها هامساً:

ـ ليس الآن، ليس الآن. غداً ينتهي كل شيء. أبوها يأتي إليها والسلام. لا تقيمي علينا القيامة. الجيران يسمعون. هذا ليل. . . الصوت مسموع في الليل! ادخلي.

ـ لن أدخل. اقتلني إذا شئت وتزوّج بها، لن أدخل. أخبر

أملك الآن، هي أستطيع أن أقول لها كل شيء. . .

سمعت العجوز كلثوم ضجة في الدور الثاني، وخرج رضا ودليلة وهالة. . وصاحت العجوز تخاطب كنّتها بعنف:

ـ جننت الليلة؟ غبت عنك عشية قلبت الدنيا من ورائي. . أربعة أولاد وما زلت في شؤمك؟ عيب عليك، عيب. لن يقبلك أحد!

حقّقت منى الخطوة الأولى. وأجابت حماتها وهي هابطة:

ـ لن يقبلني أحد، لن يقبلني أحد. . إذن كلكم متفّقون!

قوليها جهاراً، قولي، إننا لا نريدك، نريد ابنة أخينا لابننا!

فردّت عليها العجوز كلثوم بغضب وحنق:

ـ اخرسي لا أوصلك الله إلى ما تأملين!

خرجت زبيدة بدورها تساعد أمها على زوجة أخيها:

ـ تريدين أن نفرغ لك البيت، لتعملي فيه ما تشائين! لن يكون ذلك. نبقى جميعاً هنا. اخرجي أنت.

اشتد اللجاج والشتائم فخرج الشيخ علاوة، وأمسك بيد زوجته يجرها إلى غرفته وهو يقول:

ـ لا تعرفين ما وقع. اغلقي فمك، ادخلي الغرفة. وأنت أيتها اللئيمة (زبيدة) اغربي من أمامي، وعودي إلى حجرتك.

وحاول في الوقت نفسه تهدئة منى فقال لها مؤاخذاً:

ـ لِمَ أثرت علينا هذه الضجّة يا بنيتي، والجيران يسمعون؟

أقسم لـك أنها لن تبقى هنا. إنني كلمت أباهـا وهـو آتٍ غـداً ليـأخذهـا. عودي إلى بيتـك وأولادك، انـظري لشيبي. إنني لا أقبل لك مضرّة من أحد مهما كان. أنت أمّ الأحفاد.

تغلّب الشيخ علاوة على حسم النزاع الـذي نشب بين الحـماة والكنّة. وأعاد الجوّ إلى هدوئه الجنائزي.

وقفت العجوز كلثوم ببـاب الغرفـة تنتظره أن ينتهي مـع كنّته وأذهلها ما سمعته يقول: غداً يأتي أخوه لأخذ ابنته! أقسم لكنّته بـذلك... إذن القضيـة خطيرة، إذا كـان الشيخ عـلاوة نفسـه يرضى بطرد ابنة أخيه التي يدافع عنها أكثر من كل أحد!

قال لها وهو يدخل الغرفة:

ـ تحبين اللجاج وأنت لا تعرفين الظالم من المظلوم.

دخلت إلى الغرفة، وهي كلها تساؤل وحيرة، وقالت:

ـ وماذا وقع؟ قل لي. هل كنت أنت هنا؟

جلس متهـالكاً في مقعـده قبـالـة خـزانـة الكتب وقـال يجيب زوجته بصوت أراده أن يكون هادئاً وعميقاً، بحثاً عن التأثير:

ـ وقعت كارثة عظمى! في الحقيقة هذه الكارثة لم تقع اليـوم، وقعت منذ مدة واليوم كملت مرحلتهـا الأخيرة بـالنسبة لنـا... اجلسي، اجلسي!

ـ أفصح يا رجل! لا تتكلم بالألغاز. قل لي ماذا وقع؟

ـ ما وقع اليوم هو أن منى أمسكت بتلك العقرب السوداء التي آويناها، أمسكتها متلبّسة بالإثم.

ـ أيّ إثم؟ ومع من؟

ـ مع من، تسألين مع من؟ كأن الموضوع يحتاج إلى سؤال؟

ـ مع عمر؟ هذا كذب! تكذب عليها اللئيمة. تريد أن يبقى لها البيت وحدها. نعيمة مسكينة لا تقدم على هذه الجريمة!

ـ مسكينة... لو لم أكن أعرف عنها ما أعرف قبل اليوم لقلت مثلك: مسكينة! انها مجرمة وليست ضحية. إنها فاجرة... ما قالته عنها مني أقل من الحقيقة بكثير!

ـ تكلم يا رجل بوضوح. لم أفهم ما تقول. ماذا تعرف عنها قبل اليوم؟ ولماذا لم تقل لنا؟ لماذا قبلتها في بيتك إذن؟ اخز الشيطان، إنها بنت أخيك، ويتيمة. لست أنت الذي تتهمها بتهم لا يقترفها مثلها!

ـ هي الآثمة ومنى على حق.

ـ كيف عرفت ذلك؟

ـ انها حبلى. نعم، حبلى تلك التي تقولين عنها مسكينة!

ـ حبلى... ماذا تقول؟ إنك خرفت! نعيمة حبلى! ممن؟ من بشر أو من ملك؟

ـ قلت لك إنها حبلى، افتعلت هذه المؤامرة اليوم لتغطي بذلك جريمتها. تشبّثت بعمر، ظنّته يسرق لها أو يقع في فخّها... ولما رأت مني مقبلة حاولت أن تظهر بمظهر المعتدى عليها... زعمت اللعينة أن عمر اعتدى عليها، فهي تدفعه عنها!

ـ لكن عمر كان في اجتماع؟ متى جاء إلى البيت؟

ـ لم أسأله. على كل حال هذا موضوع آخر.

ـ أنا أستبعد أن يكون عمر اعتدى عليها. وأستبعد كذلك أن تكون نعيمة فعلت ما تقول! أنها منى دبرت هذه المؤامرة الخسيسة لتنسف بيتنا وسمعتنا. هي اللئيمة!

ـ قلت لك إنها ضحية! أصغي إليّ! أنا على علم بأشياء كثيرة. . .

أخرج لها ملفّ الرسائل، وقرأ عليها رسائل أولاده. ثم الرسالة التي جاءت إلى نعيمة، فانقلبت بها الأرض، وأحسّت كأن كماشات من حديد أخذت تقتلع أمعاءها وكلّ ما في بطنها. وشعرت بقواها تفارقها. لم تكن تنتظر من هذه الليلة أن تخبىء لها هذه الكارثة. حاولت أن تعيد في نفسها ما سمعت فلم تستطع. ديدي. . . مراد. . . ليس بأمر هام. ملايين عمر المخفية، لا تحزن. لكن الكارثة هي نعيمة وما يتصل بنعيمة!

أفهمها الشيخ علاوة بدقة برنامج نعيمة كما صوّره له خيالُه: بما أنها في مأزق خطير لا مخرج لها منه إلا بالموت، فكرت أن تستهوي عمر. هي جميلة في مقتبل العمر بالمقارنة مع منى اليوم. . . فإذا وقع في شركها فهو الذي يجد لها الحل. وإذا لم يقع أثارت حوله الشبهة. وبذلك تصير في أعيننا وفي عيني أبيها ضحية. . . ضحيّة ابن عم نزق!. . . ضحية عمر!

كانت كلمات الشيخ علاوة وهو يوضح «مخطط» نعيمة، بمثابة

شحذ لطاقة العجوز كلثوم. ولما انتهى من كلامه، أحست بموجة عنيفة من الغضب تغمرها، وتظلم الأشياء في عينيها. خرجت مشمرة عن لسانها، لتقول لنعيمة ما لم يعرفه جيلها من شتائم وإقذاعات.

لا دليلة، ولا زبيدة، ولا رضا، ولا حتى مراد، استطاعوا إسكاتها وإدخالها إلى غرفتها. انطلقت تزمجر، تدمدم، تقذف بحمم لعناتها المستقبحة على نعيمة. لم تترك لها جانباً لم تثلبه. رمتها بالفجور، بالنفاق، بالنذالة، بالتأخّر، بالجشع، بالوسخ (عاملة الحمّام تذمرت من وسخها وقالت لم تر مثلها في حياتها). وسمتها بالجهل، بالغباء، بالاعوجاج. إذا نامت نومها غطيط. إذا مشت كالسلحفاة. إذا أكلت أقدام مساجين في وحل. إذا شربت فقرقرة قوارير. إذا ضحكت قهقهت. لباسها لباس غجريات...

لكن نعيمة أمام كل ذلك لم تحرك ساكناً، ولا تحركت من مكانها. لم تنبس بكلمة واحدة. كأنها لا تسمعها ولا تحيا في عالمها بالمرة!

حاولت، بعد أن لم تر ردّ الفعل من نعيمة، أن تطردها من الغرفة إلى حيث لا تراها عيناها. منعتها زبيدة ودليلة ورضا. أما مراد فدخل غرفته وأغلق الباب.

أدرك أن المؤامرة التي حيكت ضد نعيمة هي من التعقيد بدرجة لم يكن يتوقعها. تيقن أن هنالك أمراً آخر أكثر وأخطر

من زعم عمـر ومنى. لكنه لم يتـوصـل إلى جـواب مقنـع. لعـل الشيء الذي كان ملازماً لـظنه أكـثر من غيره هـو ما يـلاحظ من تحوّل نعيمة السياسي... ظن أن تطوعهـا للثورة الـزراعية، ثم مشـاركتها في بعض اجتـماعات الميثـاق هي التي سبّبت لها مـع الشيخ علاوة هذه القساوة وهذا التصلب.

عـاد كل واحـد إلى غرفته. وحـاولت زبيـدة من جهتهـا أن تخفف من وطأة ما قالته أمها لنعمية. فذكرت لهـا أن أمها تقـول أشيـاء لا تفكر فيهـا أصـلاً. وأنها دائـماً في فـورة غضبهـا تفـرغ كبتها. وألحّت عليها أن تنام دون أن تعطي أدنى أهميـة لما وقـع. لكن نعيمة لم تكن تفكر فيما نالها تلك الليلة من سباب وشتائم، بل أخذت تتساءل في نفسها، من الذي دبّر لهـا هذه المكيـدة مع عمها؟ إنه كان قبل اليوم هو المحامي لها، بيد أنه صـار الآن هو ألدّ من يعاديها ويحفظ القلوب عليها!

. . . . . .

فكـر رضا أن تلك آخـر ليلة لنعيمة معهم. وأنـه لا يليق أن تقضيها في هذا الجوّ السجني. قام فلبس ثيـابه وذهب إلى غـرفة دليلة، فـوجدهـا تستعدّ للدخـول في الفراش، وهـالة تـطالع في إحدى القصص الجزائرية الحديثة. فأخبر دليلة بفكرته:

ـ لا ينبغي أن ندعها تقضي آخر ليلة وحدها.

ـ وماذا نفعل؟

ـ لست أدري، نسهر معها في غرفة زبيدة مثلاً؟

ـ أنا عندي فكرة أحسن: نأخذها ونخرج نتجول، أو نذهب إلى أحد الأمكنة في المدينة.

ـ لا، نسهر معها هنا بالبيت.

ـ غرفة زبيدة بين غرفتيْ أمي ومراد، ولا نستطيع أن نتكلم حتى الكلام. أنا أفضل أن ننزل إلى المطبخ. لا سيما ونحن لم نتعشّ.

ـ فكرة. نذهب إلى المطبخ إذن، ونعدّ العشاء معاً لنسرّي عنها، ونتعشى ونسهر كما نريد. في المطبخ لا يسمعنا أحد.

ـ وضعت هالة الرواية على منضدة السرير واستوت جالسة وقالت:

ـ أنا أيضاً أنزل معكما.

فأرادت أن تمنعها دليلة، فقال لها رضا:

ـ بالعكس، الأفضل أن تنزل معنا. لا شيء ككثرة العدد لسهرة من هذا النوع...

نزل الجميع إلى غرفة زبيدة. دق رضا دقات خفيفة على الباب، ففتحت زبيدة وكانت نائمة. اندهشت من وجودهم بالباب فسألت:

ـ ماذا وقع؟

دفعها رضا دفعاً خفيفاً إلى الداخل، مشيراً لها أن لا تتكلم. وأخبرها بالمشروع. فبدا على وجهها التضايق. كانت متعبة من

أبو عبدو البغل
https://facebook.com/groups/abuab/

العرس. لكنها لم تجد بداً من الموافقة. رأت أن فكرة رضا معقولة لإخراج نعيمة من هذا النفق المظلم الذي أغلقت على نفسها فيه.

كانت نعيمة في فراشها على جنبها الأيمن. ظهرها إلى جهة زبيدة ووجهها إلى الحائط.

هزّتها دليلة وهمست لها:

ـ نعيمة. قومي ننزل إلى المطبخ.

ـ لا أنزل، أبقى هنا أحسن.

ـ قلت لك قومي!

جذبتها من ذراعها بقوة حتى كادت تخرجها من السرير. كانت نائمة بالملابس التي تسافر بها. حقيبتها مع رزمة قرب السرير، كأنها في إحدى محطات السكة الحديدية تنتظر أول قطار!

لم تستطع أن تعارض ما اتفق عليه الجميع. أشار لهن رضا أن لا يحدثن أيّ ضجيج. فتحت دليلة المطبخ وقالت:

ـ الآن ينبغي أن نعدّ العشاء، نتعاون كلنا حتى أنت يا رضا.

تعجبت زبيدة وسألت:

ـ ألم تتعشّوا؟

فأجابت دليلة:

ـ لا. لم نتعشّ. أبوكِ قرّر أن لا نتعشى.

لما رأت زبيدة دليلة وقد أخذت تشوّش ترتيب الأواني والمواد، دعتها أن تبتعد وتدع لها الأمر. فرفضت دليلة:

ـ لا، لا بد أن نتعاون كلنا، بما في ذلك رضا ونعمية!

فأعرب رضا عن موافقته، وقال لنعيمة:

ـ تقدمي أنت. كلنا نتعاون...

فتمتمت بصوت لا يكاد يبين:

ـ معذرة، لا أستطيع أن أعمل أي شيء.

فألحّ رضا عليها:

ـ ينبغي أن تشاركينا، خير لك من هذا الجمود. ليس هناك أفضل من الحركة لطرد الأفكار السوداء!

ـ لا أستطيع، أقسم لك. أفكاري لا تستجيب للحركة التي أريد القيام بها.

ـ بل الحركة لا تستجيب لأفكارك. اغسلي هذه الصحفة وسترين... حالاً يعود الانسجام بين الجهاز العصبي والجهاز العضلي! جرّبي...

ـ لكن هذه الصحفة نظيفة.

ـ ها هي ذي أعصابك أخذت تتهيأ للفعل. خذي الصحفة الأخرى.

قالت زبيدة تعرّض بمنى:

ـ اللعينة... لم تغسل حتى الأواني! خشيت أن أجدها نظيفة!

انهمك الكل في إعداد هذا العشاء المرتجل. وشعرت نعيمة فعلاً بذاك الثقل الذي كان يجثم على قلبها يرتفع قليلاً قليلاً.

قالت لها دليلة بعد أن أتمّت ما أنيط بها من عمل:

ـ لا تؤاخذي أمي، إنها ما زالت على الفطرة. إذا كان الأمر يتعلّق بأولادها لا تبحث عن الظالم، أولادها قبل كل شيء.

ـ لا أؤاخذ أحداً.

لكن دليلة لم يعجبها انكسار نعيمة وإنذلالها بهذا الحد، فقالت لها:

ـ لا تستسلمي هكذا! ردّي الضربة باثنتين. اذا عدت الى القرية فليس ذلك نهاية العالم.

ـ أعرف أن ذلك ليس نهاية العالم ولا بدايته. إنما هي مأساتي أنا!

فردّ عليها رضا:

ـ المأساة ليست رجوعك الى القرية. المأساة لو تبقين هنا بهذه الثكنة كما قالت دليلة! أتريدين أن تعرفي عمك هذا الذي منه تتألّمين، والذي كنت به من قبل تعتزّين؟ إنه مجموعة من قطع الغيار، لا تشابه الواحدة الأخرى، ولا هي من مصدر واحد! إنه يحيا في عدد من العصور، وفي عدد من البلدان في اللحظة نفسها. يريد أن يكون في عداد الأغنياء، ومع المثقفين، ومع الزعماء ومع الحكام. يناصر الحق، ويناصر الجلادين. أب طيب وفظ. . . يريد أن يكون كل ذلك، وهو ليس شيئاً من ذلك.

يعتقد أنه أذكى الناس وهو أبلههم. أضرب لك مثلاً واحداً على بلاهته: . . . كانت هذه الدار عندما اشتراها تسمى «الربيع» فصيّرها . . .

فقالت دليلة قبل أن يتمّ جملته:

ـ ثكنة. وصيّر أبناءه فيها جيشه وهو جنرال!

فواصل رضا يقول:

ـ . . . كانت «فيلا» جدّ جميلة، تصوّر الربيع في أبهى سنواته ـ وكانت حياة المعمرين كلها ربيعاً في الجزائر، فقرّر وحده بناء طبقة علوية. ثم بعد فترة قرر بناء طبقة ثانية. وهو الآن يفكر في بناء طبقة ثالثة، وبعدها رابعة وبعد الرابعة خامسة وهكذا الى ما لا نهاية . . . وهو لا يبني لأننا في حاجة الى طبقات أخرى. ولكن ليقول الناس إن الشيخ علاوة بنى! بيد أن دعامات وأسس الفيلا وضعت في الأصل لطبقة أرضية ليس إلا. هي هذه الطبقة التي نحن فيها! . . . أكثر من هذا . . . عندما تم تجهيز الدور الثاني للسكن، حجز لنفسه الغرفة الأولى فيه. وقال: أنا لا أسكن الأدوار الدنيا! لم يقتنع، عندما قلنا له: أنت شيخ، والصعود والهبوط مرات في اليوم يرهقانك. فصمم على السكن في الدور الثاني. وبعد أسبوع نزل من جديد الى غرفته السابقة في الدور الأول! هو لا يبحث عن الوثارة ولا الراحة، يبحث عن المظهر. يريد أن يُرى من أعلى مئذنة!

قالت دليلة:

ـ لماذا لم يعمل مؤذناً؟

ـ ليس الأذان الذي يهمه، يهمه الناس. . . أن يروه كهلال قبة المئذنة!

فلاحظت دليلة أن تشبيهه غير موفق. وقالت:

ـ هلال المئذنة جميل!

ـ لكن لا معنى له!

ـ وهلال السماء هل له معنى؟

ـ ذاك على الأقل يخبرنا أن الشمس طلعت على جزء منه، وأنه ليس وحده. . .

تكلمت زبيدة مبدية رأيها:

أنا لا أعرف مثلكما. لكني أظن أن الهلال في المئذنة شعار المسلمين؟

فقالت دليلة متضاحكة:

ـ لماذا؟ هل المسلمون أهلة؟

فقال رضا:

ـ نحن لا نتكلم عن المسلمين ولا على غيرهم، نتكلم. . .

فقالت دليلة:

ـ عن الجنرال!

قالت هالة بتأكد:

ـ ان أبي ليس جنرالاً ولا حتى جندياً. هو يعرف أنه لا يقدر علينا ولذلك يفتعل القوة والغضب والتعالي... أنا كم من مرة صرخ عليّ. لكن عندما أنظر إليه بحدّة ولا أخفض بصري، يغض نظره، ولا يقدر حتى على مقاومة نظري!

ضحكت نعيمة وضحك الآخرون. وقال رضا مبدياً رأيه من جديد في أبيه:

ـ عيبه ليس الضعف... عيبه الحقيقي أنه ينظر الى الحياة من خلال ما يسمعه من أصحابه...

فقالت دليلة:

ـ مثل بنائه للدار... أخشى أن يبني ذات يوم دوراً على النمط الياباني أو الصيني!

فرد رضا:

ـ بل يبني دوراً على النمط الأندلسي، ليعود الى الأصالة!

ـ صحيح، هو يحب الماضي. لكن لا أفهم لماذا يتشبث بعض الناس بالماضي؟

فقال رضا:

ـ لأنهم يخافون المستقبل. فالرجوع الى الماضي نوع من الطفولة... لأن المستقبل مغامرة وابداع! الرجل العاجز لا يمكنه أن يلتفت الى المستقبل. ثم أن أبي لا يفكر بعقله، وإنما بمحفوظاته... من الصعب تحليل شخصيته بكلمات!

فقالت دليلة كالمتبرئة:

ـ الدرس لا. لسنا في حاجة اليه، ولا سيما الليلة! بالنسبة الى شخصية أبي ليست بكل هذا التعقيد، انه رجل يجري باستمرار للحاق بالقطار، لكنه في كل مرة يصل الى المحطة يجد القطار قد أقلع!

فقال لها رضا مصفقاً:

ـ جيّد ما تقولين! من حقك أن تكوني في كلية الآداب لا في الحقوق! أليس كذلك يا نعيمة؟

ـ لا أدري.

افتعلت دليلة الغضب على نعيمة وقالت لها:

ـ لا تقولي لا أدري!

فقالت هالة تدافع عنها:

ـ من قال لا أدري علمه الله مما لا يدري!

قال لها رضا:

ـ هذا كلام الشيوخ، لا الفتيات.

ـ هذا كلام شيوخ الثانوية، أين أقرأ!

ـ صحيح... لم ينقص شيء لبناء المجتمع الاشتراكي!

فتساءلت هالة مفتعلة الاستبلاه:

ـ لماذا، هل المجتمع الاشتراكي أناسه كذلك؟

ـ كذلك ماذا؟

فتكلمت دليلة تلقن هالة كيف تجيب:

ـ قولي، هل المجتمع الاشتراكي أناس لا أدريون! إنك تتكلمين مع رضا...

ـ ماذا تقصدين؟

ـ أقصد أن رضا الذي هو أنت لو لم يكن في هذا البيت جنرال لكنت... كيف يقول المصريون؟ لكنت «بكباشي» هذه الدار!

ضحكت نعيمة بالرغم منها. وكانت دليلة تقصد إلى إضحاكها عمداً. فالتفت رضا إلى نعيمة شاكياً:

ـ أرأيت يا نعيمة؟... دليلة جعلتني بكباشياً؟

فسألت هالة:

ـ ما هو البكباشي؟

فأجابت دليلة:

ـ البكباشي عند الأروبيين يراد به التحقير، وعند المصريين يراد به التعظيم، وعند الجزائريين راوي حكايات «رأس الغول»!

انفجر الجميع ضاحكين من تفسير دليلة. ما عدا هالة التي استفهمت:

ـ صحيح ما تقولين؟

فقالت زبيدة:

ـ الصحيح هو أن العشاء جاهز.

احتجّت دليلة على زبيدة:

ـ من حقك أن تعطينا الكشف أولاً!

ـ ماذا أعطيك؟

ـ الكشف... «المونيه»، بالعربية!

ـ «المونيه» هو مقبلات مشكلة، دجاجة محمرة، فواكه!

قالت هالة وقد سمعت وقع خطى نازلة في الدرج:

ـ اسمعوا! أظنها أمّي...

فهمست زبيدة:

ـ أطفئي النور!

فردت دليلة بقوة:

ـ لا.

اقتربت الخطوات حتى وصلت إلى الباب، ثم تحرك مقبض القفل. وكان الباب مغلقاً بالمفتاح. وإذا صوت العجوز كلثوم يقول:

ـ من هنا؟ افتحوا الباب!

فأجابها رضا:

ـ أنا، إني أتعشى.

فقالت مستنكرة:

ـ تتعشى الآن في نصف الليل؟ افتح الباب!

ـ عودي إلى غرفتك. أتمّ عشائي وأخرج.

ـ لماذا لا تفتح الباب؟

ـ ولماذا أفتح؟

قامت دليلة مغضبة ففتحت الباب، وخاطبت أمها بعنف:

ـ ادخلي! انظري ماذا نعمل؟ اننا ارتكبنا جريمة أخرى، لأننا نتعشّى في هذا الوقت من غير أن نستشيرك!

نظرت العجوز إلى الطاولة فرأت صحناً فيه دجاجة وصحوناً أخرى بها مقبلات وفواكه... وكانت دليلة وزبيدة واقفتين، ورضا وهالة ونعيمة جالسين. استشاطت العجوز غضباً، وهجمت على الدجاجة فأخذتها فرمتها على الأرض تدوسها بقدميها في هياج غريب وهي تقول:

ـ الدجاج انتهى زمانه... لن تذوقها (تعني نعيمة)!

غضبت دليلة غضباً شديداً، فأمسكت أمها من ذراعها وهزّتها بعنف وهي تقول لها:

ـ لو لم تكوني أمي...

فصاحت فيها داعية لها بكل المصائب:

ـ لا أوصلك الله! أنت... أنت تقولين لي هذا وتدفعينني؟ سوّد الله أيامك! يا ذرية الإثم...

ونادت بأعلى صوتها:

ـ عمر! مراد! إليّ، إليّ! تريد أن تضربني... إليّ!

حاول رضا تهدئتها عبثاً. ونادى مراد من درابزون الدور الأول:

ـ ماذا وقع؟ ما هذا «السيرك»؟

ساعد رضا أمه على طلوع الدروج، وحاول بكل الوسائل تهدئتها خشية أن يستيقظ أبوه فيتعكر الجو أكثر. فاستمرت هي في تباكيها وتشكيها: «دليلة ضربتني، دفعتني. . . لن أقبلها في بيتي».

فسألها مراد:

ـ ولماذا نزلت إلى أسفل؟ وأين هي دليلة؟

ـ إنهم كلهم بالمطبخ. أرادوا أن يجعلوه مقهى ليلياً. كلهم هناك. . . يا ويحكم يا ويحك يا دليلة الشر!

تعاون مراد ورضا على إدخال أمهما إلى غرفتها. وسأل مراد رضا:

ـ ماذا تعملون بالمطبخ كلكم في هذا الوقت المتأخر من الليل؟

ـ نتعشّى.

ـ الآن؟

ـ الآن. لأننا لم نتعشّ.

ـ ولماذا؟

ـ منى لم ترد ذلك!

ـ ولماذا؟

ثم غادره إلى غرفته وهو يقول:

ـ هذه ثكنة بلا قائد، ليست داراً!

وأغلق الباب على نفسه.

أما رضا فقد أفسد عليه مجيء أمه المفاجىء كل ما دبره لمواساة نعيمة. وعاد إلى المطبخ، فوجد أخواته يغلين غضباً. أما نعيمة فلم يكن يبدو عليها أي انفعال! فأراد أن يعبر لها عن أسفه، فقالت له:

ـ لا داعي. كل هذا يندرج ضمن الوضعية الجديدة التي عليّ أن أواجهها.

ـ للأسف. إنها ما تزال في الحالة البشرية الخام! (يعني أمه).

وأضاف بأسف بيّن:

ـ حاولت أن أعبّر لك عن أننا في هذا البيت لسنا سواء، ولكني أدركت الآن أننا ما دمنا تحت سقف واحد فكلنا مسؤولون!

فقالت دليلة:

ـ أنا أفجّر هذا البيت... سترون!

وخرج الجميع من المطبخ، كلّ عائد إلى غرفته. ما عدا زبيدة التي رأت أن تذهب إلى غرفة أمها لتعرف السبب الذي حوّلها من امرأة حنون طيبة إلى وحش مفترس. فأخبرتها أمها بعد طول إلحاح بتفاصيل القضية. لم تصدق ما سمعت وقالت لها:

ـ مساء الأربعاء كانت حائضاً واليوم أصبحت حبلى؟ هذا بهتان وافتراء عليها!

فردت عليها أمها:

ـ تريدين أن تقول لك إنها حبلى؟ افتعلت ذلك للتمويه...

اللعينة! أرادت أن تخرب بيتي. . . لن أشفق عليها ولن أرحمها. لتذهب إلى جهنم!

- إنك غالطة!

- اخرجي، اخرجي. لا أريد أن أسمع كلامك. لو كنت صالحة لما نزلت إلى المطبخ في منتصف الليل مع أولئك المجانين! اخرجي من هنا!

- لا تصيحي هكذا. . . إني خارجة!

عادت زبيدة إلى غرفتها مغضبة على أمها، ولم تصدق حرفاً واحداً مما سمعته وخطر لها أن تسأل نعيمة، عدلت عن ذلك، خشية أن تزيدها ألماً على ما هي فيه.

* * *

رأت نعيمة في المنام أن أباها قرر قتلها، فدعا كل سكان القرية، وكل رفاقه المجاهدين الذين كان يحكي عنهم، الأحياء والأموات. فأتى الجميع إلى ساحة الدار. انتظمت حلقة واسعة. وقف أبوها في وسطها يمسك بسيف طويل. ثم جيء بها إلى الساحة في موكب رهيب تتقدمه زوجة عمّها وعمّها. لم تكن خائفة بتاتاً. كانت تبحث عن رضا إذا كان من بين المدعوين فرأته واقفاً في الصفّ الأول يبتسم. طرحت على الأرض وجاء شخص ليعصب عينيها فرفضت. وشهر أبوها سيفه حتى لمس ذبابه السماء. ثم هوى به على رقبتها. فانفصل رأسها عن جسمها. ولكنها لم تحسّ بألم ولا فقدت وعيها. أقبل رضا فوارى

جثمانها التراب. ووضع رأسها على قبرها في اتجاه السماء. فنظرت إليها فإذا هي غير السماء التي تعرفها يوم كانت حيّة. إنها سماء بديعة الصنع والتركيب. شموسها وأقمارها والنجوم، كلها ذات أشكال إنسانية لامتناهية من حيث الأحجام! كانت كلها تبتسم لها وتناديها للالتحاق بها وترك الأرض. تململت في جدثها واستعدّت للطيران. وإذا بصوت رضا يملأ الفضاء من جميع جهاته، تردّد صداه السماوات، يقول لها: «لا تفارقي الأرض، لا تفارقي الأرض وأنت لم تتحولي بعد إلى سماد!» فامتدّ جثمانها في القبر من جديد. وشعرت أن رؤيتها انتقلت من العينين وصارت رؤية وجدانية... أحست أنها صارت كياناً مبصراً. لم يكن إبصارها جزئياً، بل كان كلياً. يشمل المرئيّ كله بجميع ذراته. بحيث صارت الأجسام أمام نظرها قابلة للرؤية الكاملة! كما أن الزمان لم يكن متسلسلاً كما تعرفه في الحياة. ولكنه حاضر غير مجزأ. كان بإمكانها أن تفكر فترى. اجتمع التفكير والرؤية والزمان والمكان في شعورها.

ثم شاهدت نفسها بعد ذلك تتحوّل إلى سماد. ثم تنبت زهوراً حمراء ضخمة تعبق بعطر يملأ الفضاء شذاه. وإذا بصوت رضا يناديها: «الآن، أدّيت مهمتك في الأرض. لك أن تعرجي إلى أي ملكوت». فتجيبه هي: «لا أعرج. ملكوتي الأرض. أبقى هنا لتستنشق عطري...».

وإذا بها تستيقظ على صوت منبّه سيارة. قفزت من حلمها تبحث بيديها عن رأسها. وكان النهار قد طلع. ثم سمعت باب

سيارة يغلق. ثم بعد لحظات سمعت جرس الباب. نظرت إلى الساعة في يدها فوجدتها الثامنة إلا ربعاً. عرفت أنه أبوها. ليس هناك من سكان المدينة من يأتي في هذا الوقت. أبوها هو الذي بكر كعادته ليعود بها قبل أن ينتشر الحرّ!

لم توقظ زبيدة. رأتها مستقلية على ظهرها في نوم عميق، وبسمة رقيقة مرتسمة على شفتيها... أخذت حقيبتها ورزمة فراشها وفتحت الباب فرأت عمّها هابطاً. هيأته تدل على أنه قام منذ وقت طويل.

انتظرت حتى سمعته وصل إلى الباب الخارجي وفتحه، فنزلت. وكانت وهي في الدروج تسمع أباها يسأل عمّها عما حدث.

لما وصلت إلى أسفل، رأتهما يدخلان الصالون. فكّرت ماذا تفعل؟ هل تنتظر بالممرّ؟ أو تخرج للسيارة فتنتظر أباها هناك؟ أو تدخل للصالون أفضل. هي لم تفعل شيئاً لتخفي نفسها من أحد، أو لتخشى أحداً. إنها متّهمة ظلماً. دخلت فقبّلت رأس أبيها، ولم تقبّل عمها. فلاحظ لها أبوها ذلك.

ـ وهذا، ألا تعرفينه؟

لم تجب بشيء. فأعاد أبوها آمراً:

ـ قبّلي رأس عمك!

فنطق الشيخ علاوة:

ـ لا أريد. لو عرفت لي قيمة لما وصلنا إلى هنا.

لم تتكلم نعيمة ولم تتحرّك من مكانها. قال الشيخ علاوة لأخيه:

ـ اجلس، اجلس، إنك تعبت من الطريق.

ـ لا أجلس. لم آت للجلوس. أريد أن أعرف ماذا وقع؟

اتجه الشيخ علاوة إلى المتكأ، ومسبحته في يده، يعدّ حباتها عدّاً سريعاً، محاولاً تغطية ما هو فيه من انفعال.

فكرّر صالح:

ـ ماذا وقع؟ ماذا عملت؟

ـ ماذا عملت؟ عملت ما لا تقبله السماء ولا الأرض! إنك أخي والحديث بين أخوين لا يتسع لكل شيء.

فقالت نعيمة مكذّبة:

ـ إنهم يعتدون عليّ، ثم يتهمونني بجرائرهم!

تحيّر أبوها مما يسمع. ابنته يعرفها، لا تكذب ولا تجرؤ على الحديث أمامه وأمام عمها بهذه الطريقة لو لم تصل إلى درجة قصوى من الحيف. وقال لها متسائلاً بتعجب:

ـ من اعتدى عليك؟ ومن اتّهمك؟

وإذا بالعجوز كلثوم تدخل مهاجمة بدون أن تحيّي سلفها:

ـ كنت أود أن أراك وصلت قبل الفجر، لكي لا تتلاقى بهذه الأفعى! (تشير إلى نعيمة).

فرد عليها سلفها بحدة:

ـ عيناك لن تتلاقيا بها بعد اليوم! لكن ماذا عملت لكم هذه

«الأفعى» كما تقولين؟ ومنذ متى صارت هذه اليتيمة البائسة أفعى؟

تقدّمت نعيمة من أبيها لتجذبه من يده وتطلب إليه الخروج وعدم مواصلة الحديث مع امرأة فاقدة لعقلها في نظرها. لكن أباها رفض، وأحب أن يعرف ما وقع. ولم تترك له العجوز كلثوم فرصة لإعادة سؤاله، فقالت:

ـ تريد أن تعرف ماذا فعلت؟ إنها أرادت أن تدنّس سمعة عمها وأولاده، سمعتنا جميعاً، حتى أنت!

والتفتت إلى نعيمة تقول لها:

ـ لماذا تنظرين إلى الأرض مفتعلة الحياء؟ قولي لأبيك ماذا فعلت. قولي له عن قذارتك!

فردّت عليها نعيمة:

ـ لا أسمح لك أن تقولي هذا... لست قذرة، ابنك هو القذر! أنا أطهر من كل أحد!

التفتت العجوز كلثوم يميناً وشمالاً متعجبة باحثة عمن تستشهده على ما تقول نعيمة:

ـ اسمعوا يا ناس... اسمعوا، تتّهمنا نحن بالقذارة! تتهميننا أيتها البنت التي باعت شرفها!

قالت نعيمة لأبيها، ولم تعد تقوى على البقاء لحظة زائدة:

ـ أبي، هيا بنا. لم أعد أقدر على سماع المجانين!

لم يلتفت صالح إلى ابنته وأعاد سؤاله على زوجة أخيه بدون أي انفعال:

ـ ماذا فعلت لكم؟ أنا جئت من أجل أخذها، ولكن لا بد أن أعرف ماذا فعلت.

كان عمر في تلك اللحظة بالممرّ الأرضي متسللاً إلى خارج البيت لئلا يتلاقى بعمه. وأوصى زوجته أن لا تنزل إلا بعد ذهاب عمه وابنته.

أجابت العجوز كلثوم سلفها:

ـ إنها دنّستنا ودنّستك. اسألها هي ماذا عملت!

فقال الشيخ علاوة:

ـ لماذا الآن كل هذا الكلام؟

فردّ عليه صالح بتهكم غاضب:

ـ أرى أنها قلبت بكم الجزائر! إنكم لا تستحون تكلمونني بمثل هذا الكلام عن بنت كنت أظن أنها بين أهلها... إنكم لا قيمة لكم!

وأشار إلى نعيمة بالخروج، متأهّباً لمغادرة الصالون. لكن العجوز لم ترد أن تبيت فيها الضربة فقالت:

ـ بنتك هي التي لا قيمة لها! إذا أردت أن تعرف ماذا فعلت انتظر بضعة شهور... إنك أصبحت جداً في الحرام!

صاح فيها الشيخ علاوة:

ـ اخرسي يا امرأة! اخرجي من هنا!

فأعادت العجوز كلثوم من جديد مؤكدة:

ـ قل إننا لا قيمة لنا... لأننا لا نريد الفجور! ابنتك تنتظر ولداً!

اهتزّت الأرض بصالح. وصرخت نعيمة:

ـ إنك امرأة مجرمة! أنا أشرف وأطهر منك! لا تخيفني فرياتك الآثمة، لا أخافك!

والتفتت إلى أبيها:

ـ إنها مجرمة هي وابنها!

أحسّ صالح الصالون يدور به دوراناً أظلم في عينيه كل شيء. ولكنه مع ذلك سيطر على أعصابه بكل ما فيه من قوة. وقال مخاطباً زوجة أخية في لهجة تهديد رهيبة:

ـ أيتها المرأة، لا تنسي ما قلت! إنك كشفت عنا الستر...

فأجابته قبل أن يتم كلامه:

ـ لا أنسى من انغمست في الإثم وتريد تشويه من أحسن إليها!

فخاطبت نعيمة أباها:

ـ أبي، لا تسمع إليها، إنها فقدت عقلها!

ـ اخرسي أنت وإلا قبضت روحك! لا حق لك الآن في الكلام!

وقال مخاطباً من جديد أخاه وزوجته:

ـ إذا كان ما قلتموه صحيحاً أعرف كيف أغسل العار، وإذا

كان كذباً لن ينجيكم مني حتى الشيطان!

وإذا برضا يدخل الصالون بقوة كمن جاء مسرعاً قبل أن يفوت الحال، فيحيّي، فتقول له أمه:

ـ وأنت ما جاء بك إلى هنا؟

فيخاطب عمه:

ـ عمي، لا أدري بالضبط ماذا وقع، ولكني أؤكد لك أنها جريمة دبّرت ضد نعيمة. انها فتاة شريفة!

يصرخ فيه أبوه، لكن العم يخرج هو وابنته، وكل ظلام الدنيا يملأ عينيه ويملأ نفسه. أما نعيمة فقد أحست على العكس، كأن الضباب الذي يجثم على نفسها أخذ ينقشع.

انطلقت سيارة 404 الشاحنة في الأنهج الملتوية المؤدية إلى الشارع الرئيسي الذي يتجه إلى الشرق. وأحست نعيمة كأن السيارة تبتعد بها عن الجزائر في كل لحظة تمرّ، بالآف الأميال! وتبعدها عن المستقبل الذي كانت تعدّ نفسها له، بملايين الأميال! كل شيء في حياتها يتغير! يتغير من غير أن تكون لها يد في التغيير. . . وراحت تتابع بنظراتها الطريق المقبل عليها ببناياته وأشجاره. وكانت تودّ لو لم ينته هذا الطريق أبداً!

لم تكن خائفة ولو أنها تعرف مدى قساوة أبيها، لأنها ترى أن التهمة التي اتهمت بها فوق كونها زائفة هي سخيفة! لكنها مع ذلك كانت تتساءل في أعماقها: لماذا اتهمت بمثل هذه التهمة؟

- 13 -

عنـدمـا استيقـظت دليلة وزبيـدة وهـالـة ونـزلن إلى المـطبـخ كعـادتهن لتنـاول القهـوة كـانت السيـارة التي تنقـل نعيمــة قـد انفصلت عن الطريق الرئيسي الذي يربط بين الجزائـر وقسنطينـة وعرجت إلى اليسار في الطريق المؤدي إلى تيزي أوزو.

لم يكن بالمطبخ غيرهن. العجوز كلثوم حملت الفطور إلى مراد بغرفته ككل يوم أحد. منى بقيت في غرفتهـا هي وأولادها. أمـا رضا وعمر والشيخ علاوة فكلهم خـرجوا ولم يعـد أحد منهم إلى البيت.

ذكـرت زبيـدة أنها عنـدمـا استيقـظت وجـدت سريـر نعيمـة خالياً. وكـانت السـاعـة حينئذ التـاسعة. أمـا هالـة فزعمت أنها سمعت خصاماً بـالصالـون بين أمهـا وعمها فـأخذتهـا دليلة على عدم إيقاظها، وقالت:

ـ لا شك أنهما حمّلاها كل جرائم الدنيا.

أمرت زبيدة هالة بالخروج فاحتجّت على ذلك:

ـ هل أنا جالسة في حجرك؟

ـ لي كلام مع دليلة، بيننا وحدنا.

خرجت هالة حانقة على أختها الكبرى التي تعاملها معاملة الأم. فأغلقت زبيدة الباب وقصّت على دليلة ما ذكرته أمها لها بالأمس، من أن نعيمة تنتظر ولداً.

سكتت دليلة تتأمل الموضوع، وتبيّن لها أن نعيمة ذهبت ضحيّة خطأ فادح وأن الرسالة المرسلة إليها هي السبب في كل ما وقع. لكنها لم تفهم لماذا أبوها وأمها ربطا قضية الرسالة بقضية عمر؟ وكادت تشكّ أن عمر هو الذي أطّلع على الرسالة فهدّدها بفضحها إن لم تذعن لرغبته فامتنعت وحاولت أن تتخلّص منه فرماها بتهمة الحمل. . . لاحظت زبيدة أن ما حكته أمها لها لم تصدّقه، لأن نعيمة تنام معها:

ـ لو كانت حبلى، أو لو كان لها سلوك يخالف ظاهرها لأدركت ذلك.

فردت دليلة قائلة:

ـ كل شيء يتّضح في وقته. أنا خارجة الآن.

ـ إلى أين؟

ـ لست أدري. لو كانت لي سيارة وكنت أحسن القيادة لالتحقت بنعيمة.

ـ لا تعرفين القرية.

ـ أسأل عنها. إنها على بعد ثمانين كلم من الجزائر، ليست في القمر!

ـ أنا بالنسبة إليّ كل الأماكن أبعد من القمر.

* * *

أحزن دليلة أن تكون هي السبب فيما وقع لنعيمة، ولكنها لم تجد الطريق الذي تتدخل به لإنقاذها مما هي فيه. أولاً... ما تصورته بخصوص الرسالة لم يصل منها إلى درجة اليقين. ثانياً. وعلى فرض تأكّدها من ذلك ماذا تفعل؟ لو اطلعت على الأمر قبل مجيء عمّها، أو لما كان بالصالون مع أبويها لربما استطاعت أن تعمل شيئاً، أما الآن فكل ما تقدر عليه هو أن تنتظر.

نزلت إلى القصبة لتتفقد الغرفة التي اكترتها، ولتتعرف أكثر على الجو الذي ستحيا فيه عما قريب. كانت سالكة نهجاً ضيقاً صاعداً من باحة جامع كتشاوة إلى أعالي هذه المدينة القديمة الغامضة. وإذ رآها بائع السمك المتجول مقبلة صاح منادياً: «سردين خشين». فقالت في نفسها: «عليّ أن أعدّ نفسي لتعلّم مصطلحات وأنماط أخرى...» ولم تكتمل الجملة في نفسها حتى صاح طفل يبيع السقائر: «سيقار هافانة، راه معنا، يا اللي تدخن السيقار!».

وكانت في طريقها ذاك الضيق المصعد تحسّ كأنها في عالم آخر، وأن الأنظار كلها مسلطة عليها. وحيناً بعد آخر ترفع رأسها، متعرفة على البيانات وأشكالها، فلاحظت ضيق النوافذ بصورة تكاد تكون متماثلة في كل بيت. فخطر ببالها أن هذه النوافذ ضيقة لأن البيوت مجعولة لإقامة النساء، فلو كان الرجال هم الذين يمكثون بالبيوت لجعلت النوافذ واسعة يقيناً! ولم تدر كيف التصق بها شخص وراح يتخذ من نفسه دليلاً لها. وقال:

إن شكـل البنـاء القـديم يختلف عن بنـاء عصرنـا. هـذه الأنهج الضيقة الملتوية صممت على هذا النحو لوقايـة البيوت من شـدة الحرارة والرطـوبة. لم تكن الحيـاة في الماضي تتـوفر عـلى وسائـل التبريد... فقاطعته دليلة:

- أعرف ذلك، شكراً. لست في حاجة إلى دليل!

فواصل الرجل حديثه كما لو لم يسمعها:

- لو رأيت هذه البيـوت التي تبدو بـائسة حقـيرة من الداخـل لانكشفت لك قصور وروائع لا تخطر ببالك! ليست كـل البيوت طبعاً، ولا سيما الآن حيث تغير السكان فنزح السكان الأصليون إلى المدينة الأوروبية وجاء سكـان جدد من جهـات أخرى فقـراء وغير متحضرين، فأفسدوها... طبعاً، هناك عـائلات قـديمة لم تغادر بيوتها، فحافظت على مـا تحتويـه جمالاً وفنـاً وجواً. لكنهـا عائلات في معظمها فقيرة... من المؤسف أن لا يلتفت إلى هذه المدينة التاريخية الالتفات المطلوب...

فقـالت دليلة في نفسها: «لا نعـرف في الجـزائـر الا النقـد!» وقاطعته:

- قلت لك إني جزائرية، لست أجنبية!

ضحك الرجل وقال:

- كل من لا يسكن القصبة هو أجنبي عنها. ماذا تعرفـين عن هذه المدينة؟

- تريد أن ترشدني بالرغم مني؟

ـ أرشدك بموافقتك. أنا أعيش من هذا العمل. وأنت تستفيدين معلومات لا تعرفينها.

ـ عندما ترشد الأجانب تحدّثهم عن إهمال الحكومة لهذه المدينة، كما فعلت معي؟

ـ أنا لا أنتقد أحداً. كل من يعرف القصبة يغيظه حالها. إنها مدينة تستحق العناية من كل أحد. ليست لنا عشرات القصبات!

ـ تلوم السلطات، والسكان لماذا لا يسلكون سلوكاً مدنياً؟

ـ السكان في حاجة إلى الإرشاد والعقاب معاً...

ـ لا يهمني كل هذا، دعني من فضلك. إنني وصلت.

وكانت دليلة قد وصلت بالقرب من دار عربية قديمة في زقاق ضيق متفرع عن النهج فسألها الرجل كالمندهش:

ـ تسكنين هنا؟

ـ نعم، في تلك الدار المقابلة...

واستدركت:

ـ لي قريبة تسكن بها.

ـ الدار التي نراها من هنا عليها لافتة؟

ـ نعم. لماذا كل هذه الأسئلة؟

ـ انها غير مسكونة! لعلك غلطت في النهج؟

ـ أليس هذا نهج...

وبحثت عن العنوان المكتوب في وصل الكراء في حقيبتها وأعطته له. فضحك ضحكاً عالياً، وقال:

ـ خدعوك، مثل الآخرين!

ـ ماذا تقول؟ أترتاب في صحة الوصل؟

ـ هذه الدار مغلقة يا آنسة، لا يسكن بها أحد. إنها في حالة انهيار.

تعجبت دليلة مما تسمع! إنها جاءت إلى هنا بنفسها، ودخلت إلى الدار وشاهدت الغرفة التي اكترتها، ووجدت سكاناً آخرين بالدار... وقالت له:

ـ الدار مسكونة. وأنا متحققة مما أقول...

فقاطعها قائلاً:

ـ لو تبقين في ههذا المكان ساعتين أو ثلاثاً لرأيت مكترين آخرين وقع لهم ما وقع لك... إنها عصابة... هيا معي لتتحققي من قولي.

مشت معه حتى باب الدار، فأراها قرار البلدية القاضي بإغلاق الدار المعلّق بالباب. فقالت دليلة:

ـ لوحة مزيّفة من غير شك. وضعوها فوق هذه عندما جئت للاطلاع على الغرفة.

ـ والسكان الذين كانوا بها إذن؟ هم أيضاً مزيفون؟ إنها عصابة تفكر في كل شيء. ليس أسهل من جلب عجائز كساكنات مقابل مبلغ من المال.

ـ لكنه ليس مبلغاً ضخماً. . .

ـ بالنسبة للشخص الواحد، أما إذا كان المكترون مائة! . . .

ـ وماذا أفعل الآن؟

ـ إذهبي إلى المحافظة وقدّمي شكوى ضد مجهول. هذا ما تستطيعين فعله.

شكرت الرجل واعتزمت مغادرة القصبة، وهي في سخط أسود، فقال لها الرجل:

ـ لا تذهبي هكذا. . . وتعبي؟

ـ آ. . . لا مؤاخذة.

أخرجت حقيبتها وبحثت بين القطع النقدية فوجدت واحدة بخمسة دنانير فأعطته إياها، فرفض محتجّاً:

ـ لا يا آنسة. ماذا أفعل بخمسة دنانير؟ أشتري بها كيلو سردين؟

نظرت إليه دليلة بازدراء، وهمّت بدفعه إلى أسفل النهج، ثم عدلت عن ذلك، وأخرجت أوراقاً نقدية وسألته كم حقه فاشترط خمسين ديناراً. أخذت ورقتين من فئة العشرة دنانير وناولتها له، فأخذ يحتج من جديد فقالت له:

ـ خذها وإلا انصرفت بدون أن أعطيك حتى صنتيماً واحداً!

ـ لو لم تكوني امرأة لرأيت. . .

ـ لرأيت ماذا؟

رمت له العشرين ديناراً وانصرفت فأخذها وبقي ينظر إليها

وهي هـابطة في غضب. . . لقـد تعجب من جرأتهـا واعتدادهـا بنفسها إلى ذلك الحد!

* * *

ودت دليلة لـو تبكي ممـا كـانت فيـه من سخط وغضب عـلى الـذين سخروا منهـا، فأكـروا لها غـرفة في دار مغلقـة! وجـدت نفسها فجأة في طريق لا ينفذ. كانت هذه الغرفة بمثـابة النـور في ليلة مـظلمة لسفينـة ضائعـة بين العـواصف. بيد أن هـذا النور أيضاً سراب! سفينة دليلة لم يَحِنْ لها رسوّ. إلى أين تذهب؟ ماذا تفعل؟ إنها حتى لو أفسحت لبركانها أن ينفجر، وصرخت بأعـلى صوت تعلن أنوثتها التي رمت بها في هذه الدركة المزريـة لما أفـاد ذلك شيئاً. أنوثتها لا ترتفع عنها بعصا سحرية. الجنين الذي في أحشائها لا يذوب ويصير ذارت في دمها بالمصـادفة. فهـو إما أن يخرج في وقته للحياة، وخروجه عندئذ تترتب عليه مسؤوليات لا تحصى. وإمـا أن يخـرج قبـل الآوان، فتـترتب أيضـاً عـلى ذلـك مسؤوليات، ولكن من نوع آخر، لعلها بالنسبة لغـريزة الأمـومة فيها أثقل وأمر! ما العمل؟ الغرفة ـ الأمل انغلقت في دار مغلقـة بقرار منَ البلدية. . . آه، لو استطاعت أن تسكن فيهـا وهي في حـالتهـا تلك، فتنهـار عليهـا وتـرتـاح نهائيـاً من هـذه الحيـاة ـ السراب!

«لا يـا نعيمـة، لست أنت المسكينـة، ولا السيئـة الحظ. . . أنت عـلى أسـوأ حـال تجـدين من يقتلك! أمـا أنـا فمن يقتلني؟ كلهم جبنـاء. أقتل نفسي، أنتحـر؟ أنا لست جبـانة. . . وكـأن

هـذه الفكـرة التي بـرزت بغتـة إلى دائـرة الشعـور استعـذبتهـا: «أنتحـر، أرمي بنفسي في البحـر، وأصبـح لا شيء. مـاذا تخسر الدنيا بفقـدي؟ ماذا يخسر مجتمـع الرجـال بفقد فتـاة بائسـة؟ لا شيء. الموت على كل حال أهون من الحياة بلقيط في ذراعي!».

فكرت ملياً في الانتحار. كانت واقفـة بالـدرابزون الحـديدي للرصيف المقابل للغرفة التجارية. ترى البحر أسفلها على بضـع عشرات من الأمتـار، بـزوارقـه وبـواخـره، بمـرسـاه المكتظ حتى القيء بالبضائـع المستوردة التي لم تنقـل منذ عـدة أشهر، بعـماله ومسافريه، بالسارقين المتنكرين في كل الأزيـاء، بأوسـاخ المدينـة التي تصب فيه...

لم تحس بمرور الوقت. لم تحس بضجيـج المرور. كـأنها نفذت من عالم الواقع إلى عالم آخـر أشد واقعيـة، عالم اليـأس. لم يكن البحر يبدو في نظرها أزرق شفـافاً. لم تكن الأقـواس الممتدة إلى مـا لا نهايـة عـلى يمينهـا، حـاملة في شمـوخ شـارع الاستقـلال وزيغوت يوسف وشي غيفـاره، تظهـر لها في هنـدستها البـديعة، كانت تبدو لها ظهوراً منحنيـة مما تحمـل فوقهـا من ثقل. لم يكن الجزء الشرقي من المدينة الذي يرى من هناك في نـظرها ذا أبهـة وعـظمة ورواء. لم يـثر في نفسها حتى الغبـطة بالانتـماء إلى هـذه المدينة الجميلة.

فكرة الانتحار وجدت في حالتها النفسية تلك أرضيـة صالحـة للخصب: «الانتحار ليس جبناً ولا يأساً. هو خلاص، هو حل

لمشكلتي. شربت من اللذة حتى الثمل، يجب أن أدفع الثمن، أنا وجنيني. هكذا لا يحيا في مجتمع يتصور رجاله كلهم آباءه! ولا أنا أحيا بالخزي معه إلى الأبد.».

لو بقينا حيين، لكان كلما ناداني، أمي، صاحب الكلمة في نفسه الوصف الذي يعطى للأمهات اللواتي تلبّسن بالإثم مثلي. إن عشنا حكمت عليه إلى الأبد بصفة اللقيط! الانتحار يمحو في لحظات كل شيء...».

وبينما هي في أفكارها السوداء تلك إذا بصوت قريب يقول لها: «الآنسة...» فترى رجلاً يلبس نظارة سوداء يبتسم. وفي ابتسامته لمع الناب الذهبي الذي التقت بصاحبه منذ أيام قلائل:

ـ صباح الخير! ألم تعرفيني؟ أنا الذي رافقتك إلى بن عكنون يوم الخميس الماضي. كنت بمفترق طرق القبة وحسين داي...

استبشرت دليلة به كما لو أنه ملك نزل عليها من السماء. ولم تدر لماذا؟ ومدت يدها تصافحه بود:

ـ أهلاً، كيف حالك؟

ـ جيدة! أوقفت السيارة هنا، فرأيتك فعرفتك...

ـ أنا سعيدة بلقائك!

ـ أنا أسعد!

ـ إنك دائماً مستبشر بالحياة؟

ـ ولم لا؟ أعيش في مدينة جميلة، وفي بلد حر، وليس لي أي

ـ لأني رجل حوار.
ـ طيب، ما هو المشروع؟
ـ مشروعي أن نتغدّى معاً هنا بساحة الحوت.
ـ ولماذا هنا وليس في مكان آخر؟
ـ لأني لا أغيّر مشروعي الأول لطارىء مهما كان...
ـ وما هو مشروعك الأول؟
ـ أن آكل سرطاناً في أحد مطاعم ساحة الحوت.
ـ يا لطيف! تأكل السرطان؟ وأي شيء هو؟
ـ هو بالعربية «اللانقوست»! وهو لا يؤكل في جو كئيب. ولا من طرف شخص واحد... لأنه عندئذ يصبح قنبيطاً!
ـ أقبل دعوتك على شرط أن تتكلم بالعربية!
ـ وبأي لغة أنا أتكلم الآن؟

فقالت له ضاحكة وهما يتجهان إلى مطعم مشهور بالمكان المذكور:

ـ وما دخل القنبيط في العربية؟

ـ لأنه عربي! القنبيط هو ما نسميه بالعامية: البروكلو.

ـ لماذا لم تقل من الأول، بروكلو وانتهى الأمر؟ أليست اللغة مجعولة أساساً للتفاهم؟

ـ لو قلت لك البروكلو، لصارت العربية عربيات. هل تعتقدين أنه من الضرورة ومن المفيد أن نغير لغة كاملة من أجل مجموعة من الأشخاص لا يحسنونها؟

مسؤولية عن غيري. هل لي أن أسألك ماذا تعملين هنا؟

- أنظر إلى البحر.
- جميل البحر!
- نعم، جميل.
- هل تحسنين السباحة؟
- نعم.
- بدأ الناس يذهبون إلى الشواطىء...
- إننا في الصيف. والحر في هذه الأيام شديد...
- صحيح. لي مشروع أريد عرضه عليك. ممكن؟
- عرضه ممكن، أما قبوله فيتوقف على محتواه.
- قبل كل شيء، هل أنت حرّة؟

أجابت دليلة مازحة:

- ومتى كانت المرأة حرّة؟

ضحك الرجل وردّ عليها بما لم تتوقّع:

- عندما كانت في الجنة!
- ما زلت تحيا مع أفكارك؟
- وأين تريدين أن أتركها؟
- معك الحوار صعب!
- بل في غاية السهولة. يصعب الحوار عندما تقف الكلمات في الفم حائرة، لا تدري أتخرج أم تعود إلى حيث كانت.

تعابيرك مثيرة!

ـ انك تلومني على عدم معرفتي للعربية مثلك؟
ـ لا ألومك، انما أصارحك. أنا مبدئي الصراحة!
ـ أمزح معك. وأنا دائماً معجبة بك وأقبل منك التعنيف لا اللوم والعتاب فقط!
ـ نواصل الحديث بالمطعم. لأن حركة المرور تضطرنا لرفع أصواتنا، وأنا أحب الحديث بالصوت المرتفع.
ـ كما تشاء.

* * *

لاحظت دليلة أن رفيقها معروف في هذا المطعم، من مصافحة أحد النذل له وسؤاله عن حاله، وأنه تغيّب عن المطعم. .

أُجلِسا في شرفة المطعم الذي كان يتركب من طبقتين، علوية وسفلية.

وكان رفيق دليلة يفضل دائماً الجلوس في هذا المكان، عندما يأتي إلى هنا.

سألها النادل هل تريدان مشروباً قبل الأكل. وكانت دليلة ترى موائد الأكل حواليها كلها تقريباً عليها مشروبات كحولية ونبيذية. . . وقالت في نفسها وهي ترى ذلك: «أبي وحده الذي لا يشرب الخمر في العاصمة؟».

فسألها رفيقها:
ـ هل لك في شراب شيء؟

ـ هل يمكن؟
ـ ولم لا؟ أنظري حواليك. . .
ـ طيّب، أود لو أمكن، «أسكوتش».
ـ وأنا كذلك، لكن بدون ثلج.
فسأل النادل:
ـ وماذا تُرِيدَان كأكل؟ أسماك أم لحوم؟
ـ فقال الرجل:
ـ أسماك يا أخي أسماك! هل نأتي إلى البحر من أجل الحيوانات البرية؟
ـ ماذا تريدان كأسماك؟
ـ سرطاناً مشوياً!
ـ طيب. والنبيذ، أبيض أم أحمر؟
ـ نبيذ وردي، أليس كذلك يا آنسة؟
ـ أنا أودّ ماء معدنياً.
أخذ النادل الطلب، وانصرف. فسأل الرجل دليلة:
ـ ألا تشربين النبيذ؟
فأجابت مازحة:
ـ الأحمر نعم، أما الأبيض فلا.
ـ أنا مثلك تماماً، لا أحب الأبيض!
فقالت دليلة بالمزاح نفسه:
ـ أنت أحمر اذن!
فوضع اصبعه على شفتيه مشيراً لها بالسكوت وقال هامساً:

ـ لا تقولي هذا، هنا. . .
ـ لماذا؟ ألسنا اشتراكيين؟

فقال الرجل بالهمس نفسه مازحاً:
ـ اشتراكيتنا بيضاء!

استحلت دليلة كلام صاحبها، وفكرت أنها لحسن حظها اليوم التقت معه. لقد كانت منذ وقت قصير في شبه دوامة مظلمة لا ترى لنفسها منها مخرجاً.

عاد النادل بطلبهما، فرفع الرجل كأسه ليشرب نخب دليلة فقالت:

ـ أودّ ماء معدنياً.
ـ ألا تستطيعين شرب الويسكي خالصاً؟
ـ لا أستطيع.
ـ ولماذا تشربينه إذن؟

فردّت دليلة مبتسمة:
ـ لأثبت لنفسي بأني أشرب الخمر.
ـ الويسكي بالماء!
ـ لأني لا أحب الأشياء الخالصة.
ـ لماذا؟
ـ لأنها لا وجود لها.
ـ حتى في الكحول؟
ـ في كل شيء.

جاء النادل بالماء فأفرغت دليلة كمية تعادل كمية الويسكي، ورفعت كأسها للرجل وشربت جرعات متتالية، كادت تفرغ الكأس، فانتبهت لذلك، فوضعته على المائدة..

كانت دليلة تنظر إلى الجامع المقابل لها على بضعة أمتار. وحيناً بعد آخر ترى رجلاً داخلاً أو خارجاً منه. فلاحظ الرجل انشغالها عن الكلام بما يجري خارج المطعم، فأراد أن يعيدها إلى جوّ المطعم، لئلا تنتقل عدوى صمتها إليه فيفسد الجو الذي يبحث عنه فقال:

ـ هذا المكان عبارة عن عالم مصغر.

لم تسمعه دليلة. كانت منشغلة حينئذ بطفلين في حوالي الثانية عشرة، يقول أحدهما لصاحبه إشارة كما فهمت من السياق، «أنظر إلى رِدفي هذه المرأة هما مثيران!» وكانت حينئذ امرأة أوروبية من السواح أو المتعاونين مارّة من هناك، تلبس فستاناً ضيقاً أبدى تشكيل جسمها للعيان. فقالت في نفسها: «حتى في الثانية عشرة يفكر الجزائري في مثل هذه الأمور!».

فقال لها رفيقها:

ـ أظن أنك لم تسمعيني؟

ـ عفواً، هل كنت تتكلم معي؟

ـ بدت لي ملاحظة حول هذا المكان، أردت إشراكك فيها، لكنك كنت منشغلة....

ـ كنت منشغلة بمسؤولية الجزائر في الحفاظ على النوع البشري!

ـ وكيف ذلك؟ هل للجزائر مسؤولية خاصة في هذا الميدان؟

فهم الرجل أنها تعني بكلامها هذا الانفجار الديموغرافي الذي يعبّر عن نفسه حيثما التفت الإنسان. لكنها هي كانت تفكر في الموضوع ربما بصفة لا شعورية، وبطريقة أخرى. لم تجبه، وأخذت كأسها وامتصّت آخر قطرة فيها، وراحت تلعب بها في يدها، وهي تقول في نفسها: «عندما أفجّر البركان، أقول «للجنرال» (تعني أباها) شربت الويسكي قبالة الجامع!».

فسألها رفيقها وقد رأى كأسها فارغة:

ـ أتريدين كأساً أخرى؟

ـ هل لا مانع من ذلك؟

ـ لا مانع بتاتاً. أنت حرة!

أشار إلى النادل أن يأتي بكأس أخرى. وأجابته دليلة:

ـ لو كنت حرّة لما شربت كأسين قبل الأكل! أشرب كأسين أو أكثر لأني لست حرّة.

ـ أقصد أنك في هذه اللحظة بالذات حرّة.

ـ الحرية الصحيحة لا تكون في لحظة ثم تزول!

عدل الرجل من جلسته فاستقام على كرسيه بعدما كان منحنياً شيئاً ما، كأنه بذلك يعرب عن أهمية ما سيقوله. وقال لها مصحّحاً تفكيرها:

ـ اذا سمحت لي بالصراحة، أقول لك انك مخطئة تماماً في تصورك للحرّية، مخطئة كما يخطى في هذا الموضوع أغلب

الناس. الحرية ليست شيئاً يكتسب دفعة واحدة ويبقى بعد ذلك إلى الأبد. الحرية مرتبطة بالمواقف وبالأشياء. تحصل في ذلك الموقف أو الآخر، وفي تلك الحالة أو الأخرى... فالحرّ في هذه اللحظة يمكن أن لا يكون حراً في لحظة أخرى آتية. وفي هذا الموقف لا في سواه.

ـ لم أفهم ما تعني. أنا أريد أن أقول إنني لست حرّة في التصرف، في العمل، في السلوك، في الكلام...

ـ تقصدين الحرية بالمعنى المتعارف. أفهم ذلك. وهي الحرية نفسها التي أعنيها بالضبط. أقصد أن أقول بتعبير آخر بسيط: الحرية في تجدّد والكفاح من أجل تحقيقها في تجدّد. الإنسان يكافح من أجل حريته طوال حياته. لأن الحرية موقف أمام حالة من الحالات. والإنسان ليس حراً في كل موقف، ولذلك عليه أن يثبت حريته دائماً. لهذا يقولون: إن الحرية هي مسؤولية قبل كل شيء. وإذا أردت، أنا أعتقد أن أقرب شيء إلى فكرة الحرية هو فكرة الثورة. الثورة إذا توقفت لم يعد الشعب الذي كان ثائراً يوصف بها، ولا تبقى بينه وبينها سوى الصلة التاريخية. أي أن تلك الثورة تصير مادة للتاريخ، لا للتقدم الانساني. أما التجدّد فهو الحياة نفسها. إذ إنّ كل ما لا يتجدد هو الموت.

ـ بما في ذلك المبادىء؟

ـ بما في ذلك المبادىء.

أقبل النادل بكأس الويسكي، وسأل الرجل:

ـ وأنت، سي عبد العزيز؟ أتريد كأساً أخرى؟

كاد يقول له: «هل جئت إلى هنا لأسكر؟» ثم أوقف الجملة في حلقه لئلا يجرح شعور دليلة. وأجاب:

ـ كأسي لم تفرغ بعد!

كانت دليلة تفكر في الطريقة التي تصل بها إلى الحديث عن عمل مؤقت، أو سكن. ليس لأن حديث الرجل لم يلائمها ولكن لأن ما هي فيه أمسّ بمصيرها القريب. خصوصاً بعد أن اكتشفت الفخّ الذي وقعت فيه في القصبة!

سألها عمّا يشغل بالها. وكان يبدو عليها فعلاً انشغال وكآبة:

ـ يبدو عليك كأنك محتارة؟

ـ أفكر في قصة وقعت لي هذا الصباح...

وحكت القصة من أولها إلى آخرها. فاستغرب لطرافة هذا الإجرام. وقال لها:

ـ وما يدريك أن الدليل الذي أخذ منك العشرين ديناراً ليس من أفراد العصابة؟

ـ لم أفكر في هذا، قد يكون... ان عالم القصبة غريب!

ـ ذكاء الفقير إذا لم يوجّه توجيهاً صالحاً في الوقت المناسب، ينمو إلى الوراء في الاتجاه المعاكس!

سكت يفكر في الموضوع. ثم قال لها:

ـ ألا يضايقك إذا ألقيت عليك بعض الأسئلة؟
ـ أبداً، اسأل عما تشاء.
ـ لماذا اكتريت هذه الغرفة في القصبة؟
ـ لأسكن بها.
ـ أنت؟
ـ أنا!
ـ وما يدفعك إلى ذلك؟
ـ أريد... أريد أن أحيا في وسط الشعب الحقيقي!

قالت ذلك وبلعت ريقها لأنها لم تقتنع بجوابها. لاحظ رفيقها عدم توفيقها في الكذب فقال:

ـ الكذب فن، ليس في وسع كلّ أحد أن يكذب!
ـ صحيح!
ـ إذن لماذا تستعملين هذا الألسلوب الذي هو عادة من أساليب كتّاب القصص المبتدئين، أو زعماء الضواحي. الشعب الحقيقي موجود في كل مكان، ليس في القصبة وحدها. والعيش معه هو معاناة آلامه لا التنزّه عليها!

لاحظت دليلة أن رفيقها يتكلم أحياناً كلام أحد أساتذة الكلية، المقتنع بصحة أفكاره، ولكنها لم تشأ أن تصرح له بذلك. فضلت أن يبقى بينهما حاجز. فأضاف سائلاً:

ـ لماذا تريدين أن تسكني هناك؟ وما يدريك أنه يقبلك، هذا الشعب الذي تتحدثين عنه؟

ـ لأني لم أجد سكنى في مكان آخر.

ـ هذا كلام معقول. لكن لماذا تبحثين عن سكنى؟ إن حالتك لا تدل على أنك بدون سكن. . .

ـ ما أستطيع أن أقوله لك الآن هو أني في حاجة أكيدة إلى السكن وإلى العمل.

ـ قولي، إلى العمل وإلى السكن. العمل هو الأساس. بالعمل تستطيعين أن تنامي إذا لزم الأمر في فندق من الفنادق.

ـ صحيح. لكني أنا الآن في حاجة إلى السكن قبل كل شيء.

أقبل النادل بالأكل، فأرجأ الحديث إلى ما بعد. وأخذ يقدم لها نصائحه في الأكل، فأحسست دليلة كأنها مع أب متطور إلى حد ما. وأضحكها ذلك. ولكنها لم تضحك طبعاً. وراحت تعمل بنصائحه التي لم تكن غير مجدية في نهاية الأمر. . .

عاد إلى الحديث في الموضوع الذي يشغل بالها، فقال وهو يفرغ لها النبيذ:

ـ لي كاتبة تعتزم الذهاب إلى براغ بتشيكوسلوفاكيا لإجراء فحص طبّي شامل، وقضاء عطلتها السنوية. أخوها هناك يشتغل ملحقاً بأحد الفروع الخارجية لمؤسسة جزائرية. نصحها أن تلتحق به وتجري ما شاءت من فحوص، لأن التكاليف هناك أقل من فرنسا أو البلدان الأوربية الغربية.

قاطعته دليلة متسائلة:

ـ أليس الطب مجانياً في تشيكوسلوفاكيا؟

ـ مجاني للتشيكوسلوفاكيين لا للأجانب!

وواصل حديثه عن كاتبته فقال:

ـ هي تسكن في شقة مع أخيها. لما عُيِّن بهذا الفرع الخارجي بقيت وحدها. إنها تشكو باستمرار وحدتها في هذه الشقة. يخيل إليّ أنها لن ترفض من يؤانسها ولو مؤقتاً. ومن غير شك إذا توثقت علاقاتك بها ستترك لك الشقة بعد ذهابها إلى تشيكوسلوفاكيا. لأنها بالطبع تترك في بيتها أحداً أحسن من أن تغلقها... ويبدو لي أنني أستطيع أن أقدم لك ولها خدمة. لك أنت السكنى، ولها هي رفيقة تؤانسها، وصديقة تصون دارها في غيابها. أما العمل فأمره بسيط... عندما تذهب هي إلى براغ تأخذين أنت مكانها مؤقتاً. ثم عندما تعود نفكر في الموضوع. على كل حال أنت الآن في المدرسة. ولا بد من إنهاء سنتك الدراسية، أليس كذلك؟

ـ نعم..

ـ لكنه مع ذلك تبقى مسألة أخرى مهمة، بل أساسية لتنفيذ هذا المشروع...

ـ ما هي؟

ـ أنا لا أعرف من أنت؟

ـ أنـا! هذا أمـر سهل. سـوف تعـرفني في الـوقت المنـاسب. أعرض أولاً مشروعك على الكاتبة، فإذا رضيت به فسأقـدم لك كل الضمانات الضرورية للثقة بي.

ـ اتفقنا. أعطيك رقم الهاتف. كلّميني بعد ظهر غد، أخبرك بما تم في الموضوع. اتفقنا؟

ـ اتفقنا.

أخذ رجلاً من أرجل السرطان وقدمها لها:

ـ أرجل السرطان لذيذة وملهية في الوقت نفسه. تفضلي.

ـ شكراً.

تنـاولت منه الـرجل، وواصـلا أكلهما الـذي كـان في الجملة جيداً، زاده جودة لدى دليلة ارتفاع درجة حيويتهـا من جراء مـا شربته من كحول ونبيذ.

وكـانت دليلة تتساءل في نفسهـا: «ترى مـاذا يريـد مني هـذا الرجل؟ هل باطنه كظاهـره أم هو «غـرفة» أخـرى في «قصبة» لا أعرفها بعد؟».

* * *

- 14 -

عن مـاذا تعبر الكلمـة عندمـا تنسدّ منـافذ الـوجدان وينغلق القلب؟ عن ماذا تعبر الكلمـة عندمـا ما يـطير العقل من الفكـر ويبقى المجال للغريزة وحدها؟

عن ماذا تعبر الكلمة عندما يستحوذ الغضب على كل المعاني؟

عن ماذا تعبر الكلمة عندما يكون العنف هو التجربة الوحيدة الممارسة؟

العنف يعرفه صالح أو نعيمة، يعرفه جيداً!

العنف كلمـة لا تبقي الأشياء عـلى حالهـا. هـو يعـرف هـذا أيضاً.

العنف لا يحتـاج إلى منـطق ولا إلى عــاطفـة، لأنــه يعـرف طريقه.

العنف لا يقبل البدائل لأنها لا تتلاءم مع طبيعته.

العنف لا يحتاج إلى الكلمات لأنه لغة وحده.

العنف إذن هـو الذي يمـلأ نفس صـالـح منـذ أن سمـع من

زوجة أخيه تصريحها الرهيب. هو وحده الطريق الوضاح أمامه.

ماذا يقول لابنته وهو في حالته النفسية تلك؟

الكلمات فقدت معانيها في ذهنه، فلم يبق للكلام معنى.

ونعيمة، إزاء ذلك ماذا تفعل؟ أتبرّر براءتها؟ البراءة لا تبرّر، يُبرّر الإجرام. أتنسج لباساً لطهرها بالكلمات وتنشره أمام أبيها، لتفّند ما تضافر على تدنيسها وادانتها؟

لا، لا ليس لها ما تقول. لا يهمّها إلى أين ينتهي بها الطريق لأن الطريق الذي كان يهمّها تركته وراءها.

ليس لها ما تقول لأنها أدركت وهي تحيا هذه الأحداث المتتالية أن المبادىء التي لقنت إياها بالمدرسة وقرأتها في الكتب، هي مخدرات يصنعها الكبار للتغرير بالشباب ليس إلا!

لا، لم يعد للكلمات التي تعلمتها المعاني نفسها التي عرفتها. ينبغي لها منذ اليوم أن تتعلم لغة أخرى للكلام مع الناس. وعي الانسان لا يحتوي على أكثر من مصيره إلا في القليل النادر. ووعيها هي لم تعد تحتاج إليه بالمرة. هذا أبوها يسير بها في الطريق الذي يختاره هو في كل لحظة تمرّ... أخذ بين يديه مصيرها وحياتها. إنها ابنته. هو الذي أعطاها الحياة. إذن من له الحق في محاسبته؟ له أن ينزع منها هذه الحياة التي أعطاها لها... إنه حرّ في تصرفه ما دام العنف لا يقبل معايشة المنطق.

ثم بعد كل ذلك، الحياة في معناها العام لا توقف سيرها مثل الأحداث أو المآسي.

لا داعي إذن أن تتكلم ولا داعي لأبيها أن يتكلم ؛ إذا كان من أجل إضافة صوت إلى ما في الطبيعة من أصوات، فالسيارة قادرة على إعطاء أبشع الأصوات للطبيعة.

جاءت زوجة أبيها وأخ لها في الثامنة وأخت في الرابعة، يستقبلونها، فأخذ صالح الطفلين من يديهما يمنعها من الاقتراب من نعمية. وقال لزوجته:

ـ لا، يا امرأة لا يكلمها أحد الآن. خذي ولديك إلى البيت.

فأرادت المرأة أن تستفسر عن السبب، فقال لها:

ـ ممنوع الآن كل حديث عنها حتى يتعينّ أمرها. عودي إلى شغلك مفهوم؟

عادت المرأة منكّسة رأسها متسائلة عمّا وقع. لم يكن لها أن تخالفه لأنه رجل لا يخالف. وهو رجل العنف.

تقدم أمام نعيمة إلى حجرة متطرفة بالحوش ففهمت دليلة أنه يريد سجنها فيها. وكان الأمر كذلك. فتح الباب وأمرها إشارة بالدخول فدخلت فقال لها:

ـ تبقين هنا إلى غد وبعد أن نعود من تيزي وزو يتقرر مصيرك.

لم تجبه بكلمة. اتخذت مكاناً في إحدى زوايا الحجرة وجلست على الأرض. خرج هو، ثم عاد بعد لحظات حاملاً في يده قلة

ماء وخبزة فوضعهما على سدة صغيرة بالبيت وأغلق الباب وهو خارج إغلاقاً محكماً.

كانت نعيمة تنظر إليه، لا بحقد وكراهية، ولكن بشفقة وبشيء من الاحترام وهي تراه في صمته ذاك وطريقة سلوكه. وتساءلت في نفسها: «لكن ماذا نعمل في «تيزي وزو؟» لقد قال لها «بعد أن نعود من تيزي وزو يتقرر مصيرك...» معنى هذا أنها تذهب معه إلى هذه المدينة!

ذهب صالح إلى الحجرة التي كانت فيها زوجته فأمر الطفلين بالخروج، وقال لزوجته:

- اسمعي إليّ يا امرأة، لقد وقع أمر خطير، ولكنه بالنسبة إليّ ما زال غامضاً، ولن يتضح إلا غداً. ولذلك أرجوك أن لا تسأليني ماذا أفعل، ولا ماذا وقع حتى أعود غداً من تيزي وزو. وعندئذ فإما أن نقيم حفلاً بمناسبة عودة بنتنا، وندعو جيراننا وعشيرتنا للعشاء، واما أن نقيم مأتماً، ننعى فيه إلى السكان موتها! لا أريد أن يسمع أي كان بهذا. مفهوم؟

وخرج قبل أن تتمكن زوجته من تركيب جملة تقولها له. ذهب إلى المكان الذي يضع فيه آلات الحفر، فأخذ معولاً ومسحاة، واتجه إلى مكان بنيت به حجرة لكنها ما زالت في طورها الأول، لا باب، لا جبس، لا جص، وبدأ يحفر. سمعت زوجته وقع المعول فاقبلت عليه تستطلع الأمر، فوجدته بصدد حفر قبر، فسألته فأجاب محذّراً لها:

ـ عودي إلى شغلك يا امرأة. قلت لك لا تسأليني عن شيء. مفهوم؟

نكست المرأة رأسها كالمرة السابقة وعادت إلى حجرتها خائفة، لا تدري ماذا تقول ولا ماذا تفعل! إنه ليس من الرجال الذين يعصى لهم أمر. لم يقل شيئاً أبداً ثم لم ينفذه... إنه رجل كلمة، ورجل عنف. إنه يحفر القبر من أجل نعيمة... إذن يريد قتلها بعد أن يعود من تيزي وزو، كما قال! لكن، لماذا يقتلها؟ ماذا فعلت؟ لا شك أنها مسألة تتعلق بالشرف... إذا قتلها ماذا تفعل هي وأولادها؟ هو من غير شك، سيلقى عليه القبض في وقت قصير. لأن جريمة القتل لا تخفى...

احتارت المرأة حيرة عظيمة، ولم تدر ماذا تفعل؟ وراحت تدور في القاعة كمن يبحث عن شيء، ولكنها لم تكن تبحث عن شيء. كانت تبحث عن مخرج، عن فكرة، عن موقف ولم تجد أي طريق واضح تسلكه مع هذا الزوج الطيّب العنيف. إنه فعلاً رجل طيّب إلى أقصى حدود الطيبة، ولكنه عنيف. وحين تتخذ الأمور لديه شكل الموت لا يعرف حلاً لما يعترضه من مشاكل سوى الحل الأقصى...

ولما انتهى من الحفر التحق بها وسألها أن تعدّ له قهوة، ففعلت، فشربها بلا سكر. وقال:

ـ لو كانت أمها حيّة لجعلتها تنام الليلة إلى جانب قبرها. لكنها يتيمة...

فأرادت زوجته أن تتكلم، فمنعها:

ـ قلت لك لا تكلميني الآن. . . غداً ينجلي الضباب. كل ما تقولينه أعرفه وأحس به أكثر منك. لكن لا بد أن أفعل ما يوجبه عليّ شرفي وضميري معاً.

* * *

كادت الليلة لا تنقضي على نعيمة. إنها أحست أن عمرها كله لم يكن أطول من هذه الليلة! لم تعرف ماذا يعتزم أبوها فعله هل يريد سجنها أياماً ثم يستنطقها بعد ذلك؟ ولماذا؟ لماذا لا يستنطقها أولاً، ثم يرى ما يفعل بعد ذلك، على ضوء ما يتوصل إليه من نتائج؟ لكنه يفكر بمنطقه هو، لا بمنطق نعيمة! ماذا كان يحفر بالنهار؟ لم تهتد نعيمة إلى جواب عن كل تساؤلاتها: وتعود إليها مقاطيع من زوجة عمها: «إنها تنتظر ولداً. . .»، فتقول في نفسها: «أنا أنتظر ولداً! ما أقسى المرأة على المرأة! وعمي، لماذا سكت؟ لماذا لم ينهها عن ذلك؟ هو أيضاً شريك في هذا الاتهام، لا شك في ذلك. لماذا أقع أنا حبلى وليس إحدى بناته».

وباتت الأسئلة والذكريات تتوارد على ذهنها في اختلاط غريب!

وفي آخر الليل لم تدر من أيّ منفذ دخل إلى عينيها الكرى. . . ولم تفق إلا على حسّ الباب يفتح عليها. وترى أباها واقفاً يشير إليها أن تتبعه إلى السيارة الشاحنة التي نقلتها بالأمس من العاصمة إلى هذه القرية.

تقلع السيارة، تطوي الأرض طياً. كأن أباها يستعجل الوصول، أو يستعجل موتها، ثم بعد سلوكه بضعة أنهج في مدينة تيزي وزو تقف السيارة أمام بناية. ينزل أبوها ويأمرها بالنزول. تنظر إلى باب العمارة وتتلاقى عيناها بلوحة طبيب، فتقرأ:

«الدكتور... اختصاصي في أمراض النساء». ينثلج صدرها. ترقص أحرف لوحة الطبيب سروراً لها. مدينة تيزي وزو تتخذ فجأة شكلاً آخر رائعاً في نظرها.

تبدو الجبال المحيطة بها مخضرّة زاهية. جبال جرجراء تظهر شامخة وقد نزعت عنها حلة الثلوج التي تلبسها شهوراً من السنة. الشمس تبدو وكأنها استعارت أشعة أخرى لتعبر لها عن فرحها. السماء ازرقت حتى كادت تصبح جسماً أزرق يلمس! في لحظة تغيّر كل شيء من السواد إلى النور، من الكآبة إلى السرور، من اليأس إلى الأمل، وقالت في نفسها وهي تحس بحنان عظيم يملأ نفسها نحو أبيها: «أبي ليس غبيّاً كعمّي... يريد أن يتحقق مما سمع، فسلك أقوم طريق.».

ضغط على جرس الباب ففتح له العامل فسأله عن الطبيب، وأخبره عن نفسه. وكان هذا الطبيب صديقاً له منذ حرب التحرير. لحظات ثم يخرج الطبيب الصديق مرحّباً سائلاً... يختلي به صالح بينما تبقى نعيمة تنتظر، ثم يعود الرجلان ويشير الطبيب إلى نعيمة أن تدخل. يفحصها فحصاً دقيقاً، يأخذ

مقداراً من بولها ويضعه في قصبة زجاجية يسخنها على النار. . . وبعد أن ينتهي من كل فحوصه يقول لها:

ـ تستطيعين أن تقومي. انتهى الفحص.

يجلس إلى مكتبه يطلب منها أن تنتظر لحظات بإحدى غرف الاستقبال، يكتب شهادة ثم ينادي أباها، فيسلّمه الشهادة ويقول:

ـ ابنتك أشدّ عذرة من العذراوات! اطمئن.
ـ صحيح؟
ـ ها هي الشهادة!

تناولها بلهفة فقرأها وتمتم في نفسه مبتهجاً: «أعرف أننا من عنصر طاهر» أعرف أن ابنتي لن تخون أباها. أعرف. . .

صافح الطبيب بحرارة، وخرج إلى غرفة الاستقبال حيث كانت نعيمة وحدها فقبّلها على جبينها وقال لها وقد ترقرقت عيناه بالدمع:

ـ لم تعرف عينا أبيك الدمع قبل اليوم أبداً. الناس أشرار يا بنيّتي وأنت شريفة، كما كانت أمك شريفة!

خرجا من عند الطبيب وقال لها وهما متوجّهان إلى السيارة:

ـ اليوم أنت ولدت ولادة جديدة! لك الحق في كل شيء، الأب جُعل لمثل هذه الأيام، وعندما نرجع إلى الدار نذبح كبشاً

وندعو جيراننا وأحبابنا بالقرية. رجوعك إلى الدار لن يكون عادياً... وفي نهاية السنة أسجّلك بالمعهد التكنولوجي للتربية.

في لحظة عرفت منه كل ما ينتظرها في أيامها المقبلة! لكن الشيء الذي كانت تريده في تلك اللحظات، وقد انقشع ذلك الكابوس الرهيب الذي كان جاثماً عليها، هو أن تنام. إن النوم هو أول شيء أحسّت بالحاجة إليه. إنها لم تنم منذ أيام نوماً عميقاً حقيقياً. كانت في عالم آخر... أما الآن فينبغي لها أن تنام أولاً، ثم تفكر بعدُ فيما وقع لها خلال هذه الفترة القصيرة.

توقّف أبوها أمام دكان لتصوير الوثائق. تركها بالسيارة ودخل، وسأل صاحب المحل أن ينقل له عشر نسخ عن الشهادة الطبية.

ثم عاد إليها وسألها إذا كانت تودّ التجول بالمدينة أو شراء بعض الأشياء، فأعربت له عن رغبتها في العودة إلى الدار، لأنها تحسّ بإرهاق وتعب.

انطلقت بهما السيارة من جديد عائدة إلى الدار. كانت نعيمة غير قادرة على الحديث، بالرغم من المحاولات المتعدّدة من طرف أبيها لجرّها له. كانت الدهشة والسرور والحزن وعواطف أخرى كثيرة تعتمل في نفسها، وكان عليها أن ترتّب أفكارها وتعيد إلى نفسها تنظيمها المنطقي قبل كل شيء آخر. وذلك لا يتأتّى إلا بالراحة.

وفعلاً، نفّذ صالح ما صرّح به، فأقام حفلاً دعا له أحبابه وعشيرته وكان في كل مرة يسأل عن المناسبة يجيب: الفرح لا يحتاج إلى مناسبة!

* * *

كانت الساعة حوالي التاسعة من مساء الثلاثاء. كل أفراد أسرة الشيخ علاوة بالصالون. عمر كان يتّقد غضباً. أقسم بكل الأيمان أن ينتقم من الفرع النقابي للمؤسسة التي كان يديرها مهما طال الزمن. لقد نجح إضراب العمال، وصدر قرار من الوزير بإيقافه عن العمل كمدير للمؤسسة. وقال لأبيه:

ـ أنا لا أخاف النقابة كوزيرهم. أعرف كيف أحبط كل مشاريعهم. لن يستطيعوا تسويق ما لديهم من بضائع. بعد شهر تأتيك أخبارهم وأخبار مؤسستهم. متى كان العمال يحسنون غير تنفيذ الأوامر؟

فأجابه الشيخ علاوة وهو كمن ملّ من سماع هذا الكلام منذ أربع وعشرين ساعة:

ـ دعنا الآن من هذا الموضوع، تحدّثنا فيه أكثر مما يستحق. سي عبد الكبير قال لي إنه يرى بنفسه بعض معارفه للتدخّل في القضية.

ـ من غير أن يتدخّل أعرف أنا بمن أتصل. لست كما تتصوّر مقصوص الجناح..

تكلم مراد الطبيب مغتنماً الفرصة للثناء على عبد الكبير:

ـ سي عبد الكبير رجل عظيم، وكذلك أولاده، لا سيما كريم.

أحست دليلة بالغثيان وهي ترى أباها وأخويها يثنون على عائلة بن عبد الجليل وقالت في نفسها وهي تفكر في أخيها مراد: الرجل هو الرجل. لا شك أن إحدى بنات عبد الكبير ضحكت له!

أما رضا فقد كان يبتسم من المهزلة التي تمثّل أمامه.

لكن العجوز كلثوم لم ترد أن تترك فرصة الحديث عن عائلة بن عبد الجليل تفوت دون أن تثير موضوعاً يهمّها أكثر من سواه:

ـ إنهم مستعدّون أن يعطوا وهيبة إذا تقدمنا لخطبتها!

فقال الشيخ علاوة باهتمام وحيوية:

ـ من مثلها؟ ومن مثل أهلها؟ إنها فرصة إذا ضاعت لن تعود. لكننا نحن لا نستطيع أن نفعل شيئاً. أنت الذي تعرف ما يليق بك (يعني مراداً).

فتكلم مراد:

ـ مبدئياً لا أرى أي مانع. إذا رأيتم أنتم أن مصاهرة هذه العائلة تناسبنا.

فرح الشيخ علاوة فرحاً عظيماً بتصريح ابنه. كاد يقوم من مكانه ويقبّله، ويقول له: «ابني العظيم، أنت ابني العظيم

والعـزيز معـاً. ظننتك تحب «ديـدي» والآن بعد تصريحك هـذا أنت حقاً نسخة مني.».

تهيّأ الشيخ عـلاوة ليردّ عـلى مراد بـأنه مـوافق كلية عـلى هذه الزيجة وإذا بجرس الباب يدق. فقال لهالة:

ـ انظري من بالباب.

قـامت هالـة لترى من الـطارق. وتشوّق الجميـع لمعرفـة هذا الزائر الليلي. قالت العجوز كلثوم:

ـ إنها اليامنة. ليس هناك من يأتي في هذا الوقت غيرها. ترى ماذا وقع لها؟

لكن الزائر الحقيقي لم يتـوقعه أحـد. إنه صـالح أبـو نعيمة. دخل ضاحكاً وهو يقول:

ـ إنكم كلكم هنا! جميل، جميل جداً أن أجـدكم كلكم... الجـوّ العائـلي وحرارتـه هي التي جمعتكم. ليس هناك من يعكّـر صفو عائلة محترمة... أليس كذلك يا أخي؟ أنت الذي يعـطي أهمية كبرى للمظاهر...

قـاموا في فـوضى لمصافحتـه، الشيخ عـلاوة، عمـر، مـراد، العجـوز كلثوم، زبيـدة... لكن دليلة لم تعجبها الـطريقـة التي دخـل بها عمّهـا. كما أن رضـا رأى في سلوك عمّه، في حـديثـه بـالخصوص تبجّجـاً لا معنى له. طبعـاً هو لا يعـرف أن طريقـة الاعتداد بالنفس عنـد البعض من الجزائـريين من أمثـال صالـح تعبّر عن نفسها بمثل هذه الكيفيّات.

لمـا رآهم صالـح في فـوضـاهـم تلك أقسم عليهم أن يلتزمـوا أماكنهم.

كـان قلب الشيخ عـلاوة يصطفق ذعـراً. كان يـظنّ أن أخاه جـاء لقتلهم عن آخرهم. هـو يعرف عمق القسـاوة التي يتّصف بها أخوه المجاهد، ومقـدار إقدامـه. وظن أنه قتـل نعيمة وجـاء ليجهز عليهم، قبل أن يسلّم نفسه للقضاء. فقال له:

ـ صالح، أنا أخوك!...

فرد عليه صالح قبل أن يتم كلامه:

ـ أنت أخي، وهــذه زوجــة أخي، وهؤلاء أولاد أخي... أعـرف ذلـك. اطمئن، لم آت لشر، مـا أنتم فيـه يكفيكم... جئت إليكم ببشرى...

وأخرج من جيبه حـزمة الشهـادات الطبّيـة التي صوّرهـا عن الشهـادة التي أعـطاهـا لـه الـطبيب وراح يـوزّع عــلى من كـان بالصالون. ولما وصل إلى هالة أعطاها نسخة وقال لها:

ـ أنت أيضاً... كلكم عندي سواء.

ولما أتم توزيع الشهادات قال يخاطب الجميع:

ـ فكـرت بـأنكم في حـيرة من أمـر نعيمــة، ولا سيـما أنكم تحملون اللقب نفســه الـذي تحمله حتى الآن... أقــول حتى الآن، لأن نعيمـة في المستقبـل لا يمكنهـا أن تحمـل لقبـاً قـذراً كلقبكم!

ولما رأى العجوز كلثوم تقلب الورقة التي سلّمها لها، قال لها:

ـ لم يعلّمك القراءة... خسارة، عالم مثله علّمك البذاءة ولم يعلمك القراءة!

تهيّأ مراد للكلام فأمره بالسكوت، وقال له وهو يكشف عن رشاشة تحت جلابته:

ـ أنت طبيب تعرف أكثر من غيرك ماذا تفعل هذه الرشاشة! إنما أطلب منك أن تقول لأبويك وإخوتك، هل هذه الشهادة صحيحة أم لا؟

أحسّت دليلة بالارتياح عندما علمت أن نعيمة لم تذهب ضحية غلطة. ولكنها لم يُعجبها تبجّج عمّها والطريقة التي جاء يمثّل بها دوراً لا معنى له. وخاصة عندما رأته أرى لمراد الرشاشة.

اقترب صالح من مراد، وأعطاه الشهادة الأصلية وقال له بتهديد:

ـ قل لهم إذا كانت هذه الشهادة صحيحة أم لا.

ثم اقترب من أخيه وقال له:

ـ لماذا كذبت أنت وزوجتك على بنت يتيمة، كادت تذهب ضحية كذبكم، لو لم أعرضها على الطبيب؟

قام الشيخ علاوة مغضباً وقال له:

ـ أنــا أكـذب؟ أنــا أكــذب؟ لا تستحي من شيبي تــرميني بالكذب؟ انتظر. . .

خرج مسرعاً ليأتي بالرسالة التي جاءت إلى نعيمـة، وأعطاهـا لأخيه وهو يقول:

ـ ما دُمنا وصلنا إلى هذا الحد، لا حياء في الدين اقرأ.

رمى صالح الرسالة على الأرض وقال له:

ـ لماذا أقرأ ورقتك؟ لو كنت رجلاً لعملت معها مثلي.

فقال له الشيخ علاوة مؤكّداً:

ـ اقرأ، إنها الرسالة التي جاءت إلى ابنتك!

كانت دليلة واقفة بالقرب من عمها، فرأت الرسالة، وعرفت أنها الرسالـة التي بعث بها إليهـا كريمـو باسم نعيمـة. فكّرت أن تعلن للجميع عن مضمون الرسالة قبل أن تقـرأها ليتـأكدوا من أنها أرسلت إليهـا. ثم عدلت عن ذلـك. مـا الفـائـدة؟ نعيمـة نجت والرسالة سواء كانت موجهـة لها أم لا، فهي لن تعـود إلى دار عمّها أبداً. إذن، لـو أخبرت بحقيقـة ما وقـع لكان مـوقفها يشبه إلى حد ما موقف عمّها.

غادرت الصالون كما غادره رضا الـذي كان أيضـاً غير راض عن الـطريقة «البهلوانيـة»، كما سـماها في نفسـه، التي أظهر بهـا عمّه ذكاءه وشهامته. .

لاحظ صالح الوجوم الذي كان فيـه أخوه وزوجتـه ومن بقي

بالصالون فقال يخاطب أخاه وهو خارج:

ـ عندما كنا نحارب كنتم لاجئين. لا تنسوا ذلك!

تسلل من بقي بالصالون واحداً بعد الآخر. ولم يبقَ إلا عمر والشيخ علاوة والعجوز كلثوم.

كان عمر طوال الموقف معلّقاً بين الحياة والموت. ظنّ أن الحديث يتطور إلى أن ينتهي إليه. وأن عمه لن يعفو عنه، لما يعرفه عن عنفه. لكن عمه كان أذكى من أن يرمي بنفسه وأولاده إلى التهلكة!

قامت العجوز كلثوم وقد شعرت بمزيج من الخجل والسخط والندم، إذ تحققت أن منى هي التي حاكت هذه المكيدة، لتبقى وحدها بالبيت! وقالت لزوجها وابنها:

ـ منى دبّرت، وأنتما اتبعتماها، ففضحتمانا كلنا!

رد عليها الشيخ علاوة بصوت كله حسرة وحنق:

ـ اسكتي يا امرأة، اسكتي لا تزيدينا هماً على ما نحن فيه.

لم ينبس عمر بكلمة. كل ما فعل هو مغادرة الصالون. فأضافت العجوز كلثوم:

ـ فضحتنا اللعينة في آخر العمر! وفضحتنا أنت... في آخر عمرك تقرأ رسائل غيرك! من يفعل هذا؟ ثم أنت الشيخ العارف، تنخدع برسالة؟ ألا تعرف أن الناس يكيدون لبعضهم بكتابة الرسائل؟ ألا تعرف أننا في التليفون نتلقى يومياً عشرات المكالمات الساخرة؟

فقام الشيخ علاوة يغادر الصالون بدوره، وهو كالذي يمشي في ممر مظلم لا يعرف منتهاه!

ركبت دليلة رقم الهاتف الذي أعطاه لها عبد العزيز الرجل الذي تغدّت معه بأحد مطاعم ساحة الحوت، وانتظرت لحظات، فأجابها صوت امرأة:

فقالت لها دليلة:

ـ من فضلك، أريد أن أتكلم مع سي عبد العزيز.

ـ للأسف. انه خرج منذ الساعة الثالثة...

ـ ألم يقل متى يعود؟

ـ لم يقل. من أنت؟ وماذا تريدين فيه؟

ـ أنا إحدى معارفه. كان المفروض أن أجده في مكتبه في هذا الوقت...

ـ صحيح لم يكن يتوقع الخروج. لكن السيد بن عبد الجليل، المعلم دعاه لأمر مستعجل.

اندهشت دليلة لسماع هذا الاسم! وسألت لكي تتحقق:

ـ بن عبد الجليل الذي يسكن بالقبة؟

ـ نعم. هل تعرفينه؟ الأب هو الذي دعاه لا الابن.

ـ سي عبد العزيز يعمل لدى بن عبد الجليل؟

ـ طبعاً. ألا تعرفين؟ هنا المصالح الإدارية لمعامل البلاستيك التي يملكها بن عبد الجليل في الحراش.

ـ شكراً على كل حال.

ـ إذا أردت أن يكلمك عندما يعود اتركي له رقمك.

ـ لا داعي لذلك شكراً. سأكلمه أنا مرة أخرى. مع السلامة.

وضعت السماعة وهي في حيرة من أمرها! ما هذا؟ ما هذا العالم الذي تحيا فيه؟ هو عالم مكائد أم عالم سراب؟ هل كريمو هو الذي حبك لها هذه اللعبة؟ دارت الدنيا بها ولم تدر ماذا تفعل؟ بقاؤها بدار أبيها لم تعد تقوى عليه. كل شيء انتهى بالنسبة إليها مع أهلها. إنها تشعر بغربتها بينهم.

عليها أن تغادر البيت في أقرب وقت ممكن. لكن الأبواب التي طرقتها كلها كانت مغلقة حتى الآن.

آخر باب للخلاص هو الرجل الذي تعرّفت به وها هو ذا يظهر بدوره سراباً في السراب العام الذي يطوّقها.

الأمل الوحيد الذي بقي أمامها هو نصيرة ـ صوناكوم. لعلها تقبلها أياماً عندها حتى تجد حلاً لمشكلة السكن.

بحثت في محفظتها عن المذكرة الهاتفية، وركبت رقم الهاتف. أجابتها نصيرة بعدما تبادلا التحية:

ـ كنت خارجة، لو طلبتني دقيقة من بعد لما وجدتني! كيف أحوالك؟

ـ مزفتة. والحمد لله!

ـ ماذا جرى؟

ـ لا أقول لك شيئاً الآن، إنني أكلمك من البيت. قولي،

نصيرة، هل تقبليني لاجئة عندك بضعة أيام؟

ـ بكل سرور!

ـ هل أستطيع أن آتي الآن!

ـ أنا آتية إذن. باي، باي!

وضعت السماعة وصعدت إلى غرفتها وأخذت حقيبتها متأهّبة لمغادرة المنزل. فقالت لها هالة:

ـ سمعتك وأنت تتكلمين في الهاتف...

ـ وماذا يترتب على ذلك؟

ـ أنت ذاهبة نهائياً؟

ـ نهائياً!

ـ أنت الأولى التي تخرج من هذه الثكنة بإرادتها! «برافو»!.

العنف يعرفه صالح أبو نعيمة، يعرفه جيداً!

العنف كلمة لا تبقي الأشياء على حالها. هو يعرف هذا أيضاً.

العنف لا يحتاج الى منطق ولا الى عاطفة، لأنه يعرف طريقه.

العنف لا يقبل البدائل لأنها لا تتلاءم مع طبيعته.

العنف لا يحتاج الى الكلمات لأنه لغة وحده.

العنف اذن هو الذي يملأ نفس صالح منذ أن سمع من زوجة أخيه تصريحها الرهيب. هو وحده الطريق الواضح أمامه.

ماذا يقول لابنته وهو في حالته النفسية تلك؟

الكلمات فقدت معانيها في ذهنه، فلم يبق للكلام معنى.

أبو عبدو البغل
https://facebook.com/groups/abuab/

تصميم الغلاف : نجاح طاهر

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ١٦٣٣
ص.ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت